الشيخ محمد الجيلاني حمزة
الواعظ بجامع الحنفية بالمهدية

كتاب
الإشراق الإسلامي

الجزء الثاني

الشركة التونسية للتوزيع

الامانة وأثرها في المجتمع

روى الطبراني بسنده إلى عبدالله بن عمر رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ « **لا ايمان لمن لا امانة له** »

لما كانت الأمانة أظهر خلق من أخلاق الأنبياء والمرسلين وأجمل صورة يتحلى بها الإنسان وكانت الخيانة شراً مستطيراً وفساداً كبيراً تدل على خبث صاحبها وسوء طويته نفى النبي ﷺ الإيمان عن الخائن لأن المؤمن لا تسفل نفسه إلى مستوى يترفع عنه الكلب ولا يقع فيه وذلك أننا نرى الكلب يأتي بالصيد طائراً كان أو حيواناً إلى سيده من غير أن يمسه بسوء مع أنه قد يكون جائعاً . فالخائن للأمانة أخس نفساً من الكلاب وأقل قيمة وأحقر شأناً .

إن الرسول شاد بذكر الأمانة ونوه بها في كثير من نصحه وإرشاده وبالغ في ذم الخيانة حتى جعلها أمارة من أمارات النفاق فقال : « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا آؤتمن خان » رواه الإمام مسلم .

هذا والأمانة تشمل نوعين أمانة مع الله وأمانة مع الناس . فالأمانة مع الله هي أداء حقوقه التي كلفنا بها كالصلاة والزكاة والصوم وغير ذلك من التكاليف الشرعية لهذا سمى الله مخالفة كتابه وسنة رسوله خيانة فقال : « **يا ايها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول وتخونوا اماناتكم وانتم تعلمون** » لأن من أضاع حقوق الله لن يصون حقوق العباد ولا يؤتمن على الدنيا من لا يؤتمن على الدين . ومن حافظ على الصلاة ولم يضيعها كان قائماً بحفظ أمانة ربه صائناً لها من الضياع ومن أخل بشيء من حقوقها كان خائنا لأمانته مضيعاً لوفائه قال ﷺ : « الصلاة أمانة والوضوء أمانة والكيل أمانة والوزن أمانة » .

وأما الأمانة مع سائر الخلق فهي حفظ أموالهم وأعراضهم وأسرارهم فمن آئتمنك على سر يجب أن تكتمه ولا تفشيه لأحد من الناس، قال ﷺ " المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس سفك دم حرام أو آستحلال عرض أو آقتطاع مال بغير حق فعلى من حضر هذا المجلس الذي تستحل فيه هذه الأشياء أن يفشي هذا الضرر إلى الحكام وما عليه ملام ومن آئتمنك على وديعة يجب عليك أن تحفظها ثم تردها إذا طلبها صاحبها.

قال ﷺ : « **أد الأمانة الى من آئتمنك ولا تخن من خانك** » ويدخل في ذلك أمانة الشريك لشريكه قال ﷺ يقول الله **أنا ثالث الشريكين ما لم يخن احدهما صاحبه فاذا خان خرجت من بينهما** يعني آرتفعت البركة من تجارتهما ومن الأمانة الإستشارة لأن المستشار مؤتمن ومن الأمانة الوظيفة التي يشغلها الرجل في خدمة حكومته فيجب عليه أن يخدمها بالصدق والإخلاص في عمله وكذلك العمل الذي يعمله الصانع فإنه أمانة في يده فعليه الوفاء به وذلك بالإجادة والإتقان وكذلك المعلم والطبيب والتاجر فإن منافع الأمة أمانة في أيديهم فعليهم الوفاء بها .

ونحن نتأسف أشد الأسف فقد أصبحنا في زمان ضاعت فيه الأمانة وعزّ رجالها فقد شاهدنا من زمن غير بعيد يقترض الرجل من جاره أو من صديقه لا يطلع عليهما أحد إلا الله ولا تكتب كمبيالة بالدين لشدة الثقة وتأصل الأمانة واليوم آنعكس الأمر وصار الإنسان لا يأمن على ماله مهما أعطاه المدين من ضمان كما كان الرجل يخجل من مدينه أن يراه قبل سداد دينه فأصبح المدين إذا طالبه صاحب الدين يشتمه ويسبه بل يضربه لذلك صار الإنسان لا يجد من يرحمه لقلة الثقة وضياع الأمانة.

وخلاصة القول أن الأمانة كما تكون في المال تكون في الأسرار والأعراض وإني أذكر لكم قصتين في تقدير الرجال والنساء للأمانة عسى أن تكون فيهما عظة وعبرة لأولي الأبصار.

القصة الأولى

كان يعيش في مدينة الاسكندرية فتى يدعى عزالدين شاء والده أن

يعلمه مهنة من المهن لكنه كان يرغب من صميم قلبه أن يصبح بحاراً فحصل له والده على عمل في سفينة مع تاجر مغربي اعتاد أن يأخذ معه بالات من الأقمشة ليبيعها بمدينة مراكش وقد أعجب التاجر بأمانة هذا الولد وصدقه وإخلاصه فقال في نفسه : « هذا هو الفتى الذي أريده » وذات يوم وقع التاجر مريضاً فلم يتمكن من مرافقة سفينته التي كانت على أهبة السفر مشحونة بالأقمشة إلى المغرب ، فماذا في وسعه أن يعمل؟ لقد أدرك أن هناك شخصاً واحداً يمكن أن يأتمنه على شحنته ألا وهو عزالدين فأخبره أنه ينبغي له أن يأخذ على عاتقه أمر الشحنة وكان عزالدين صغير السن والمهمة التي سيضطلع بها عسيرة. ولكنه كان فرضاً عليه فلم يتملص منها وسافر بالسفينة حتى وصل إلى مدينة مراكش واتخذ الترتيبات اللازمة لعرض أقمشته في سوق المدينة .

وكان يحكم المدينة ملك جبار وفي ذات يوم أقبل الملك إلى السوق واطلع على أنواع الأقمشة التي عرضها عزالدين للبيع فاختار واحدة منها ثم سأله عن ثمنها فأخبره به فعرض عليه نصف الثمن الذي ذكره ، فقال عزالدين : كلا إنني لا أطلب أكثر مما تساوي ، وهذا هو الثمن الذي أمرني به سيدي وما أنا إلا خادم عنده ولا يمكنني أن آخذ ثمناً أقل من ذلك ، فغضب الملك وصاح في وجه عزالدين قائلا : إني أمهلك إلى غد لتفكر في الأمر وسار في سبيله. فأعاد عزالدين القماش إلى مكانه وراح يقوم بخدمة زبائنه الآخرين بهدوء ورباطة جأش وتوسل إليه أولئك الذين كانوا حوله لكي يرضخ لمشيئة الملك فينقذ حياته لكنه أجاب: إن حياتي بيد الله فإذا خسر سيدي فلساً واحداً بسببي فأنا لست خادماً أميناً .

وجاء الغد وأقبل الملك وسأل عزالدين مرة أخرى عن ثمن قطعة القماش التى اختارها فتلقى الجواب نفسه وأردف عزالدين قائلا : خذ حياتي إذا شئت لكنني سأموت رجلاً شريفاً وخادماً أميناً لسيدي وتوقع الجميع أن يسمعوا أمر الملك « اقطعوا رأسه » لعلمهم أنه كل من قاوم رغائب الملك كان جزاؤه الإعدام لكن الملك الجبار لم يعط هذا الأمر وفجأة بدل محياه وصاح قائلاً: إنك

فتى نبيل أمين وكم أتمنى لو كان لي خادم مثلك . هات يدك لأصافحك . إنك ستكون صديقاً لي وسأجعل من قطعة القماش ثوب شرف تذكاراً لأمانتك ورمى الملك كيساً من الذهب على الطاولة وقال لخدمه أن يأخذوا قطعة القماش التي اشتراها ومضى في طريقه، وارتقى ذلك الشاب المستقيم والخادم الأمين حتى أصبح أميراً في الجيش وخاض غمار القتال من أجل بلاده بمثل تلك الشهامة التي باع بها قماش سيده ولا يزال اسمه مكرماً في وطنه وهو علم على الهدى والخير والنور.

العبرة من هذه القصة

إن حكاية هذا الفتى عزالدين تنطوي على أبلغ درس في الأمانة والشهامة والشجاعة حتى أمام الردى وقد يكون هذا الولد الأمين ممن لا يتحدث الناس عن عمله وسعة معارفه واطلاعه وقد لا يكون من ذوي الأحساب والأنساب والثروة ولكنه محبوب إلى النفوس كريم على الناس لأنه أمين وكفى فإذا شئت أن تكون عظيماً فكن أميناً فالأمانة تاج العظماء.

واما القصة الثانية فتتلخص في

أن بعض الملوك رأى في يوم من الأيام امرأة على جانب عظيم من الحسن والجمال والقد والاعتدال فسحرت لبه وقلبه فسأل عنها فعلم أنها زوجة لرجل من رجال دولته فبدا له وجه الحيلة وقرب له الشيطان طريق الوصول إليها فبعث زوجها في أمر من أمور الدولة يقتضي أن يغيب عن بيته أياماً ولما تم له ذلك ذهب في ليلة من الليالي ودخل على المرأة في بيتها وهو متنكر لئلا يراه أحد من رجال دولته وبعد أن دخل الدار نظرت المرأة إلى وجهه فعرفت أنه الملك وولي الأمر ففرحت به وقدمت له قهوة وقد فطنت إلى ما أراده وعرفت أنه ما بعث زوجها فيما بعثه إلا لينال منها مراده فقالت مولاي : إن زوجي فلاناً خادم من خدامك، وإني أعيذك أن تتناول بقية طعام ذاقه ثم تركه وقديماً قالوا :

إذا وقع الذباب على طعام ... رفعت يدي ونفسي تشتهيه
وتجتنب الأسود ورود ماء ... إذا كان الكلاب ولغن فيه

فاستحى الملك مما قالت واعتذر وخرج ورجع من حيث أتى ولما رجع الرجل من سفره دخل داره فرأى بحجرة نومه زجاجة صغيرة من المسك الخاص بالملك فسأل زوجته فتغير وجهها ولم تدر ما تقول فأمرها أن تنصرف إلى بيت أبيها ففعلت. وبعد أيام علم الملك بما كان بين الرجل وزوجته فأحضره بين يديه وقص عليه ما كان من أمره وأمر زوجته وحدثه بما رآه من عفافها ودينها واستقامتها ثم طلب منه أن يجعلها مربية لبناته عسى أن يراهن مثلها في العفاف فقبل الرجل وعاد إلى معاشرة زوجته وشكرها على إخلاصها وصون نفسها وأمانتها

العبرة من القصة الثانية

نأخذ من القصة التالية أن عفاف المرأة هو الأساس الذي تقوم عليه تربيتها وهو السلاح الذي تدافع به عن شرفها وكرامتها فالمرأة المتدينة لا تحتاج إلى حارس ولا إلى أن تسجن بين الحيطان فهي تحافظ على عرضها وتراه أغلى من المال والياقوت والجوهر لذلك ندرك أن الرسول ﷺ فضل الجمال المعنوي وهو الدين على الجمال الصوري في قوله : « الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة » وقوله : تنكح المرأة لأربع ، لمالها وجمالها وحسبها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك فينبغي للعاقل ألا يبحث في زواجه عن الغنية إن غناها يطغيها ويمكنها من استعباد الرجل وإذلاله ومتى ذل الرجل للمرأة وضاعت قوامته عليها فسدت سعادتهما كذلك ينبغي أن لا يتخيرها لجمالها وحده فإن جمالها قد يفتنها وألا يتخيرها لينال بها منزلة في الحياة فإن الرجل إذا انحطت منزلته في المجتمع عن زوجته لا بد أن تفتخر عليه بجاهها وتحقره وتسيء عشرته وخلاصة القول أنه ينبغي للعاقل أن يبحث في زواجه عن المرأة المتدينة المهذبة وهذا لا يمنع أن تكون جميلة شريفة الحسب والنسب ولنا في هذه القصة أكبر عبرة فهي تدلنا على أن ما يتخيره المرء فيمن يرغب التزوج منها هو دينها وخلقها فالفتاة أو المرأة المتدينة المهذبة يعصمها دينها وخلقها عن خيانة الزوج وبذلك يطمئن الزوج على شرفه وعرضه لا تساوره الوسواس فيها ولا تنغص هناءته سيرتها.

القرض وأداؤه

جاء في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال : **من أخذ أموال الناس يريد اداءها ادى الله عنه ومن اخذها يريد اتلافها اتلفه الله** هذا الحديث يبشر المؤمن الذي يأخذ أموال الناس على سبيل القرض يعني السلف وهو ينوي سدادها في الوقت المعين يعامله الله بحسن نيته فيفتح له مغاليق الرزق ويمد له في العطاء أما من أخذ أموال الناس وهو ينوي أكلها فإن الله تعالى يهلكه ويفتح عليه المصائب في الدنيا وينزع ثقة الناس به ويجعله عبرة بين خلقه ولقد كان الناس في الصدر الأول من الإسلام يتعاملون على سنة الله فإذا نزلت بأحدهم ضائقة تجد الكثيرين من أهل الخير يسارعون في تسليف أخيهم، أما اليوم فلا تجد أحداً من الناس يواسيك أو يسلفك والسبب في ذلك هو ضياع الثقة وقلة الأمانة بين الناس والحيل والمماطلة حتى رأينا من يستلب أموال الناس بالطرق الشيطانية ثم يبددها ويعلن إفلاسه لينجو من دفع حقها وهؤلاء ينذرهم الله بحرب لا قبل لهم به فتكثر عليهم المصائب والأمراض في أهلهم وفي أنفسهم ولقد كان سيدنا محمد ﷺ يقترض ويحسن الآداء.

وقد قص النبي ﷺ قصة على أصحابه تتعجبون منها وترون كيف أن الناس كانوا في العصور الغابرة متحلين بالصدق والأمانة. روى البخاري أن رسول الله ﷺ حدث أصحابه وهو يعظهم أن رجلا من الأمم السالفة سأل صاحباً له من بلد آخر أن يقرضه ألف دينار فقال المسؤول آئتني بكفيل "يعني بضامن" فقال المستدين لا كافل لي سوى الله فقال صاحب المال رضيت بالله كفيلا ولكن آئتني بشاهد يشهد على أنك أخذت مني هذا المال، فقال الرجل الله شهيد بيني وبينك فقال صاحب المال رضيت بالله شاهدا ثم قال له:

خذ هاهي النقود وأخذ يحسب له الألف دينار وكتب هذا الدين إلى أجل مسمى فذهب الرجل وقضى شأنه بالدنانير ولما حل الأجل لرد هذا الدين إلى صاحبه لم يجد الرجل سفينة يسافر عليها ليذهب إلى الرجل ويدفع دينه كما إنه لم يجد مسافراً أميناً يبعث الدنانير معه فخفق قلبه واضطرب من هيبة ربه وصار يحدث نفسه ويقول كيف أعمل ؟ وقد جعلت الله علي كفيلاً وشهيداً وقد حل الموعد والبحر بيني وبين صاحبي فاستخار الله وبيت الاستخارة وفي الصباح أخذ خشبة ونقرها ووضع فيها الألف دينار ومعها رسالة يعتذر فيها لصاحب الدين عن التأخر في الدفع لعدم وجود مركب يسافر عليه وأنه لم يجد من يثق به ليسلمه المال ثم أحكم هذه الخشبة ورماها في البحر.

هذا ما كان من أمره أما صاحب الدين فكان يخرج كل يوم إلى شاطيء البحر لعله يجد صاحبه فلم يظفر به وبينما هو كذلك رأى خشبة تجري مع الأمواج نحو الشاطيء فتناولها وحملها معه ولما رجع إلى منزله كسرها فوجد فيها الدنانير ورسالة ففضها وقرأها وحمد الله وشكره على وجود دينه وبعد أيام حضر المدين ومعه الألف ديناراً لئلا تكون الأولى ضاعت في البحر فدق عليه الباب وعند فتح الباب رأى صاحبه فرحب به ترحيباً كبيراً وعانقه والدمع ...ا من عينيه لشدة فرحه ثم اعتذر إليه وأراد أن يدفع له الألف دينار فقال له صاحب الدين إن الله قد دفع عنك فالذي بعثته في الخشبة قد اتصلت به فارجع إلى أهلك مشكوراً مأجوراً. فانظروا أيها الإخوان كيف أن الإنسان يبلغ بنيته وكيف يكون عون الله لمن ينوي رد أموال الناس لذلك يجب على كل واحد أن يربي نفسه على هذا الخلق العظيم وفي هذا الحديث حث الناس على التمسك بالأمانة وترغيب للكل في أن نكون أمناء صادقين.

وفقنا الله للتحلي بالأمانة وجنبنا الخيانة .

المماطلة في اداء الحقوق

روى البخاري أن النبي ﷺ قال : « **مطل الغني ظلم** »

المطل : هو تأخير دفع الديون لأصحابها من غير عذر يمنعه عن آدائها إليهم، والمراد بالغني في هذا الحديث الذي يقدر على دفع الدين لصاحبه ولكنه يؤخره عن ميعاده بعد طلبه منه.

فمن أخذ من أحد من الناس ديناً وعين له ميعاداً بدفعه إليه فجاء وقت الدفع وحل الأجل المضروب لسداد الدين وطلب الدائن دينه فتأخر عن الدفع وماطل مع قدرته على الاداء فقد ظلم يعني ظلم صاحب الدين بتأخيره حقه عن الميعاد وظلم نفسه بتعريضها للطعن ونزع ثقة الناس منها وتفريق القلوب عنها وكراهية الناس لها في الدنيا وكذلك عرض نفسه لعقوبة الله تعالى في الآخرة جزاء له على فعله الذميم. لست أدري كيف ينسى الإنسان ما عليه وكيف يتأخر عن سداد ما هو مطالب به من الدين حتى يضطر صاحب الدين إلى رفع شكاية إلى الحاكم وإلى تضييع وقته في التقاضي وحضور الجلسات وتضييع ماله بدفع رسوم القضايا وأجر المحاماة وكل هذه أمور تقطع الروابط التي بين المسلمين وتولد الغضب والشحناء في صدورهم وتنزع الثقة من نفوسهم.

أما كان الأجدر بالمدين أن يقابل الإحسان بالإحسان ويدفع الدين لصاحبه في ميعاده أو يعتذر له إذا وجد نفسه في ضيق ويطلب منه مد الميعاد إلى أجل أوسع ويشكره على معروفه فقد قال ﷺ : من صنع معكم معروفاً فكافئوه فإن لم تكافئوه فادعوا له، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله.

إن صاحب الدين هو الذي أزال كرب المدين وفرج همه وغمه وآنتشله

من الضيق الذي كان قد حل به فكان عدلاً من المدين أن يجتهد ما آستطاع في دفع الدين له وإعطائه حقه وإنجازه وعده من غير مراوغة ولا مماطلة أما من آستدان من شخص ديناً إلى أجل فجاء الأجل وحل الدفع ولكن الأمور خانته ولم يجد عنده ما يسد به دينه لصاحبه، فمثل هذا لا يعد ظالماً ولا مماطلا والواجب على الدائن في هذه الحالة أن ينظر المدين ويؤخر الميعاد إلى وقت آخر حتى تتيسر حالته ويستطيع أن يسدد دينه قال الله تعالى في كتابه العزيز: **« وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة وان تصدقوا خير لكم »** ومعنى الآية أن الله يطلب من المدينين أن ينظروا إلى المدينين المعسرين إلى وقت تحسن فيه حالتهم فيمكنهم أن يسددوا ديونهم مع الرخاء والسعة لا مع الضيق والشدة وإن كانوا أغنياء موسرين والمدينون فقراء معسرين فخيرلهم أن يتصدقوا عليهم بهذا الدين ويبرروا ذمتهم منه فيفرجون بذلك كربهم ويزيلون غمهم وينتشلونهم من الشدة التي ضيقت عليهم الخناق وجعلت الدنيا في وجههم كسم الخياط حتى يجازيهم الله يوم القيامة عند آشتداد الكروب **« يوم يفر المرء من اخيه وامه وابيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه »** .

وقال رسول الله ﷺ **« من سره ان ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر ويضع عنه»** وقال **« من فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة »** .

أما من كان ضعيف الإيمان لا رحمة في قلبه ولا شفقة عنده على بني الإنسان فإنه ينتهز هذه الفرصة ويعجل بالإنتقام من المدين الفقير وينزل الحجز على أمواله ليستولي عليها ويأخذها بأقل من قيمتها ولا يهمه بعد ذلك خراب بيت المدين ولا تشتيت أسرته ولا ضياع ثروته بل يجعلها فرصة وغنيمة وكأنه لم يطرق أذنه قرآن ولم تصل إليه سنة.

روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال : أتى الله بعبد من عباده آتاه مالا وقال له : ماذا عملت في الدنيا ؟ قال يارب آتيتني مالا فكنت أيسر على

الموسر وأنظر المعسر فقال الله تعالى : « أنا أحق بذالك منك ، تجاوزوا عن عبدي »، وروى كذلك بسنده إليه قال : كان فيمن قبلكم تاجر يداين الناس ولم يوجد له من الخير شيء وكان يقول لفتيانه : إذا أتيتم معسراً فتجاوزوا عنه لعل الله أن يتجاوز عنا فتجاوز الله عنه .

فعلى الدائنين أن ينظروا المعسرين إلى الميسرة حتى تتحسن حالتهم فيستطيعوا أن يدفعوا ما عليهم من غير ضيق ولا شدة وعليهم أن يحسنوا الطلب والتقاضي ليخففوا على المدينين ألم الدين عملا بقول النبي ﷺ : **« رحم الله امرأ سهلا اذا باع واذا اشترى واذا اقتضى »** .

ومن مطل الغني ما يقع من بعض الناس من تأخير أجرة الأجير بعد انتهاء عمله فإنا نرى الأجير فقير الحال كثير العيال لا يملك من حطام الدنيا غير قوت يومه ولا يعرف للمكسب باباً غير حرفته ويأتي الغني ويماطل في دفع أجرته اليوم بعد اليوم والأسبوع تلو الأسبوع وهو يتمتع بما لذ وطاب من أنواع الطعام والأجير هو وأولاده يتضورون جوعاً فمن فعل ذلك كان ظالماً وخصماً لله يوم القيامة ومن كان خصمه أهلكه.

روى البخاري أن النبي ﷺ قال : **ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة وعد منهم رجل استأجر أجيراً فاستوفى منه عمله ولم يعطه أجره** وقال عليه الصلاة والسلام. **« اعطوا الأجير اجره قبل ان يجف عرقه »** ورواه ابن ماجد.

وفقنا الله إلى ما يحبه ويرضاه وأرشدنا إلى ما يجعل الألفة والمحبة بين المسلمين إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير .

نقض العهود يؤدي الى النفاق

قال الله تعالى في سورة التوبة « **ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم الى يوم يلقونه بما اخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون الم يعلموا ان الله يعلم سرهم ونجواهم وان الله علام الغيوب** ».

من تأمل في هذه الآيات يجد قصة يالها من قصة تقطع القلوب وتفتت الأكباد عن شخص آنحاز إلى ماله ونقض عهده ومواثيقه مع رسول الله ﷺ بعد أن حلف الأيمان الغليظة على تنفيذ أوامر الله، وصورة هذه القصة كما جاء في الحديث الصحيح أن ثعلبة بن حاطب وكان من الأنصار قال : يارسول الله أدع الله أن يرزقني مالا فقال عليه السلام :« يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه » فراجعه وقال : والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالا لأعطين كل ذي حق حقه، فدعا له النبي أن يرزقه الله مالا، فآتخذ غنما فنمت كما ينمي الذود حتى ضاقت بها المدينة فتنحى عن المدينة ونزل واديا وآنقطع عن صلاة الجمعة والجماعة فسأل عنه الرسول ﷺ فقيل : كثر ماله حتى لم يسعه واد، فقال : ياويح ثعلبة ، ثم بعث رسول الله ﷺ رجلان لأخذ الصدقات فآستقبلهما الناس بصدقاتهم ومرا بثعلبة فسألاه الصدقة فقال : "ماهذه إلاجزية، وقال أرجعا حتى أرى رأيي فلما رجعا قال لهما رسول الله ﷺ قبل أن يكلماه « **ياويح ثعلبة** » قالها مرتين فنزل قوله تعالى:« **ومنهم من عاهد الله**»إلى آخر الآية فسمع بعض أقاربه فأتاه وقال له: إن الله أنزل فيك كذا وكذا فجاء ثعلبة بالصدقة فقال له النبي :« إن الله منعني

أن أقبل منك صدقتك » فجعل يبكي ويحثو التراب على رأسه ولما قبض رسول الله ﷺ جاء لأبي بكر رضي الله عنه فلم يقبلها وهلك ثعلبة في زمان عثمان بن عفان رضي الله عنه .

العبرة من هذه القصة

نأخذ من هذه الآيات أن امتناع الرسول بعدم قبول صدقة ثعلبة كان بوحي الله لأنه منافق والصدقة لا تأخذ من المنافق لأنه لا يريد بها وجه الله فهو قد طلب من النبي أن يغنيه وعاهد الله أنه إذا حقق مناه أن يخرج زكاته ولما استجاب الله لدعاء نبيه وحقق له مراده وأعطاه المال الذي طلبه شحت نفسه وبخل بالصدقة فعاقبه الله وأورثه نفاقاً في قلبه إلى يوم يلقاه جزاء كذبه ونفاقه وفي هذا المنع زجراً له ولأمثاله.

فاعتبروا أيها الإخوان بهذه الآيات فهي عبرة وموعظة لمن أعطاه الله بسطة في الرزق ولم يؤد حق السائل والمحروم فيه وتراه يشق عليه دفع درهم في إغاثة ملهوف ومساعدة مكروب أو أرملة أو مسكين وينفق ماله على اللذات بلا حساب فعلى الشخص رحمة المضطر بما يمكنه على ما يقتضيه حاله كإطعام جائع أو كسوة عريان وإنقاذ مشرف على الهلاك وهذه هي السعادة الحقيقية لأن السعادة ليست في جمع المال والحرص عليه وإنما هي في الجود والكرم وإغاثة الملهوف ومساعدة المكروبين والأرامل والبائسين فالسخي قريب من الله ، قريب من الجنة ، قريب من الناس بعيد عن النار . قال رسول الله ﷺ : مامن يوم غربت فيه شمسه إلا وملكان يناديان : اللهم اعط منفقاً خلفاً وممسكاً تلفاً فالزكاة أمانة أودعها الله عندك لحساب مستحقيها فإذا أنت لم تؤدها لهم إعتبرك الشرع مانعاً للصدقة خائناً للأمانة فليحافظ كل منا على تأديتها وبذلك ينور الله قلوبنا ويبارك لنا في أموالنا ويدرأ عنا مصائب الدنيا ويخفف حساب الآخرة.

بماذا يزول الهجر بين الناس

روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال : لايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام ».

الهجر سبب البغضاء والشحناء وأصل التدابر وعلة الشقاء فما آختلف اثنان وتهاجرا إلا آتسعت بينهما هوة الخلاف وقعد كل لصاحبه بالمرصاد يكيد له ويذكر زلاته فيدب الفساد بينهما وبذلك تكثر الشرور بين الناس وتزول بينهم المحبة والألفة . فينبغي لكل مسلم أن لا يعادي أخاه المسلم من أجل الشهوات ولا يخاصمه من أجل وشاية نقلت إليه بدون أن يتثبت في الأمر قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا » وحرام على المسلمين أن يتخاصموا من أجل هذه الدنيا الفانية التي لا بقاء لها فإذا تغلبت الشهوات ووقع الخصام بين اثنين فالإسلام في هذه الحالة ينهي عن أمرين .

الأول : الغلو في الخصومة فلا تحمله العداوة والبغضاء على التنكيل بخصمه وإيذائه في نفسه أو دينه أو عرضه أو ماله فقد ينقلب العدو صديقاً بعد ذلك فيكون إيذاؤه مثار غم شديد ينغص عليه الحياة ويوقع صاحبه في النـدم .

والأمر الثاني : هو التمادي والإستمرار في الخصومة فلا يحل للإنسان أن ينسى الود القديم ويستمر في هجر أخيه وخصامه ولذلك حرم النبي ﷺ على المسلم أن يهجر أخاه المسلم فوق ثلاثة أيام يلتقيان فلا يكلم أحدهما الآخر ولا يحييه بل يعرض عنه وليس على الهجر عقوبة في الأيام الثلاثة الأولى لأن من طبيعة النفس الغضب فيباح الهجر فيها ففي اليوم الأول يسكن غضبه وفي الثاني يراجع نفسه وفي الثالث يعتذر ويتراجع الصديقان ثم يتصافيا وأفضلهما

الذي يبدأ بالسلام لأنه بإبدائه بالسلام يطلب ود صاحبه وعفوه فتصفو نفسه ويلين قلبه ويحل الوئام محل الخصام ويكون الفضل والثواب للبادىء ورضي الله عن الإمام الشافعي الذي يقول :

لما عفوت ولم أحقد على أحد ... أرحت نفسي من شر العداوات
إني أحيي عدوي عند رؤيته ... لأرفع الشر عني بالتحيات

ومن آداب الإسلام قبول معذرة الخصم والعفو عن الناس والتسامح معهم قال الله تعالى : « **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين** » ، وقال : « **وليعفوا وليصفحوا الا تحبون ان يغفر الله لكم والله غفور رحيم** » وروى البخاري أنه وقعت مشادة كلامية بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فاختصما إلى رسول الله ﷺ فظهر غضبه عليه الصلاة والسلام فلما رأى أبو بكر ذلك جثا على ركبتيه وقال يا رسول الله إني كنت أظلم من عمر وقال عمر بل كنت أنا أظلم يا رسول الله وذلك منتهى الرفق والمودة والمحافظة على الوفاء والوئام أما واجب جماعة المسلمين حيال المتخاصمين فهو أن يقربوا بين قلوبهم حتى تزول العداوة والبغضاء من أنفسهم ويتم الصلح بينهم كما أمر الله بقوله : « **إنما المؤمنون إخوة فاصلحوا بين أخويكم** » ، وقال : « **لا خير في كثير من نجواهم الا من امر بصدقة او معروف او اصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه اجراً عظيماً** » .

وقال عليه الصلاة والسلام : ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ، قالوا بلى يا رسول الله ، قال : الإصلاح بين الناس .

فالإصلاح بين الناس فريضة على الأمة إن تركته تعرضت جميعها لذنب عظيم وضرر كبير إذ ترك المتخاصمين ينشأ عنه الحقد والحسد والغيظ والشماتة وحب الانتقام وبالصلح بينهما يتبدل الكدر صفاء والغضب حلماً والبغض محبة والقطيعة مودة ومسامحة لأن الإسلام جاء بالمحبة والألفة ودفع السيئة بالتي هي أحسن .

اصلاح ذات البين من افضل القربات

روى الترمذي عن أبي الدرداء قال : قال النبي ﷺ : ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ قالوا بلى يا رسول الله . قال إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين .

بين لنا الرسول الكريم ﷺ في هذا الحديث أن السعي في الإصلاح بين المتخاصمين وإزالة الشقاق من نفوسهم من أفضل القربات إلى الله تعالى وقد جعله أعلى درجة من الصلاة والصوم و الصدقة ومعنى ذات البين الصلة الإسلامية بين أهل الإسلام وفسادها يكون بالعداوة والبغضاء التي تنشأ بينهم وصلاحها يكون بإزالة العداوة من نفوسهم ومعنى أن الشحناء تحلق الدين أي أنها تزيل الدين من القلوب فالإصلاح بين متخاصمين واجب شرعاً على المسلمين لأن الصلح بين الناس تترتب عليه مصالح عمرانية ونتائج اجتماعية حسنة تعود على الجماعة والأفراد بالخير وبذلك تتضاءل الجنايات وتضمحل الجرائم وتقل الشرور ويستقيم النظام ويعيش المجتمع في هناء وغبطة وسلام فلو قمنا بواجب الإصلاح بين كل متعادين وتداركناهما أول الأمر ابتغاء مرضاة الله لما استحكم التنافر بينهما وقد وعد الله بالأجر العظيم والثواب الجزيل من يقوم بالصلح بين المتخاصمين فقال في كتابه العزيز «**لا خير في كثير من نجواهم الا من امر بصدقة او معروف او اصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه اجراً عظيماً** » .

وقد كثر التنازع والخصام بين المسلمين حتى صار الأخ حرباً على أخيه

والولد شراً على أبيه فكانت النتيجة أن قل التعاون والتناصر وحل محله الحقد والتدابر وإنك لو بحثت عن أسباب هذه القطيعة التي تفشت بين أهل الإسلام لوجدتها حقيرة وضئيلة وكان يكفي في حسم النزاع بينهم أن يتقدم جماعة من المصلحين فيزيلوا سوء التفاهم الذي تمكن منهم فتتحول النفوس المتباغضة إلى نفوس طيبة ذات عفو وغفران .

تأملوا أيها الإخوان كيف أن الإسلام رغبة منه في الإصلاح وإحلال الوفاق محل الشقاق أنه أباح الكذب في الإصلاح والكذب من الكبائر كما لا يخفاكم وجعله الرسول آية من آيات النفاق فقال: « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب الحديث لكن الله سبحانه وتعالى عفا عنه في مقام الصلح فقال النبيء ﷺ : « ليس بالكذاب من أصلح بين الناس فقال خيراً » ويقول الله : « **انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم** » ومعنى الآية: أنا ما أمرتكم بالصلح بين الناس إلا لمصلحة عظيمة وهو أن المؤمنين إخوة يرجعون إلى أب واحد هو آدم وأم واحدة هي حواء ونسب واحد هو الإسلام ورابطة واحدة هي الإيمان وكان ﷺ يحث المسلمين على أن يكونوا يداً واحدة فيقول : « **المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً** » **المسلمون كرجل واحد اذا اشتكى عينه اشتكى كله** وكثيراً ما كان يحث أصحابه على العفو حتى قال أنس كما رواه البهيقي بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ إذ رأيناه يضحك فقال عمر بن الخطاب ما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : رجلان من أمتي جثياً بين يدي رب العزة فقال أحدهما يا رب خذ لي مظلمتي من أخي فقال الله تعالى للآخر: أعط أخاك مظلمته فقال : يا رب لم يبق من حسناتي شيء فقال الله للطالب كيف تصنع ولم يبق من حسناته شيء ؟ قال يتحمل عني أوزاري فقال الله للطالب : آرفع رأسك إلى الجنان فرفع رأسه فقال : يا رب أرى مدائن من فضة وقصوراً من الذهب مكللة باللؤلؤ فلأي نبي هذا ؟ قال الله تعالى : هي لمن أعطاني الثمن ، قال يا رب ومن يملك الثمن ؟ قال أنت تملك الثمن قال وما هو ؟ قال :

عفـوك عن أخيك قـال يا رب إني قد عفوت عنـه فقـال الله للآخر خذ بيد أخيك وأدخله الجنـة .

تمسكوا أيهـا الإخـوان بدينكم وآقلعوا الأحقـاد من قلوبكم وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله و رسولـه إن كنتـم مؤمنين .

من أحق بحسن الصحبة

روى البخاري ومسلم بسندهما إلى أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : من أحق بحسن صحابتي ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أبوك .

بين لنا النبي ﷺ في هذا الحديث أن لكل من الأبوين حقاً في الإحسان إليه والاهتمام بأموره والعناية بشؤونه كما بين أن حق الأم فوق حق الأب بدرجات كثيرة ، فإنه ﷺ لم يذكر حق الأب إلا بعد أن أكد حق الأم ثلاث مرات مع أنهما شريكان في تربية الولد .

إن الوالد يجاهد طول الزمن ويقاوم المصاعب والمحن ويسعى في طلب الرزق لينفق على الولد ويسد حاجته أما الوالدة فإنها لاقت في سبيله مصاعب كثيرة لم يلاقها الوالد فحملته تسعة أشهر وهناً على وهن وضعفاً على ضعف وولدته كرهاً يكاد يأخذها الموت من هول ما تقاسيه من الآلام والشدة وأرضعته سنتين ساهرة على راحته تخاف عليه من الأمراض والعلل وتغسل قذارته وذلك أشهى لقلبها من كل شيء في الدنيا وعندما يمرض تراها تتضرع إلى الله أن يمن عليه بالشفاء ويعافيه من كل داء وكرب ولو خيرت في تلك الحال بين حياته وحياتها لاختارت حياته بأعلى صوتها لذلك وصى الله تعالى بالإحسان إلى الوالدين فقال في كتابه العزيز : **ووصينا الانسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً . »**

إن المؤمن مأمور من الله ومن نبيه ﷺ بالقيام بحقوق والديه معاً وبإكرامهما والمبالغة في الطاعة لهما فإن رضاهما من رضا الله والجنة تحت أقدام الأمهات وقد رفع سيدنا يوسف عليه السلام أبويه على العرش حين جاءا من البدو إلى مصر من بعد أن نزع الشيطان بينه وبين إخوته · فعل ذلك تكريماً لهما وتعظيماً وإن كانت الأم أحق بالاكرام من الأب لما بها من الضعف ولما قاسته في سبيله كما تقدم لنا في الحديث .

إن محبة الزوجة لزوجها قد تزول لأقل هفوة تحدث بينهما فتنكر فضله وتجحد خيره وبره وتنقلب عليه ناراً وسعيراً . ومحبة الصديق قد تزول كذلك لمجرد وشاية يلقيها عدو لأحدهما أو نميمة يوجدها مفسد بينهما فينقلب الصديق عدواً لدوداً ويصير على صاحبه حرباً عواناً ، وكذلك محبة الولد لوالده، قد تزول إذا كان الوالد قاسياً أو مستبداً أو كان الوالد بخيلاً شحيحاً قد تزول كل هذه المحبات وتؤول إلى عداوة .

أما محبة الوالدين لولدهما فإنها محبة دائمة باقية مستمرة إلى الأبد وطول الزمن مهما تنكر الولد وعقهما ومهما قسا عليهما وجحد حقوقهما إن أعظم شيء عند الله بعد توحيده وطاعته هو طاعة الوالدين والاحسان إليهما قال الله تعالى : «**وقضى ربك ألا تعبدوا الا إياه وبالوالدين إحساناً**» ومن أكبر الكبائر بعد الشرك بالله عقوق الوالدين وإهانتهما قال النبى ﷺ ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا بلى يا رسول الله قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين » . نقول ذلك وفي النفس آلام شديدة مرة والقلوب دامية حارة مما نشاهده ونراه كل يوم من الشكايات المتعددة من الآباء والأمهات من أبناء هذا الزمان الذين يسيئون إليهما كل الإساءة لأنهما أنكرا عليه جرمه وراء امرأة فاجرة أو نحو ذلك .

ألا فليعلموا أنه ليس لهم في الدين من حظ وليس لهم عند الله من أجر وسيقتص منهم أبناؤهم في الحياة وقبل الممات فقد قال رسول الله ﷺ بروا آباءكم تبركم أبناؤكم ، فمن لم يرع حقوق أبيه لم يرع ابنه حقوقه فإن ذلك دين لهم محفوظ عندهم والجزاء من جنس العمل .

حدثنا التاريخ أن رجلا كبر عنده أبوه فكره أن يأكل معه على مائدة واحدة وعزله في الأكل وصار يأكل هو وأولاده الصغار جميعاً والأب في معزل عنهم يأكل في إناء خاص به أعده ولده له واتفق أن كسر ذلك الإناء فوبخه ولده توبيخاً شديداً وعنفه على ذلك ثم عمل له إناء من الخشب لئلا يتكسر ثانية ، ففي أول مرة كان يأكل منه ذلك الشيخ الكبير وهو منعزل عن ابنه وأولاد ابنه فقال أحد أولاد ابنه لأبيه : اسمع يا والدي سنحفظ لك هذا الإناء حتى تكبر وتكون مثل جدنا في السن والضعف فنعزلك وحدك في ناحية وتأكل منفرداً عنا كما يأكل جدي الآن فنزلت هذه الكلمات على قلب والده كأنها صاعقة وقام من فوره وسأل والده الكبير الصفح عما وقع منه من هفوات والعفو عما حصل له من زلات وصار بعد ذلك لا يجلس على المائدة إلا إذا جلس والده الأكبر .

تجنب صحبة الاشرار والحث على اختيار الاصحاب

قال الله تعالى فى كتابه العزيز : « **ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا** » .

لا يخفى علينا جميعاً أن للصديق تأثيراً على صديقه مهما اختلفت أحواله وعاداته فإننا نرى الرجل الشرير يجالس الأخيار ويعاشر الأتقياء فسرعان ما تتغير طباعه وتتهذب أخلاقه ويستقيم حاله ويصلح مآله ديناً ودنيا ، فيصبح وديعاً متواضعاً رزيناً عفيف اللسان عالي الهمة بعد أن كان فظاً غليظاً طائشاً سيء السيرة .

وكذلك نرى الرجل مستقيماً صالحاً حتى إذا ما عاشر الفجار أو خالط الأشرار تبدل حياؤه مجوناً وتحولت استقامته عصياناً وفسوقاً والسر في ذلك التأثير وهذا الانقلاب هو أن الإنسان مجبول على التقليد مفطور على التشبه بصديقه «**فكل قرين بالمقارن يقتدي**» فالطباع تسرق من الطباع إن حسنة فحسنة وإن سيئة فسيئة ولهذه الاعتبارات نهى الله سبحانه وتعالى عن الجلوس مع القوم الظالمين لأن مجالستهم ومخالطتهم تجلب للإنسان الضرر في الدنيا والشقاء في الآخرة وأعظم دليل على ذلك الآية التي صدرنا بها هذا الدرس فهي تذكر الإنسان في يوم القيامة بصديق السوء فيعض على يديه حسرة وندامة وينادي بصوت ملؤه الحزن مبيناً ندامة من لم يحتط لنفسه في

آختيار من يخالط « **ياويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً لقد أضلني عن الذكر بعد اذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا** » . تباً له حبب إلي الهوى وارتكاب المعصية وأوقعني في الأعمال التي تأباها النفس العالية أعساني عن طريق الحق والرشاد وسهل لي طريق الباطل والفساد حتى أوقعني في هذا البلاء والشقاء وأشد حسرة من هذا وذاك أن يتبرأ الشيطان ممن اتبعوه فيقول لهم بعد أن قضي الامر « **ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم** (بمنقذكم) **وما أنتم بمصرخي**». لهذا أمر الله نبيه أن يجالس أهل التواضع والإخلاص لله في كل شأن بقوله « **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً** » .

فواجب المسلم العاقل أن يتخير الرجال وينتقي الجلساء فيصاحب الأخيار ويجالس أهل العلم ويعاشر أهل الفضيلة والاستقامة فصحبة هؤلاء ربح ونفع تنير له طريق السعادة وتذكره بالله تعالى وتعينه على إقامة دينه أما صحبة الأشرار فإنها مهلكة للأخلاق وسبب فى حلول النقم والبلاء ، قال تعالى : « **ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار** » وقال : « **ومن يَعْشُ** (يغفل) **عن ذكر الرحمٰن نقيض له شيطاناً فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون** » ، وقال الشاعر

واحذر مؤاخــــاة الدني لأنــه ... يعدي كمـا يعدي الصحيح الأجرب
واختر صديقك واصطفيه تفاخــراً ... إن القرين إلى المقارن ينســـب

ولقد أرشدنا رسول الله ﷺ إلى اختلاف طبائع الناس وتباين أخلاقهم فقال : « **الناس معادن كمعادن الذهب والفضة** » فمنهم من يكون كالذهب في صفاء جوهره وعدم قبوله الصدأ ومنهم من هو كالفضة جيدة الجوهر ولكنها تقبل الصدأ ومنهم من يكون كالقصدير رديء الجوهر سريع الصدأ كما أخبرنا بحديث شبه فيه بالمحسوس حالة الجليس الصالح

وجليس السوء فقال : إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبة ،ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة رواه البخاري عن أبي موسى .

ففي هذا الحديث شبه الرسول عليه السلام حالة الجليس الصالح في نفعه بجليسه في جميع أحواله بحالة حامل المسك مع الإنسان لا يخلو من الانتفاع منه بالجود والعطاء من المسك وهو معنى يحذيك تبرعاً . وإما شراء منه ، واما الانتفاع بشم الرائحة العطرية تفوح من المسك كما شبه حالة الجليس السوء في عموم ضرره وإيذائه لجليسه بحالة الحداد ونافخ الكير وهو لا يسلم جليسه من آمتداد الشر والسوء إليه ، إما في بدنه وإما في ثوبه وإما في نفسه فإن لم يصب جليسه من ناره وما يتطاير من شررها أصابه من دخانه فيؤذي الأنوف برائحته التي تخنق الحلق وتعكر صفو المزاج .

فعاشروا أيها الإخوان الرجال الأخيار وأهل الاستقامة فصحبتهم ربح ونفع وآجتنبوا معاشرة الفجار فإنها مجلبة للشقاء والعار وآغتنموا الفرصة قبل أن يصل العمر إلى منتهاه وتزودوا بالأعمال الصالحة فلا ينفع الإنسان إلا ما قدمت يداه ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى وٱتقون يا أولي الألباب .

الرحمة وبمن تكون

روى البخاري ومسلم والترمذي بسندهم إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من لا يرحم لا يرحم .

الرحمة رقة في القلب تقتضي معاملة الناس بالحسنى وهي خلق شريف وعاطفة محمودة . من آتصف بها كان محبوباً من الله ورحمه الناس كما يرحمهم وكانوا له على الدهر معواناً كما كان لهم ومن تجرد منها وقسا على الناس قسوا عليه وكان شقياً مبعداً عن رحمة الله فإذا ألمت به كارثة أو نائبة فروا منه وأغضوا عنه فيتجرع وحده صابها ويتذوق عذابها قال النبي ﷺ « **لا تنزع الرحمة الا من شقي** » .

والرحمة تحمل صاحبها على إغاثة الملهوفين ومساعدة المكروبين والقيام بحاجة المحتاجين وبذلك يكون عاملاً بقول النبي ﷺ « **من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه** » وقوله على كل مسلم صدقة قيل أرأيت إن لم يجد يا رسول الله؟ قال يعمل فينفع نفسه ويتصدق قيل : أرأيت إن لم يستطع؟ قال يعين ذا الحاجة الملهوف . والرحمة تحمل صاحبها أيضاً على مؤاساة جاره فلا تهنأ نفسه بأنواع الطعام ولذيذ الشراب وفاخر الثياب وحوله صبية عضهم الدهر بنابه فلم يذوقوا لنعيم الدنيا طعماً ولم يعرفوا له وصفاً ثم تدعوه الشفقة والرحمة إلى مد يد المعونة إليهم ولايستطيع الإغضاء عنهم عملاً بقول النبي ﷺ « **ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع** » وقوله « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره** » .

والرحمة تدعو أهلها إلى مساعدة الأرملة والمسكين.وكفالة اليتيم عملاً بقول النبي ﷺ : « الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله » الأرملة هي التي مات زوجها وقوله « انا وكافل اليتيم في الجنة هكذا » وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى يعني أن الذي يقوم بتربية اليتيم ويتولى شؤونه سواء أكان قريباً لليتيم أوبعيداً عنه يجازيه الله منزلة في الجنة ويكفي فيها ان يكون جاراً للمصطفى ﷺ وقريباً منه وكما تحسن الرحمة بعامة الناس فهي بالوالدين والأبناء والأقارب والخدم والحيوان والطائر أحق وأولى . فالرحمة بالوالدين تكون بطاعتهما والإحسان إليهما والصنع الجميل معهما والقول الكريم ، قال تعالى : « **وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً** » والرحمة بالأبناء تكون بالتربية والتأديب والإبعاد عن الشر وإجابة رغائبهم مادامت في سبيل المصلحة وتقبيلهم ومعانقتهم كما صنع الرسول ﷺ مع الحسين بن علي رضي الله عنهما كما رواه البخاري في باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته . وكما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : « جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال إنكم تقبلون الصبيان ومانقبلهم ، فقال رسول الله : أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك » يعني أن النبي ﷺ وبخه على ذلك وعرض له بأن هذه قسوة مذمومة فهو يقول له : وماذا أصنع لمثلك الذي نزع الله الرحمة والعطف والشفقة من قلبه ؟ والرحمة بالأقارب تكون بزيارتهم ومودتهم والسعي في مصالحهم ودفع المضرة عنهم والبر بهم والصدقة عليهم وتكون بين الزوجين بالإخلاص المتبادل وعدم التكليف بما لا يستطيع والمساعدة في الشؤون المنزلية وتربية الأولاد والرحمة بالحيوان والطائر تكون بالإحسان إليهما وعدم الإضرار بهما لأنهما يحسان كما يحس الإنسان ويتألمان كما يتألم ويبكيان بغير دموع فقد جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً أضجع شاة وهو يحد شفرته يعني سكينه فقال له النبي ﷺ : أتريد أن تميتها موتتين ؟ هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « بينما رجل يمشي اشتد عليه

العطش فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال : لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي ، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسك بفيه ثم رقي فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له .

والرحمة بالخدم والمرؤوسين تكون بالعطف عليهم وعدم إرهاقهم وتكليفهم بما لا يستطيعونه من العمل وعدم إيذائهم إلا بسبب مقبول شرعاً . روى مسلم عن أبي مسعود رضي الله عنه قال : كنت أضرب غلاماً لي بالسوط فسمعت صوتاً من خلفي : اعلم أبا مسعود فلم أفهم الصوت من الغضب فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ فإذا هو يقول : « اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام فقلت هو حر لوجه الله تعالى ، فقال : لو لم تفعل ذلك لمستك النار » .

أرأيتم أيها الإخوان أن أبا مسعود قد اضطربت أحواله وخاف من عاقبة فعلته وأخذ يفكر في وسيلة يكفر بها عن ذنبه ويرضي بها ربه فلم يجد إلا أن يعتق غلامه ابتغاء وجه الله فأعتقه . ولقد أرسل رسول الله ﷺ خادمة له في حاجة فغابت وانتظرها كثيراً فلما حضرت قال لها : لولا القصاص لأوجعتك يعني لولا أني أخاف أن يقتص الله مني يوم القيامة ويحاسبني على ضربك لأنزلت بك عقاباً صارماً تتوجعين منه وتتألمين من شدته .

وخلاصة القول أن الرحمة ميدان واسع لمن يتنافس فيه وأبوابها واسعة كثيرة فالمعلم يرحم تلاميذه بالبشاشة في الدرس والطبيب يرحم المريض بعنايته له في علاجه حتى يتم الشفاء والحاكم يرحم بعدله المتقاضين ولكن بشرط ألا تكون هذه الرحمة سبباً في تعطيل حدود الله وضياع حقوق العباد فإن الحاكم يجب عليه أن يقتص من القاتل مثلاً فإذا دعته الرحمة به والشفقة عليه إلى الإعفاء عنه كان مذموماً كل الذم وجاهلاً بمعنى الرحمة لأنه إذا رحم فرداً بترك عقوبته كان ممن يضيعون حقوق العباد ويظلمونهم وهو بذلك يسبب انتشار الإجرام بينهم بكثرة المجرمين الذين لا يخافون عقوبة ولا يخشون قصاصاً فتسود الفوضى ويختل النظام وتتعرض الأمة للفناء العام . قال الله تعالى : « **ولكم في القصاص حياة** »

وقال : « **ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** » وكذلك الشاهد الذي تدعوه رحمته ليشهد بغير الحق رأفة بشخص جنى جناية أو وقع في جريمة ولو اعترف بالواقع وما حصل أمامه ثبت الحكم عليه وترتب على ذلك رفضه من وظيفته أو إخراجه من محل عمله الذي يتمعش منه هو وأولاده ولا يجد قوتاً يعولهم أو يمونهم أو يترتب على ذلك انتزاع أملاكه التي يقتات منها .

إن هذا وأمثاله من الذين يطمسون معالم الحقيقة لجديرون بالذم والاحتقار لأن الله تعالى أمر بالشهادة على وجهها ولو فتح باب الكذب والزور لهدم النظام وضاعت الحقوق وكثرت الجرائم واضطرب أمر الناس ، قال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم او الوالدين والاقربين ان يكن غنياً او فقيراً فالله اولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلوُوا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً** » .

الشكر وهل يكفي باللسان ؟

قال الله تعالى في كتابه العزيز : « **يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله ان كنتم إياه تعبدون**» .

طلب الله منا في هذه الآية الكريمة أن نأكل من جميع الطيبات التي أحلها لنا في هذه الدنيا ولم يحرم علينا إلا ما يجلب لنا الضرر في أبداننا وفي مقابلة هذه النعم التي أسداها إلينا أمرنا أن نشكره عليها وليس شكرنا له ثمناً لهذه النعم فنعمه سبحانه أجل أن تقابل بثمن وإنما القصد من الشكر المزيد من فضل الله « **لئن شكرتم لازيدنكم** » لهذا كان من الواجب على كل إنسان أن يشكر الله على تواتر نعمه حتى يضاعف له من رزقه وبذلك، يكون قد برهن بشكره عن فهمه للنعمة وتقديره للمنعم وليس في شكرنا لله منفعة واصلة إليه ولا في كفر نعمته ضرر عائد عايه وإنما أمر عباده بالشكر ليعلموا أن العبد ليس بيده أمر ولا نهي وأن الناس لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً وأن الله وحده هو الرزاق ذو القوة المتين يعطي ويمنع ويغني ويفقر ولقد أثنى الله على الشاكرين ونوه بذكرهم ووعدهم أحسن الجزاء فقال يحدثنا عن خليله إبراهيم عليه السلام :« إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين شاكراً لأنعمه آجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ، » وقال عن نوح : « إنه كان عبداً شكوراً » ودخل عطاء رضي الله عنه على عائشة رضي الله عنها فقال لها أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكت وقالت أي شأنه لم يكن عجباً ؟ أتاني مرة فدخل معي في فراشي حتى مس جلده جلدي ثم قال : يا آبنة أبي بكر دريني أتعبد لربي فقلت إني أحب

قربك ولكني أوثر هواك فأذنت له فقام إلى قربة ماء فتوضأ ثم قام يصلي فبكى حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكى ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى فلم يزل يبكي حتى جاء بلال فأذنه بالصلاة فقلت يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال**افلا اكون عبداً شكوراً .**

أرأيتم أيها الإخوان كيف كان النبي ﷺ يشكر ربه بقلبه وعمله وهذا هو الشكر الحقيقي فليس الشكر ان يقول الانسان بلسانه اشكر الله وكفى فإن ذلك الشكر لا يفيده شيئاً وإنما شكر النعمة صرفها فيما خلقت له فالعين نعمة وشكرها أن لا تنظر بها إلى المحرمات .

ولكن آنظر بها إلى ملكوت السماوات والأذن نعمة وشكرها أن تسمع بها كلام الله واللسان نعمة وشكره أن ترشد به خلق الله وتصلح به بين إخوانك المسلمين وهو أصعب اعضائك عليك ولا يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد السنتهم وأما البطن فهي أساس كل شر فعليك بحفظه من تناول الحرام وأما اليد فآحذر أن تتناول بها ما حرم الله أو تكتب ما لا يجوز النطق به وهكذا يجب عليكم أن تستعملوا جميع أعضائكم فيما شرعت لأجله لتظهر فائدتها وتتم حكمتها ويجني العباد منافعها لأن هذه الأعضاء ستشهد على صاحبها يوم القيامة « **يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون** » وقد ورد أن الإنسان يتألم عندما تشهد عليه أعضاؤه يوم القيامة فيقول لها لم شهدتم علي ؟ ألم تعلموا أن عذابي هو عذاب لكم وشقائي هو شقاء لكم فتقول الأعضاء في الجواب ما حكاه الله عنهم « **وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين** .

أسأل الله أن يوفقنا لشكره وذكره في الحال والمآل ويلطف بنا في بعثنا ونشورنا بجاه محمد والآل.

الانسان يتقلب في نعم ربه فماله لا يشكره

أريد أن أتحدث إليكم أيها الإخوان في هذا الدرس على نعم الله علينا كي نقوم بشكره وبذلك نكون قد برهنا بشكرنا على فهمنا للنعم وليس من غرضي عدّ ولا إحصاء ولا حصر ولا آستقصاء فإن ذلك بحر لا ساحل له وإنما قصدي الذكرى والذكرى تنفع المؤمنين فآنظروا رعاكم الله كيف خلق الله الإنسان وسوى خلقه وركبه فعدل تركيبه وصوره فأبدع تصويره ثم صاغه في أحسن تقويم «**ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين** » .

فتحوا عيونكم وآنظروا إلى ما فوق رؤوسكم من شمس وأقمار ونجوم وسحاب وهواء وإلى ما هو أمامكم وخلفكم وعن يمينكم وعن شمالكم من جبال شاهقة وبحار زاخرة وأنهار جارية ودواب نافعة وليل ونهار ونبات وأمطار ورياح ذاريات وجنات زاهرات قد خلقه الله فأحسن خلقه ودبره فأحسن تدبيره ثم سخره لمنفعة الإنسان فاقرؤوا قول الله جل شأنه « **الله الذي خلق السموات والارض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الانهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ».

فإنكم إذا تلوتم هذه الآيات وتأملتم فيها بثاقب فكركم تيقنتم أن الله سبحانه وتعالى قد خلق هذه العوالم العلوية والسفلية ثم سخرها لمنفعة الإنسان وإن أردتم إيضاحاً أكثر وبياناً أظهر فوجهوا أنظاركم إلى جهة السماء وآنظروا

إلى هذا النجم اللامع والكوكب الساطع يهتدي الساري به ليلاً فلا يضل في طريقه براً ولا بحراً « وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الايات لقوم يعلمون » وهذا السحاب المنتشر يمطرنا مياهاً عذبة تجري في الوديان أنهاراً « **افرايتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن ام نحن المنزلون لو نشاء جعلناه اجاجاً فلو لا تشكرون** » .

وهذه الشمس المشرقة التي عليها مدار صحة الإنسان وبها قوام حياته وهل يستطيع الإنسان أن يسكن بيتاً لم تطهره أشعتها أو يلبس ثوباً مبتلاً لم تجففه حرارتها ؟ وهل ينمو ضرعه أو يثمر زرعه إلا بها .

وهذا الهواء يدفع بعضه بعضاً فيجري ريحاً تسير السحب « **الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله** » .

تأملوا في هذا النظام البديع المحكم من ليل جعله الله لسكون الإنسان وراحته ونهار مبصر لسعيه وآستكمال هنائه وصيف وخريف وشتاء وربيع لتنظيم شؤون حياته فماذا يكون حال الإنسان لو دام ليله أو نهاره أو صيفه أو خريفه أو شتاؤه أو ربيعه « **قل ارايتم ان جعل الله عليكم الليل سرمداً الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء افلا تسمعون قل ارايتم ان جعل الله عليكم النهار سرمداً الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه افلا تبصرون ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** » .

فسبحانك يا ربنا ما أوسع كرمك وما أعظم نعمك على بني الإنسان : « **هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق** » . صدق الله وصدقت كلماته .

سيروا معي قليلا على هذه الكرة الأرضية وتأملوا في برها وبحرها وفي سهولها ووديانها في جناتها وأزهارها « جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه » آنظروا إلى

تلك البحار الواسعة تغذينا بأسماكها وتحلينابلؤلؤها ومرجانها ونسير بالسفن على ظهرها « وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون منه حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » وليس شكرنا لله ثمناً لهذه النعم فنعمه سبحانه أجل أن تقابل بثمن وإنما القصد من الشكر المزيد من فضل الله **« لئن شكرتم لازيدنكم »** .

وتلك الدواب النافعة من الإبل والبقر والغنم خدمتنا في النقل وحرث الأرض وريها وشربنا ألبانها وأكلنا لحومها وآتخذنا من جلودها واصوافها وأوبارها اللباس والأثاث والأغطية والحقائب والأحذية « **والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ان ربكم لرؤوف رحيم والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون** » فها أنتم ترون أيها الإخوان في خلال هذه الآيات الكريمة ان المنفعة كلها عائدة على الإنسان ويحسن بنا أن نشير في ختام هذه الآية في قوله « **ويخلق ما لا تعلمون** » ان ما يذكره القرآن الكريم عن سلطان العلم فيه إشارة على أنه سيأتي زمان تظهر فيه اختراعات حديثة واكتشافات مدهشة لم تخطر يوماً على بال إنسان فقد رأينا كيف أطلق العلماء الاميركيون هذه الايام مركبة اخترقت فضاء الأرض وخرجت عن جاذبيته حتى حطت على سطح القمر .

وكم نحن متأسفون إذ رأينا غيرنا اليوم يركب متن الهواء ويسخر الرياح كما يشاء ويكلم القريب والبعيد من السماء ويفكر وينظر ويخترع أحسن الأشياء ثم يلتفت إلى إخوانه المسلمين فلا يجد من بينهم أعلم العلماء وأعظم المخترعين وقد كان المتوقع منهم أن يكونوا قادة الفكر وأساتذة العلم في كل زمان ومكان وقد كانوا في السابق أساتذة العالم في الكيمياء والاكتشافات العلمية والاختراعات والهندسة والبناء والفلسفة فكان منهم **جابر بن حيان والبطليوسي وابن بطوطة والفرابي وابن سينـــا وابن رشد** وعشرات ومئات غيرهم في كل علم وفي كل فن

ولم يتخلف المسلمون في هذا الميدان إلا حين تفرقوا وشاؤوا أن يكونوا مسلمين على طريقة أخرى لم يكن عليها آباؤهم الأولون ولا أسلافهم الماضون وهذه كبرى المصائب فإنا لله وانا اليه راجعون فضعف شأنهم وتمزقت دولنهم والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وها هي أوروبا عرفت حياة الجد والعمل حياة الإقدام والمنافسة حياة العلا والرفعة فلا يكاد يمر عليها يوم حتى تزيد رقياً فوق رقيها وعظمة فوق عظمتها حتى ضاق البر والبحر بأعمالهم ومخترعاتهم فلم تزل عقولهم تنهضهم وأفكارهم ترشدهم حتى ركبوا متن الهواء غير هيابين ولا وجلين وما ذلك إلا بروح المنافسة والإقدام التي لا تأنس بالراحة ولا تركن إلى الدعة .

فهبوا أيها المسلمون إلى ميدان المنافسة والعمل عسى ان تستردوا ما كان لأجدادكم العظام من المجد والرفعة فلستم بأقل من الغربيين استعداداً للسؤدد والمجد وأنتم الوارثون لأعظم مدينة في الأرض استضاء بنورها من أدركوا معنى الحياة الصحيحة حياة الجد والعمل والمنافسة والرفعة حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه من مدنية زاهرة وحضارة باهرة أسأل الله الرؤوف الرحيم ان يحول حالنا الى أحسن حال وان يوفقنا لشكر نعمائه في الحال والمآل ويكفينا دواعي الهواء ويصرف عنا سبل الردى والسلام على من اتبع الهدى .

بواعث الشكر على انعم الله

عن عبد الله بن محصن الأنصاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من أصبح آمناً في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافرها » رواه الإمام الترمذي وقال حديث حسن .

لقد جمع هذا الحديث أصول النعم ، وأركان السعادة المنشودة لكل إنسان في أمور ثلاثة وفي كلمات معدودة لأنه ﷺ أوتي جوامع الكلم وفصاحة البيان وزلاقة اللسان .

النعمة الأولى : نعمة الأمن والأمان لأن كل إنسان يرغب أن يعيش في هذه الدنيا ناعم البال هادىء النفس قرير العين لذلك من الله بهذه النعمة الجليلة بقوله تعالى « **فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .** » والمراد بالبيت الكعبة المكرمة أي فليعبدوا رب هذا البيت الذي حماهم من اللصوص وأمن طريقهم وتصديقاً لقول الله تعالى أحدثكم عن الأمن الموجود في بلاد الحجاز . فلقد من الله علينا في شهر ذي الحجة عام 1383 الموافق لأفريل 1964 بالحج إلى بيت الله الحرام وقد مكثنا بمكة نحو شهر وهي بلدة آهلة بالسكان والوافدين إليها من كل فج عميق فرأينا أصحاب المتاجر يتركون محلاتهم مفتوحة عند نداء المؤذن للصلاة يترك الصراف نقوده بلا حارس على منضدة من الخشب وكل الذي يعمله أن يغطي هذه النقود بمنديل يضع عليه حجراً خشية أن يلفحه الهواء والذي أدهشنا كثيراً هو الطريق من جدة إلى المدينة فهو طريق طويل ويبلغ طوله على وجه التقريب 417 من الكليومترات ومع طول هذا الطريق يقطعه

الحجاج آمنين مطمئنين تحرسهم عناية الله وما رأينا رجال الشرطة إلا في محطتين « رابغ » وهي في منتصف الطريق « والمساجيد » وهي قرية من المدينة إذا ليس الأمن متوقفاً على كثرة الجنود ولا القوانين الوضعية لأنهما لا تردع كل النفوس الشريرة . كذلك السجون لا ترهب السارق ولا القاتل لأن كثيراً ما نرى المسجون يخرج من السجن فلا يلبث أن يرتكب جريمة أخرى أفظع من الأولى . إنما الذي يردع النفوس ويوقف شهواتها هو قانون واحد شرعه الله الذي خلق الخلق وعلم طباعهم وما يصلحها وما يفسدها وصدق الله العظيم الذي يقول « **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما** » ويقول أيضا « **ولكم في القصاص حياة** » .

فبفضل تنفيذ هذا القانون السماوي آرتدعت النفوس الشريرة وآستقر الأمن في تلك الربوع الطاهرة وقد كنا نسمع في السنين الفارطة أن قطاع الطريق كانوا يقتلون الحجاج ويسلبون أموالهم ومتاعهم حتى كان الرجل الذي يريد الحج لا يمنعه من تأديته إلا الخوف على حياته وكان المسافر للحج يودع أهله وهم يودعونه وداعاً كأنه الوداع الأخير .

لبث الحال على ذلك المنوال أعواماً كثيرة وقد تولى أمر الجزيرة من حكام المسلمين على آختلاف جنسياتهم ولم يستطع واحد منهم قطع دابر هؤلاء اللصوص إلى أن قيض الله لهذه الجزيرة المباركة عبدالعزيز ابن سعود فرجع إلى القرآن الكريم دستور الأمة وجعله إماماً وإلى السنة فآتخذها سنداً فحكم بقطع يد السارق ولكن فريقاً من الذين خدعتهم المدنية الكاذبة فصرفتهم عن العلم الصحيح عابوا عليه ورموه تارة بالوحشية وطوراً بالجمود ولكن كل ذلك لم يثنه عن عزمه بل سار في طريقه حتى ساد الأمن ربوع هذه البلاد الطاهرة وأصبح مضرب الأمثال بحيث أنك لا تجد نظيره في أي بلد من بلاد العالم حتى المتمدن منها .

حقاً إن المدنية والرحمة والشفقة في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ وإن المسلمين ما تأخروا إلا بقدر آنصرافهم عن دينهم وعدم أخذهم بأحكام

ربهم فالإسلام هو دين المدنية الصحيحة ، دين السعادة الحقة دين النظام والحرية .

النعمة الثانية : نعمة العافية وهي من أجل النعم شأناً وأعظمها قدراً وأكبرها فائدة ولهذا قيل في الحكمة : الصحة تاج على الرؤوس لا يدركها إلا المريض وفي الحديث الشريف : عن النبي ﷺ « **ما من دعوة يدعو بها العبد افضل من اللهم اني اسالك العفو والعافية** » ، وقال تعالى حكاية عن لسان ابنة شعيب عليه السلام « ان خير من استأجرت القوي الامين » تريد موسى عليه السلام قيل لحكيم ما السرور ؟ : قال عقل يقيمك ، وعلم يزينك ، وولد يسرك ، ومال يسعدك ، وأمن يريحك ، وعافية تجمع لك المسرات ، والإسلام لا يكلف الا أصحاب العقول السليمة لأن العقل هو عماد التكليف لذلك كان من الواجب على الإنسان أن يحافظ على صحته من كل ما يضر بها والعقل السليم في الجسم السليم .

النعمة الثالثة : نعمة القوت فإذا ما وجد الإنسان قوته وقنع به ورضي بما عند الله تعالى فقد تمت له أسباب النعمة والسعادة .

إذا ما كنت ذا قلب قنوع   فأنت ومالك الدنيا سواء

وليست السعادة بكثرة المال والثراء لأن المال قد يكون سبباً في هلاك صاحبه « **كلا ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى** » والمال الصالح الذي يسعد به الإنسان هو الذي يعرف لله فيه حقاً ، وللبائس والفقير فيه حقاً وللرحم فيه حقاً فيعطي كل ذي حق حقه .

إذا ملكت كفي منالا ولم أنل   فلا انبسطت كفي ولا نهضت رجلي
على الله إخلاف الذي قد بذلته   فلا متلفي بذلي ولامسعدي بخلي
أروني بخيلا طال عمرا ببخله   وهاتوا كريماً مات من كثرة البذل

هذه هي النعم الثلاث التي تكون مسرة للإنسان وهناءته وخيره وسعادته وهي التى تجمع الدنيا بمباهجها وزينتها وتيسر له الوصول للآخرة ونعيمها القيم وما عند الله خير وأبقى .

أسأل الله أن يمتعنا بالصحة والعافية في الدين والأبدان ويحفظنا بنعمة الأمن والأمان .

الاداب الاسلامية في النوادي والطرقات

جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والجلوس في الطرقات فقالوا يا رسول الله مالنا من مجالسنا بد نتحدث فيها فقال رسول الله ﷺ أما إذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه قالوا وما حق الطريق يا رسول الله، قال: غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» رواه البخاري ومسلم.

نهى النبي ﷺ عن الجلوس في الطرقات لأن الطريق لم يجعل للجلوس وإنما جعل ليكون ممراً يسلكه الغادون والرائحون إلى مصالحهم فاتخاذه لغير الغرض الأصلي منه كما هو مشاهد في طريق القرى والأمصار حيث تنشأ المقاهي على قوارع الطريق فإنه يترتب على ذلك تضييع الوقت والانصراف عن الأعمال المفيدة فلا يجوز للناس أن يتركوا أعمالهم كسلا فإذا كان ولا بد من الجلوس للتحدث في الأمور النافعة فإنه جائز بشرط أن يحافظوا على هذه الآداب التي بينها لنا صاحب الشرع في هذا الحديث وهي خمسة:

<u>الأول</u>: غض البصر فلا يحل لمن يجلس في طريق أن ينظر إلى من تمر فيه من النساء بل ينبغي لكل واحد أن يشتغل بما فيه مصلحته وإذا كان النظر مذموماً في نظر الدين فكيف حال من يتبع النظرة بكلمات الفحش أو مد اليد إلى جسم امرأة كما يفعله بعض من لا أخلاق لهم مع المارات من النساء والفتيات لا ريب أن ذلك اعتداء على الآداب وهتك للأعراض.

الأمر الثاني : كف الأذى كأن يسب غيره أو يشتمه أو يشير إليه إشارة سخرية فالله قد نهى عن ذلك في قوله : « **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالالقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون** » ومن وجد أذى في الطريق قد يضر المارة من حجر أو شوك أو غير ذلك فإن عليه أن يزيله فقد أمر رسول الله ﷺ بإماطة الأذى عن الطريق وعده من شعب الإيمان ومن رأى أعمى يتخبط في طريقه أو ضعيفاً يحتاج لمعونة فإن عليه أن يبذل لهما المعونة عن طيب خاطر ومن وجد ضالا في طريقه فعليه أن يرشده في سماحة وكرم وإذا وقعت هفوة من أحد المارة فعليه أن يتسامح معه ويعفو عنه فإن الصبر على الأذى من مكارم الأخلاق ، قال تعالى : « **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين** » .

الأمر الثالث : رد السلام وينبغي أن يكون بأحسن ما يقول فإذا قال لك المسلم : السلام عليكم فقل له السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وإذا قال لك تصبح على خير قل له ليلتك سعيدة مباركة لأن كلمة التحية تزرع المحبة في القلوب وقد قال الله تعالى : « **واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها** » . **وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا او لا ادلكم على شيء اذا فعلتموه تحاببتم افشوا السلام بينكم** » .

الرابع والخامس : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فمن رأى في طريقه شاباً يتعرض لفتاة فليأمره بالكف عن ذلك ومن رأى بائعاً ينقص الكيل والميزان فلينهه عن ذلك ومن رأى رجلا يحمل حيواناً ما لا يطيق فليأمره بالرفق بالحيوان ويذكره بأنه ورد في الحديث أن امرأة دخلت النار بسبب هرة ربطتها حتى ماتت جوعاً .

هذه أيها الإخوان آداب الإسلام في الطرقات . وأما آداب الإسلام في النوادي

والمجتمعات فمنها أن يحترم الناس بعضهم بعضاً وأن يكون حديثهم نزيهاً سليماً من الخوض في أعراض الناس إلى غير ذلك من مكارم الأخلاق .

وفقنا الله إلى العمل بهذه الآداب في النوادي والطرقات وأصلح بالنا حتى نكون مثالا عالياً في الكمالات .

ماهو الحلم

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : « **ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم** ».

بين الله في هذه الآية الكريمة أن الحسنة والسيئة لا يستويان ثواباً عند الله ثم أمرنا بدفع سيئات المسيئين بطريق الحسنى فنحلم على الجاهل ونعفو عن المسيء وندعو بالهداية للضال ونقابل الإساءة بالإحسان ونحن إذا فعلنا ذلك صار العدو لنا صديقاً والمبغض محباً والمتكبر متواضعاً والجاهل حليماً ثم إن الله ذكرنا أنه ليس سهلاً على الإنسان أن يقابل السيئة بالحسنة فإن هذه صفة عالية لا تأتي إلا لمن رزقهم الله الصبر على المكاره والاطمئنان إلى كل ما يريد الله وهؤلاء كتب الله لهم الجنة .

والحلم معناه ضبط النفس عند هيجان الغضب وهو خصلة من الخصال الحميدة التي تسمو بصاحبها إلى أعلى ذروة المجد والشرف ومن اتصف بها نجح في جميع أعماله ونال الثناء من الناس في حياته فالتاجر مثلا إذا كان حليماً يعامل الناس بالحسنى راجت تجارته وكثر ربحه وإذا كان أحمق سيء الخلق كسدت تجارته وهربت عنه الناس ومثله الصانع فإنه يحتاج في رواج صناعته إلى التخلق بالحلم وكذلك الزوج مع زوجته إذا اتصف كل منهما بالحلم توثقت عرى المحبة بينهما وعاشا عيشة هنيئة لأن في الحلم راحة الجسد من آلام الانفعال وراحة القلب من الغل والغضب فطالما كان الغضب سبباً في أمراض جسدية وعلل نفسية يصعب علاجها وإذا كان الصديق

لا يعرف إلا في أوقات الشدة والشجاع لا يظهر إلا في الحرب فالحليم لا يعرف إلا في الغضب وقد قال رسول الله ﷺ : « ما تعدون الصرعة فيكم قالوا الذي لا تصرعه الرجال قال لا ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب » .

وبكل الأسف نرى أن الغضب قد كثر بين الناس ونشأ عن ذلك البغض والحسد والكره والطعن والشتم وغير ذلك وهذا كله قلة الصبر وعدم التسامح ولو أن كل عاقل تذكر ثواب العفو وجزاء الصفح وتلا قول الله تعالى : « **فمن عفا وأصلح فأجره على الله** » لأراح نفسه من الغضب الذي يورث المرض والحسرة لذلك أرجو منكم أيها الإخوان أن تكونوا أهل حلم وعفو عسى أن تزول الضغائن التي احتلت قلوب كثير منا فأظلمتها وغرست فيها شوك العداوة التي تفسد الحياة وتكدر صفوها فكل واحد منا يعلم أن أساس التعاون والتناصر وحسن التفاهم بيننا لا يتم إلا بالحلم الذي هو سيد الأخلاق .

إن الحليم لا يخسر ولكنه يربح فهو يكسب حب الناس ورضاهم ويريح نفسه من عناء الخصومات مع الأفراد والجماعات وهذه نعمة من أجل النعم يجب على العاقل السعي إليها وبذل المجهود في الحصول عليها ورحم الله من قال :

ازرع جميلا ولو في غير موضعه ... فلا يضيع جميل أينما وضعا
إن الجميل وإن طال الزمان به ... فليس يحصده إلا الذي زرعا

هذا وإن الإسلام لا يقول لك إذا ضربك أحد على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر وعش ذليلا حقيرًا بل القرآن رسم لك طريق الشرف والعزة بدفع البغي والعدوان وبالعفو عند المقدرة والصفح لدى التمكن ولم يرسم لك طريق السكوت والإهانة والاستسلام مطلقاً قال تعالى : « **وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين** » وقال : **وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين** .

وهذه الآية الكريمة نبهتنا أن الله عز وجل حرم التعدي على الغير وجعل القصاص جزاء المعتدي ليلزم كل إنسان حده فلا يعتدي على غيره بالسب أو الضرب مما يقوض أركان المجتمع ثم جعل فوق ذلك منزلة أخرى لم

يفرضها على أحد فرضاً وإنما تركها لحسن تصرف الإنسان فمن صفح عن المسيء إليه بالصفح والعفو فقد تخلق بجميل الخصال وكفل الله له جزيل الأجر كما أعد العذاب الأليم للظالمين .

ومن أخذ بحقه بعدما ظلم فعاقب بمثل ما عوقب به فلا حرج عليه . هذا وأسباب الحلم الباعثة على ضبط النفس كثيرة : إحداهما ، الرحمة للجهال والصفح عن إساءتهم .

أحب مكارم الأخلاق جهدي وأكره أن أعيبا وأن أعابـا
وأصفح عن سباب الناس حلماً وشر الناس من يهوى السبابا

« وثانيها » القدرة على الانتصار وذلك معين على سعة الصدر وحسن الثقة .

« ثالثها » الترفع عن السباب وذلك من شرف النفس وعلو الهمة إذ من مقتضى شرف النفس أن تحمل المكاره كما تحمل المكارم .

لايبلغ المجد أقوام وإن كرموا حتى يذلوا وإن عزوا لأقوام
ويشتموا فتراهم صابرين تـقى لاصفح ذل ولكن صفح أحلام

« رابعها » الرعاية لنعمة سابقة وهذا يكون من الوفاء وحسن العهد فأكرم الشيم أرعاها للذمم .

إن الوفاء على الكريم فريضـة واللـوم مقرون بـذي الإخلاف
وترى الكريم لمن يعاشر منصفاً وتـرى اللئيم مجانب الإنصاف

ولتسكين الغضب إذا هجم أسباب يستعان بها على الحلم (منها) أن يذكر الإنسان ربه عز وجل فيدعوه ذلك إلى الخوف منه ويبعثه الخوف منه على الطاعة له فيرجع إلى حكمه ويزول غضبه .

ومنها أن يذكر ثواب العفو وجزاء الصفح الذي أشار الله إليه في قوله عز وجل : « **فمن عفا وأصلح فأجره على الله** » . وخلاصة القول ان الحلم من أشرف الأخلاق وأحقها بذوي الألباب لما فيه من سلامة العرض وراحة النفس واجتلاب الحمد فهو دواء النفوس الجامحة وجامع القلوب المتفرقة وأحكم ما وصف الله به نبيه ﷺ إذ يقول : « **ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا**

من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر » فكان النبي ﷺ عند حكم ربه حليماً كريماً عفواً رحيماً . بقيت ملاحظة جديرة بالتدبر ذلك أننا إذا أمرنا أنفسنا بالحلم وحفظ النفس عند هيجان الغضب فليس معنى هذا أن نسكت إذا رأينا أمامنا جريمة تقترف أو ظلماً يرتكب أو عرضاً ينتهك أو حقاً يداس فإنه لا يكون معنى للرفق واللين بل بالعكس يجب الغضب في وجوه المعتدين والشدة والغلظة على الآثمين الجاهلين .

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

واختتم درسنا بقصة أمير اشتهر بالحلم وسعة الصدر وهو « **معز بن زائدة** » وقد من الله عليه بحلم وسع أهل زمانه حتى كان الناس يراهن بعضهم بعضاً على إغضابه فخسروا ولم يظفروا وقد جاء في قصصه أن أعرابياً ضمن أن يغضبه ويخرجه عن حلمه على أن يأخذ مائة بعير فلما مثل بين يديه أنشد :

أتذكر إذ لحافك جلد شاة وإن نعلاك من جلد البعير

فقال أذكره ولا أنساه ، قال الأعرابي :

فسبحان الذي أعطاك ملكاً وعلمك الجلوس على السرير

فقال معن إن الله هو الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء فقال الأعرابي :

فلست مسلماً ما عشت دهراً على معن بتسليم الأمير

فقال معن السلام خير وليس في تركه ضير .

ثم انتقل الأعرابي في الحديث معه من سفه إلى حمق ومعن يتلقاه بالحلم والصبر فلم يسع الأعرابي إلا أن قال :

بأبي أنت وأمي أيها الأمير إنك نسيج وحدك في الحلم ونادرة دهرك في الجود ولقد كنت في صفاتك بين مصدق ومكذب فلما بلوتك صدق الخبر وما حملني على ما فعلت إلا مائة بعير جعلت لي جزاء على إغضابك فضحك معن وأمر له بمائة بعير .

كما تدين تدان

قال الله تعالى في كتابه العزيز : « **وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشـــاء والله على كل شيء قدير** »

من تأمل في هذه الآية الكريمة وتغلغل في أسرارها عرف أنها ترمي إلى غرض واحد هو طهارة النفس البشرية من أعمال السوء وفعل المنكرات فإذا فكر الانسان في شرما بأن يؤذي أحد الناس فتراه يعبس في نفسه ثم يضطرب ثم يسلب هدوؤه وطمأنينته فيتألم وقد يكون هذا الألم في بعض الأحيان أشد من الألم المادي كضرب السياط مثلا.

بخلاف الإنسان الذي يفكر في الخير فتراه على عكس ما تقدم تبدو عليه علامات البشر والفرح وإذا تعداه إلى العمل سمع من الثناء والمدح ما يزيده غبطة وسروراً ولذلك فإن الله عز وجل يدعو عباده إلى العمل الصالح والمفيد لبعضهم بعضاً حتى يسعدوا ويتجاوزوا عن الشر وعمله ويتعاملوا بالمحبة والصفح والاحسان قال تعالى : « **قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى** » ومعنى الآية الكريمة ان الصدقة المتبوعة بأذى تعتبر صدقة في ظاهرها ولكنها ليست شيئاً في حقيقتها يحبط الله أجرها ولا يثيب عليها و خير منها عدم الإعطاء مع قول معروف ورد جميل للسائل بكلمة طيبة وقال تعالى : «**وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين**» .

ثمرة تفكير الانسان وعمله عائد إليه، إن خيراً فخير وإن شراً فشر قال تعالى : «**إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها**» قال بعض الحكماء لا يحصل

الإنسان على الفضائل إلا بكبح جماح شهواته ووقوفه عند حد الاعتدال ومن خير الطرق لتحقيق ذلك تربية ملكة المراقبة وحساب النفس عن كل صغيرة وكبيرة والتدبر في عاقبة كل أمر يأتيه الانسان فيبتعد عن قرناء السوء وعن قراءة الكتب المشحونة بقصص الشهوات والمغامرات السافلة الدنيئة لأن الطبع سراق أراد الانسان أو لم يرد والنفس تتأثر بما تشاهد وتسمع رضيت أم أبت ومن أهم ما يربي الفضيلة ويحث عليها تلاوة كتاب الله الكريم وتدبر آياته ومعانيه والنزول على أوامره واستقصاء سيرة رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين ومن تبعهم من عظماء المسلمين.

يروى ان امراة العزيز قالت ليوسف عليه السلام بعد ان ملك خزائن الأرض وكان يركب في جمع حافل من عظماء مملكته. سبحان من جعل الملوك عبيداً بالمعصية ؟ وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم لربهم فقال لها يوسف وكيف ذلك. فقالت له : ان الحرص والشهوة صير الملوك عبيداً وذلك جزاء المفسدين وان الصبر والتقوى صير العبيد ملوكا وذلك جزاء المحسنين فقال يوسف «انه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين».

قال الحسن البصري رضي الله عنه : من علامات المسلم قوة في دين وحزم في لين وإيمان في يقين وعلم في حلم. وقصد في غنى وتجمل في فاقة وإحسان في قدرة. وصبر في شدة ولا يغلبه الغضب ولا تغلبه شهوة فينصر المظلوم ويرحم الضعيف ولا يبخل ولا يبذر ولا يقتر ويغفر إذا ظلم ويعفو عن الجاهل ولا يأكل الحرام لأن كل مال يجمع من طريق الغش والخداع والاحتيال معرض للزوال بل كثيراً ما يصرفه صاحبه في مضراته وآلامه. حكي ان رجلا كان له بقرة يحلبها ويخلط بلبنها الماء ويبيعه فجاء سيل فغرقت البقرة وماتت فحزن صاحبها وأخذ يبكي فقال له بعض أولاده لا تحزن يا والدي ؟ ان تلك المياه المتفرقة التي صببناها في اللبن اجتمعت دفعة واحدة وأخذت البقرة ؟ كيف وقد قال ﷺ لايزيد مال من خيانة كما لا ينقص من صدقة. ومن لا يعرف الزيادة والنقصان إلا بالميزان والعد لا يصدق بهذا الحديث ومن عرف أن

الدينار الواحد قد يبارك الله فيه حتى يكون سبباً لسعادة الإنسان في الدنيا والدين والآلاف المؤلفة قد ينزع الله البركة منها حتى تكون سببا لهلاك مالكها.

يروى عن محمد بن المنكدر وكان تاجراً صالحاً انه خرج لصلاة الجمعة وترك أحد غلمانه الذي يعاونه وأرشده الى أن في الدكان جبتين إحداهما بها عيب وثمنها مائة دينار والثانية سليمة وثمنها مائتي دينار فاتى رجل وأعجبته الجبة ذات العيب ودفع الثمن وذهب ونسي الغلام أن يذكر العيب فلما حضر محمد بن المنكدر أخبره الغلام بما حدث فأخذ الدنانير وذهب يبحث عن الشاري بعد ان عرف أوصافه فعلم أنه سافر فتبعه إلى أن لحقه في الطريق فقال له إنك أخذت بضاعة منا بها عيب فإما ان تردها لنا وتأخذ دنانيرك وأما أن تأخذ نصف الثمن إذ لا يحل لمسلم أن يغش فقال له رضيت البيع وأعجبتني الجبة والمائتي دينار هي لك فأجاب ابن المنكدر ولكني لا أرضى إلا بما قلته لك فاما أن ترد الجبة وإما أن تأخذ نصف الثمن وأصر على ذلك فلم يسع الشاري إزاء هذا الاصرار وهذه الأمانة الكبيرة والنفس السليمة إلا ان أخذ المال كله وقال له خذ مائتي دينار أخرى ثمن الجبة السليمة لأن المائتي دينار التي أعطيتها لغلامك كانت مزيفة وإزاء امانتك وخوفك من ربك فأنا أعطيك بدلها صحيحة وأسلم على يديه إكباراً وإجلالا لأمانته وعفته والله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

ونحن نأخذ من هذه القصة ان التاجر لما رعى الأمانة واحتفظ بها حفظ الله له حقه وأنجاه من الدنانير المزيفة التي لو كان طمع فيها لذهبت بحقه جزاء طمعه.

وصدق رسول الله ﷺ الذي يقول: احفظ الله يحفظك أي أعمل بأوامر الله والتزمها يحفظك ويرعاك بعنايته وبفضله وقد قيل «حياة الرجل المتمسك بدينه مفعمة برياضة النفس وكبح جماحها لأنه يكون رزينا يقظا يفعل الخير وينأى عن الشر لأنه يرى أنه لابد جان ثمر غرسه.

قال عبد الله بن دينار خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة المكرمة فغرسنا في بعض الطريق فانحدر عليه راع من الجبل فقال يا

راعي بعني شاة من هذه الغنم فقال اني مملوك لا أكسب شيئاً فقال قل لسيدك أكلها الذئب ؟ فقال : أين الله ؟ فبكى عمر رضي الله عنه ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال : اعتقتك في الدنيا هذه الكلمة وأرجو ان تعتقك في الآخرة .

إن كل عمل من أعمال الإنسان مجازى عليه قل أو كثر صغر أو كبر وذلك ليس في الدنيا فحسب بل بعد الموت أيضاً فالمرء يتألم بما اجترحه من سيئاته في حياته الدنيا وينعم بعمله الصالح. وورد في الأثر عن النبي ﷺ قال : تموت الناس على ما عاشت عليه ويبعثون على ما ماتوا عليه. فالدنيا مزرعة الآخرة فمن جد وجد ومن زرع حصد وكما يدين المرء يدان ومن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد قال تعالى « : أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون . »

الاستقامة واثرها في سعادة الامة

عن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال : قلت يارسول الله قل لي في الاسلام قولا لا اسأل عنه أحداً غيرك قال : قل آمنت بالله ثم استقم، رواه مسلم.

دل هذا الحديث الشريف على ان ملاك السعادة امران :

1) — الإيمان بالله

2) — والاستقامة

والإيمان بالله هو التصديق والاعتقاد بأن الله واحد لا شريك له وانه الذي يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويضر وينفع كما ان الإيمان بالله يستلزم الإيمان برسله وكتبه وملائكته وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره. وللإيمان الصادق علامات تميز المخلص فيه من المرائي وقد ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم لنزن ما في قلوبنا من إيمان فمن علامات الإيمان الصادق أن نقوم بفرائض الدين وأن نتوكل عليه مع اتخاذ الاسباب، قال تعالى: « **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون** » ومن علاماته ان يكون الله ورسوله أحب إلينا من أنفسنا وأهلينا وأموالنا وأصدقائنا وفي ذلك يقول الله عز وجل « **قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين** » ومن علاماته الانواد من عادى الله ؟ وعاند أمره وتمرد على شرعه واتبع هواه قال تعالى : لا تجد قوما يؤمنون بالله

واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أوأبناءهم الآية،
ومن علاماته أن يكون اعتزاز المؤمن بالله وحده لأن الله قرع من اعتز بغيره فقال:
« **ايبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا** » ووصية النبي ﷺ لسفيان بالاستقامة
في هذا الحديث هي وصية للأمة بأجمعها ومعناها امتثال أوامر الله واجتناب
نواهيه والسير على ماجاءت به الشريعة الاسلامية من غير زيادة ولا نقصان ولا
تقصير ومراقبة الله تعالى عند كل عمل يعمله الانسان فيرى الشخص ان الله
مطلع عليه وانه سيجازيه على عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر من هذا ندرك
أن الاستقامة لازمة للإيمان الكامل لا تنفك عنه فمتى كمل إيمان العبد استحى من
الله تعالى أن يراه حيث نهاه أو يفقده حيث أمره فيترك ما نهى الله عنه ويأتي بما
أمر به بقدر استطاعته وهذه الوصية من جوامع وصايا رسول الله ﷺ ومعناها
منتزع من قوله تعالى: « **ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم
ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون** »
فالآية صريحة في أن المؤمنين المستقيمين بشرهم الله بألا يخافوا ولا يحزنوا
في الدنيا مما يخاف ويحزن منه الناس وبأن لهم الجنة يوم القيامة. من هذه
الآيات الكريمة يتبين لنا ان الاستقامة هي أساس الفوز والنجاح في الدنيا وسر
السعادة والفلاح في الآخرة.

فالشخص المستقيم صحته عليه موفورة وثروته محفوظة وصلته بأهله
محكمة ومنزلته بين الناس عالية فتتمكن من قلوبهم محبته وتدوم بينهم مودته
فإن كان راعياً استقامت رعيته أومربياً حمدت سيرته وأثمرت في الناشئين
تربيته أو صانعاً تقدمت صناعته أو تاجراً راجت تجارته أو زارعاً كثر خيره
أو والداً صلحت ذريته وسعدت أسرته ومتى استقامت الأسرة استقامت الأمة
وانتقلت من وهدة الذل والشقاوة إلى ذروة العز والسعادة ولا شك ان حظ كل
أمة من الرقي والسعادة على قدر حظها من استقامة أفرادها فالأب الذي ساء
سيره وسارت زوجه على سنته لا ينشأ بينهما ذرية طيبة لأن الولد يرث أبويه
خلقاً وسيرة وعقيدة وأدباً. وتصور أن الولد إذا لم يهذب في بيته لا يمكن أن
تهذبه المدارس ولا أن ترقيه الأوساط.

وقد دلت التجارب على أن الأخلاق الطيبة لا بد لها من سند تستند عليه وهو الإيمان القوي فالملحد الذي لا يخشى الله تعالى لا يتورع عن ارتكاب الفاحشة واغتصاب حقوق أخيه إذا أمن سيطرة القانون وتيقن انه يستطيع الإفلات من يد العدالة أما المؤمن الكامل فإن إيمانه يردعه عن اقتراف الآثام ولو كان مطمئنا إلى أنه لا تناله سطوة القانون وانك لتلحظ أن العهود التي كان فيها إيمان الناس كاملا كانت فيها أخلاقهم سامية مرضية وكانت الأمانة متوفرة فيهم وان العهود التي ضعف فيها الإيمان كعصرنا هذا تنتشر فيها الجرائم بمقدار ما نقص من إيمان الناس لأنهم فقدوا الوازع الذي يزجرهم عن الشر وذلك دليل على أن كمال الأخلاق وفسادها تابع حتماً لقوة الإيمان وضعفه، فإذا كنا نريد حقاً نهضة خلقية ترفع أمتنا إلى ذروة الكمال الإنساني وتجعلها قدوة لغيرها فعلينا بتربية الإيمان الصحيح أولا في نفوسنا وفي نفوس أبنائنا وبدون ذلك هيهات أن نستطيع مقاومة الشرور الجارفة التي تنذرنا سؤ المصير.

ولا ننس ما وعد الله به المستقيمين في الدنيا والآخرة على لسان الملائكة الكرام في قوله تعالى « **ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم** » .

فهذه الآية صريحة في أن المؤمنين المستقيمين تهبط عليهم الملائكة عند الموت بهم فيبشرونهم بما يشرح صدورهم ويذهب حزنهم ويزيل خوفهم فيقولون لهم : لا تخافوا ما أنتم قادمون عليه بعد مماتكم من أمور الآخرة ولا تحزنوا على ما تخلفونه وراءكم في الدنيا من أهل وولد وافرحوا بالجنة التي كنتم توعدونها في الدنيا على إيمانكم بالله تعالى واستقامتكم على طاعته ونحن الحفظة الذين كنا معكم سنخلفكم فيما تركتموه وراءكم فلا تحزنوا وسنتولاكم في الآخرة حتى تدخلوا الجنة وان لكم فيها ما تشتهي أنفسكم من اللذات ولكم ما تطلبون من ألوان النعيم نزلا من غفور رحيم بكم.

أسأل الله أن يكتبنا من عباده المستقيمين وحزبه المصلحين.

الحياء واثره في اصلاح النفوس

قال رسول الله ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت» رواه البخاري.

أرشدنا هذا الحديث إلى أن الحياء هو الذي يمنع الشخص من فعل القبائح ويصده عن فعل ما يشينه ويحمله على فعل ما يزينه، وإن الذي لا حياء عنده لا يخجل من رذيلة بل يجاهر بالمعصية كأنه مأمور بها وهذا سيجازيه الله يوم القيامة يوم الحسرة والندامة في يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه.

والأمر في الحديث للتوبيخ والتهديد والحياء ركن عظيم من أركان الإيمان فالشخص الذي تحدثه نفسه بارتكاب معصية فيمنعه الحياء من ربه أو يسبه شخص فيمنعه الحياء من رد سبه أو يجلس في مجلس فيمسك لسانه عن أن يغتاب أحداً من الناس أو يتكلم فيما لا يعنيه حياء من الله والشخص الذي في نفسه هذه الآثار الحميدة يكون متصفاً بالحياء الذى هو رأس الفضائل وهو في حفظ الأعراض يسمى غيرة وفي النساء يسمى عفة وطهارة وفي خدمة الحق يسمى إباء وشمماً.

إنك ترى صاحب الحياء لا يسرق ولا يفسق ولا يؤذي بيده ولا بلسانه والشخص الذي لا حياء فيه تراه يفعل ما بدا له فيرتكب الآثام ولا يخجل من رذيلة بل يجاهر بالمعاصي كأنه مأمور بها والحياء لا يكون إلا عن مراقبة الإنسان لله تعالى واستشعار نفسه باطلاع الله عليها وملاحظته دائما بأن الله يعلم سره ونجواه قال تعالى: «**ان الله كان عليكم رقيباً**» يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويعلم السر وأخفى، «**الم يعلم بأن الله يرى**»، فمن شاء

أن يكون ذا حياء فليصرف أعضاءه فيما خلقت لأجله حتى لا ترى العين إلا ما أحله الله ولا يتكلم اللسان بالغيبة والنميمة والسب والقذف ولا تسرق اليد ولا تبطش ولا تؤذي، كذلك البطن لا يدخل فيها إلا ما أحله الله من الطعام والقلب لا يضمر سوءاً للناس ولا شراً لأحد من المسلمين وهذا معنى قوله ﷺ **«استحيوا من الله حق الحياء، قالوا إننا نستحي والحمد لله قال ليس ذلك ولكن الاستحياء حق الحياء ان تحفظ الرأس وما حوى والبطن وما وعى وتذكر الموت والبلى فمن فعل ذلك فقد استحى من الله حق الحياء»**.

وكان من نشيد الإمام أحمد رضي الله عنه

إذا خلوت الدهر يوما فلا تقل   خلوت ولكن قل علي رقيب

وأفضل أنواع الحياء الحياء من الله عز وجل ثم الحياء من الناس وذلك يكون بعدم التظاهر أمامهم بمظهر الفسق والفجور وكما قال الشاعر

ورب قبيحة ما حال بيني   وبين ركوبها إلا الحياء
إذا رزق الفتى وجهاً وقاحاً   تقلب في الأمور كما يشاء

وبعد ذلك حياء الإنسان من نفسه ويكون ذلك بالعفة فمتى كمل حياء الإنسان من وجوهه الثلاثة فقد كملت فيه أسباب الخير فصار بالفضل مشهوراً وبالكمال مذكوراً كما قال القائل.

وإني ليثنيني عن الجهل والخناء   وعن شتم ذي القربى خلائق أربع
حياء وإسلام وتقوى وإنني   كريم ومثلي من يضر وينفع

ومن المؤسف أن بعض الشبان خلعوا ثوب الحياء أمام الله والناس ولم يراقبوا الله تعالى لضعف إيمانهم وقلة دينهم فترى أحدهم لا يخرج من بيته إلا بعد أن يقف أمام المرآة مدة طويلة ينظم شعره ويزجج حواجبه ثم يمشي في الطريق مزهوا بنفسه لا هم له إلا مشاغبة النساء بألفاظ بذيئة تمجها الفضيلة وتأباها الإنسانية كما ترى أحدهم يجلس بين قرنائه وأصدقائه ويتباهى بذكر ما فعله من المعاصي والموبقات التي ستره الله حين فعلها فيعرضون أنفسهم للحرمان من عفو الله ومغفرته ورحمته

وإحسانه لأن ذلك يغري غيرهم من الشبان ويثير فيهم داعية السوء ويهيج عندهم الميل إلى الفاحشة حتى يتمنوا أن لو أتيحت لأحدهم الفرص ليفعلوا كما يفعلون.

روى البخـــاري بسنده إلى النبي ﷺ قال :« كل أمتي معـــافى إلا المجاهرين وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله فيقول : يا فلان عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره الله فيصبح فيكشف ستر الله عنه »ومعنى الحديث أن الله تعالى يغفر لكل مذنب من أمة محمد ﷺ إلا المذنبين الذين يجاهرون بالفسق والمعاصي ويفعلونها علانية من غير مبالاة لأحد وكذلك لا يغفر للذين يفعلون خفية من غير أن يراهم أحد ثم يذيعون في الناس ما فعلوه مفتخرين بذلك ومتلذذين بعملهم لما في كلامهم من الإغراء بالمعاصي، هذا وإن للحياء أمداً ينتهي إليه فإذا تجاوزه كان جبناً مذموماً وضعفاً ومهانة فليس من الحياء أن تسكت على شخص يرتكب ذنباً وأنت تراه ولا تنهاه فإن المعصية إذا خفيت لا تضر إلا صاحبها وإذا ظهرت فلم تغير كان ضررها عاماً، وكذلك ليس منه أن تجلس في مجلس ترى فيه الحق يخفى أمامك وأنت قادر على إظهاره ولا تظهره واضحاً جلياً. فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : «نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحيـاء أن يتفقهن في الدين ولقد جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ فقالت : « يا رسول الله إن الله لا يستحي من الحق فهل على المرأة من غسل إذا هي آحتلمت ؟ قال نعم إذا رأت الماء » يعني إذا آحتلمت المرأة وهي نائمة لا يجب عليها الغسل إلا إذا حصل إنزال ومثل المرأة الرجل.

أسال الله أن يجملنا بالحياء والصلاح إنه بعباده رؤوف رحيم.

المعاصي آفة الارزاق والنعم

سن الله تعالى أن السعادة لا يوصل اليها إلا بطاعته وإن الشقاء حليف معصيته وأول من شقى بمعصية الله إبليس أمره الله تعالى بالسجود لآدم فأبى وعصى الأمر الإلهي فكان عاقبته أن طرده من جنته ونعيمها وأوعده النار وعذابها في آخرته، وكان ثاني من عصى آدم نهاه الله تعالى عن أن يأكل من شجرة في الجنة كما نهاه أن لا يسمع كلام إبليس لأنه عدوه وما زال إبليس يحرضه على الأكل من الشجرة التي نهاه الله عنها حتى أكل منها فطرده الله من جنته وحرمه نعيمها وأنزله إلى الأرض يعاني هو وذريته من آلام الحياة وشقائها ما يعاني، قال تعالى: « **واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابى واستكبر وكان من الكافرين وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فازلهما الشيطان عنها فاخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم قلنا آهبطوا منها جميعاً فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** » .

وهدى الله تعالى المذكور في الآية الكريمة هو أوامره ونواهيه أنزلها في كتبه ودعت إليها رسله وأنبياؤه وقد أحاط تعالى أوامره ونواهيه بسياج لا يمكن لأي مخلوق أن يتخطاها بدون أن يصيبه الجزاء الذي أعده له من خير أو شر ومن نعيم أو عذاب أليم.

وكما أن المعصية من الأسباب في زوال نعمة الفرد كما حصل لآدم عليه

السلام فهي أيضاً من أكبر الأسباب في آستعباد الأمم بل وإبادتها ومحوها من الأرض وقد حذر الله تعالى وأنذر الأمم أن تخالفه عن أمره فيصيبها العذاب الشديد فقال تعالى : « **وكاين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً أعد الله لهم عذاباً شديداً فاتقوا الله يا أولي الالباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً** » .

وقد نفذ هذا القانون السماوي في الماضي والحاضر ولا نزال نرى أثره ونروي خبره. وقد ذكر لنا القرآن الكريم قصص فرعون وعاد وثمود وما آرتكبوه من المنكرات ومن الفواحش وهضم حقوق الضعيف وآنتشار الزنا وفشو الظلم ومنع الزكاة وشح الأغنياء وفساد نفوسهم مما كان سبباً في زوال نعمهم وحرمانهم منها وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، قال تعالى : « **الم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذي الاوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد** » أوجز لنا القرآن أن المعصية عقابها الحرمان من النعم بل وزوالها إذا أصر الإنسان عليها. وإن سبب دوام النعمة هي طاعة الله وعدم الإشراك به وتنفيذ أوامره والإنابة إليه والتوكل عليه والعمل بأمره وأن سبب نزول النقم هو الإشراك بالله وعدم الإيمان باليوم الآخر والحساب يوم القيامة والإسراف في الشهوات والأمر بالمنكر فيستباح هتك الأعراض وينتشر قول الزور وتداس حقوق الضعفاء ولننظر لقصة عاد وماذا قال لهم نبيهم هود عليه السلام .

قال تعالى : « **وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ان أنتم إلا مفترون** » **يا قوم لا أسالكم عليه أجراً إن أجري إلا على الذي فطرني (خلقني) أفلا تعقلون ويا قوم آستغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك**

بمؤمنين ان نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا اني بريء مما تشركون من دونه فيكدوني جميعاً ثم لا تنظرون » الآيات سورة هود .

هذا الحوار الذي يتضمن رسالة هود عليه السلام إلى قومه والذي ذكره القرآن الكريم في إيجاز وحسن بيان يتضمن الرسالات التي أرسلت بها رسل الله إلى أقوامهم فنوح وإبراهيم وصالح وغيرهم دعوا بهذه الدعوة ولما لم تثمر هذه الدعوة أباد الله تعالى البعض وعذب البعض الآخر وقد أبان الله تعالى نوع العذاب على الذين كذبوا رسله ولم يهتدوا بهديه فقال تعالى في عاد وثمود : كذبت ثمود وعاد بالقارعة «يوم القيامة» فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأما عاد فاهلكوا بريح صرصر(باردة) عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كانهم اعجاز نخل هاوية فهل ترى لهم من باقية (سورة الحاقة).

ولا تزال سنن الله من يوم خلق الله آدم إلى اليوم هي لم تتغير ولم تتبدل فكل أمة يسري فيها الفساد ويعمها ولا يبقى أمل في إصلاحها تباد وتفنى ولا يبقى إلا الأصلح ، « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » وقال تعالى : « لقد كان لسبإ في مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فاعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم الآية إلى قوله وهل يجازى إلا الكفور » وسبا مدينة قديمة كان ريفها في غاية الخصب فلما خرج أهلها عن طاعة الله حاسبهم الله حساباً عسيراً وجعل عاقبتهم الخسران والهلاك .

وجملة القول اقتضت سنن الله الكونية أنه على قدر العوج يكون التقويم وأن الأمة الرشيدة هي التي تعتبر بالمصائب فما من أمة تركت الشر يتغلغل في أوساطها إلا ضربها الله بقاصمة الظهر في صور شتى من العقوبات كحالة المسلمين اليوم من الذلة والمسكنة وتفكك الروابط بينهم ليعودوا على أنفسهم باللائمة ويتداركوا أمرهم بالتوبة والإقلاع عن المعاصي ولو أن المسلمين جعلوا القرآن نصب أعينهم وقاسوا ماضي العبر بحاضرها واعتنوا بأمر دينهم وتفقهوا

بتعليمه بناتهم وأبنائهم وعملوا على آختيار النافع من المدنية الغربية لسعدوا وفازوا، قال تعالى: « **ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل،** » وقال: « **ولو ان أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض** » إن الأمة التي تبني أساسها على الدين لا تستطيع معاول الهدم أن تعمل فيها ما تعمله الآن وحينئذ تحترم أيما آحترام كما هو الواقع في كل زمان ومكان.

الغرب كم يرمي حبائله — والشرق في أحضانها يقع
والتاركون أمور دينهم — لبوا الذي نادت به البدع

فالدين أقوى رابطة بين أعضاء الأمة وأنجع وسيلة لعلو شأنها وآرتفاع رايتها وهذه حقيقة قررها الشرع الحكيم وأقرها العقل في كل زمان ومكان والله تعالى يقول « **شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولو العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم إن الدين عند الله الاسلام** » وجدير بدين شهد الله وملائكته أنه هو الدين الحق الذي يوصل إلى السعادة والكمال. إن الأسف يملأ أفئدتنا في هذه السنين لانهيار صرح الدين والأسى يكلم الأكباد لازدياد الفساد. أين الدين في عهده الأول؟ أين مكانته السامية؟ أين ما كان له من قوة وعزة؟ أما سبب فقد الإسلام كل ذلك فهو أن السابقين أشربت نفوسهم حب الدين فلزموه وتمسكوا به وآستعدوا لعدوهم ولم يقصروا في إعداد أسباب القوة التي أمرهم الله بها في قوله عز وجل: « **واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** » فهل آستجبنا نحن لنداء الله وأعددنا أسباب هذه القوة لندفع بها عن أنفسنا مضار قوتهم وآثار آستبدادهم وطغيانهم كلا ثم كلا بل آشتغلنا بحب الدنيا وتخاذلنا وتركنا الدين وراء ظهورنا وتواكلنا فكانت النتيجة أن سلط الله علينا الأعداء فآستساغونا وآستضامونا وسامونا سوء العذاب.

وكيف يذل المسلمون وفيهم — كتابك يتلى كل يوم ويكرم
عصينا وخالفنا فعاقبت عادلا — وحكمت فينا اليوم من ليس يرحم

والله لست أدري كيف نتبجح ونقول إن الدين لا يوافق المدنية مع أن المدنية

لا تنافي التمسك بالدين بل الدين يدعو إلى المدنية ويساعد عليها فإذا وجد دين يتعارض مع المدنية الصحيحة فهو على كل حال غير دين الإسلام وكل حضارة تناقض أوامر الإسلام فإنما هي حضارة مزيفة ولئن كان التمسك بالدين قيداً للحريـة كما يزعمون فلنعم القيد هو ولرب قيد خير من إطلاق بل هو قيد عن الشر وإطلاق في سبيل الخير أما هذه المدنية الكاذبة التي ينكرها الشرع ولا يقرها العقل السليم تلك المدنية التي تذهب بأمـوال الأمة في مهاوي الدمار وتضعف الأفراد بما تبيحه لهم من آرتكاب الموبقات وتشتت الجماعات بما تلقيه بينهم من التفاخر والتنافر والتحاسد والتباغض وآنتهاك الحرمات تلك المدنيـة التي تذهب معها المروءة وتفقد العفـة وتضيع الغيرة، لقد ظن دعاة الحريـة أن لهم بآسم المدنيـة أن يفعلوا ما يشاءون بغير شرط ولا قيـد ولكن الشارع حكيم في تصرفاته وتشريعه علمهم بما يحتاج إليه الجماعة من ضروب الإصلاح فجعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وجعل الحريـة في أن يحكم الإنسان نفسه ليأمن عليها تسليط غيره ولذا أوصى الإنسان بنفسه فقال : « **ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة** » ولا شك أن من هانت عليه نفسه فأوقعها في هاويـة المعاصي لم يكرم عليه مخاوق بعدها مهما يكن عزيزا لديه كما أنه لا يكرم هو على أحد بعد إهانته نفسه .

وأكرم نفسي إنني إن أهنتهـــا   وحقك لم تكرم على أحد بعدي

ماذا ينقم المارقون من الدين ؟ أينقمون منه أنه أخرج الناس من الظلمات إلى النور ومن الضلال إلى الهدى ومن الجهل إلى العلم ومن الوحشية إلى المـدنية ومن التفرق إلى الوحدة. كان للعرب في الجاهلية أشتاتا تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى وثنية معتنقة، دماء مسفوكة ، حرمات منتهكة، أهواء متفرقة، مشارب متباينة ذلك بانهم قوم لا يعقلون ثم نزل القرآن فهداهم به الله للتي هي أقوم فآنتقلوا من مضيق الجهل إلى متسع العلم ومن ظلام الوحشية إلى نور المدنية ومن ضعف الانقسام إلى قوة الاتحاد. تلك آثارهم تدل عليهم وإن كانت الذكرى تدمي قلب الغيور على مجدهم الدائر، ونحن قادرون على آسترجاع مجد أسلافنا إذا

آقتفينا آثارهم التي سأعرض لكم صورة منها لتعلموا الفرق بيننا وبينهم وهذا الفرق هو سبب رفعتهم وضعفنا حدث التاريخ أن ملك الروم هرقل قال في إحدى حروبه مع العرب : لست أستطيع النصر على هؤلاء الحفاة العراة إلا بإفساد أخلاقهم والقضاء بأيديهم على روح شريعتهم. فبعث إليهم بعدد من الغانيات ليتمكنوا على أنفسهم بالاشتغال بهن والتغزل بجمالهن كما تفعل الآن أسراب الرذيلة من فاتنات الغرب ولكن شتان بين استسلام أبنائنا اليوم لهذه الكتائب وما كان يفعله أسلافنا الأماجد. كان ذلك الجندي العربي الباسل محصنا بتقوى الله ليس للغواية سبيل إلى قلبه الطاهر فكان كلما عرضت الغانية سلعتها الخبيثة عليه ظهر له برهان ربه فأعرض عنها وهو يتهددها بالسيف إن عادت لمثل ما فعلت. فاللهم وفقنا للعمل الصالح واحشرنا في زمرة الصالحين وألف بين قلوب المسلمين إنك لا تزال بنا رؤوفاً رحيماً.

خير عباد الله الاوابون

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول :
قال الله تعالى : « **يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا ابالي يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرني غفرت لك يا ابن آدم انك لو اتيتني بقراب الارض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لا تيتك بقرابها مغفرة** » . رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

من سعادة الإنسان في هذه الدنيا أن يلهمه الله الإنابة إذا أخطأ والاستغفار إذاأذنب وقد تضمن هذا الحديث ثلاثة أمور :

أولا : الدعاء بالمغفرة مع رجاء الإجابة

ثانيا : الاستغفار من الذنـــــوب

ثالثا : عدم الشرك بالله

فإذا أذنب العبد تحت تأثير شهوة طارئة ثم تجلى له قبح ذنبه وسوء عاقبته في الدنيا والآخرة تذكر أن له ربا يغفر الذنوب لمن أناب إليه ويتقبل التوبه عن عباده ويعفو عن السيئات فأقبل إلى ربه بقلب منيب ودعاه أن يغفر له ذنبه وهو يرجو رحمته ويخشى عذابه وهو موقن بعظم فضله وسعة رحمته فإن الله يتفضل عليه بغفران ذنبه لما وعد به المؤمنين من آستجابة دعائهم بقوله : « **وقال ربكم ادعوني استجب لكم** » غير أنه ينبغي للعبد إذا دعا الله تعالى بالمغفرة أن يكون حسن الظن بالله تعالى راجيا إجابة دعائه وقد قال رسول الله ﷺ « **ادعوا الله وانتم موقنون بالاجابة وان الله لا يقبل دعاء قلب غافل لاه** » فالدعاء من أسباب غفران الذنوب لأنه شعار الافتقار إلى الله تعالى ومتى

توفر فيه الإخلاص وحسن النية وقوة الرجاء في فضل الله تعالى فإن فضل الله أعظم من أن يخيب عبده وقد قال تعالى : « **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم** » .

وقد بين الحديث القدسي أن العبد متى دعا الله تعالى ورجا منه المغفرة فإن الله يغفر ذنوبه مهما كثرت ولا يبالي إذ لا رقيب عليه ولا معقب لحكمه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فذنوب العبد وإن عظمت فإن فضل الله أعظم منها فلا ينبغي للعبد أن ييأس من رحمة الله وفضله وفي الصحيح عن جابر رضي الله عنه أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ وهو يقول : واذنوباه مرتين فقال النبي قل : اللهم مغفرتك أوسع من ذنبي ورحمتك أرجى عندي من عملي فقالها ثم قال له عد فعاد ثم قال له عد فعاد فقال له قم قد غفر الله لك.

ومن أعظم ما ينبغي أن يطلبه العبد في دعائه دخول الجنة والنجاة من النار وقد علمنا الله تعالى ما ندعو به في آيات كثيرة مثل قوله تعالى : « **ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار** وقوله : **ربنا اننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان ان آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الابرار ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد** » ونظائر هذه الآيات كثيرة في القرآن الكريم يعلمها من قرأه وتدبره ورغب في آتباعه والاهتداء بهديـه.

السبب الثاني للمغفرة الاستغفار وهو طلب الغفران من الله تعالى وقد وعد الله عباده بغفران ذنوبهم أن آستغفروه حتى لو كثرت ذنوبهم فبلغت لكثرتها عنان السماء وهو السحاب وقد أمر الله تعالى عباده في القرآن الكريم بالاستغفار ومدح أهله وبين فضله فقال : « **ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرا راً ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين** » وقال : **فقلت استغفروا ربكم انه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمدكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهاراً**» ، وقال : « **والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب**

إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين » وقال : ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ». فأنتم ترون أيها الإخوان من هذه الآيات أن الله تعالى أمر بالاستغفار ومدح أهله ورتب عليه غفران الذنوب في الآخرة والمتاع الحسن في الدنيا لكن بشرط أن يكون هذا الاستغفار مقرونا بالتوبة فإذا اقترن بها غفر الله ذنوب صاحبه وإذا لم يقترن بها بل أصر على ما فعله لم يقبل الله استغفاره بدليل الآية التي مرت بنا في قوله: « ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » فقبول استغفارهم مقيد بعدم إصرارهم على ذنوبهم فإذا أصروا عليهـــا ولم يتوبوا إلى الله منها كان استغفارهم مردوداً عليهم بل كان استهزاء.

وأفضل أنواع الاستغفار أن يبدأ العبد بالثناء على ربه ثم يثنى بالا... بذنبه ثم يسأل الله المغفرة كما في حديث شداد بن أوس رضي الله عن... النبي ﷺ قال : سيد الاستغفار أن يقول العبد اللهم انت ربي لا اله الا انت خلقتني وانا عبدك وانا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت ابوء لك بنعمتك علي وابوء بذنبي فاغفر لي فانه لا يغفر الذنوب إلا أنت» . رواه البخاري .

وبالجملة فدواء الذنوب الاستغفار كما روى من حديث أبي ذر مرفوعاً : إن لكل داء دواء ودواء الذنوب الاستغفار وقال قتادة : إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم فأما داؤكم فالذنوب وأما دواؤكم فالاستغفار وفي سنن أبي داود عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لايحتسب.

السبب الثالث من أسباب المغفرة التوحيد وهو السبب الأعظم في غفران الذنوب فمن فقده فقد أسباب المغفرة وقد جعله الله سبباً في عدم الخلود في النار ولو أتى العبد بالمعاصي بعد إيمانه، قال تعالى : « ان الله لا يغفر ان

يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » وكلما كمل توحيد العبد وآمتلأ قلبه بسببه من خشية الله ومحبته كان العبد أبعد عن آقتراف الذنوب وإذا وسوس له الشيطان بآقتراف ذنب من الذنوب تراه يفزع إلى ربه بالذكر والاستغفار فيفسد على الشيطان حيله وكيده فإذا هو مبصر طريق التوبة فيتوب الله عليه قال تعالى : « **ان الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ».

فكمال التوحيد هو معظم الرجاء ومعقد الفوز.

أسال الله أن يجعلنا من المؤمنين الكاملين التوابين ويغفر لنا ذنوبنا أجمعين.

اصلاح العمل شرط في اجابة الدعاء

قال الله تعالى في كتابه العزيز : « **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان** » .

إن الله أمر بالدعاء والتضرع إليه إذا نزل بنا ضيق أو شدة ووعدنا بالإجابة لأن في الدعاء إظهار العبودية والانكسار لله الواحد القهار والإقرار بالعجز والافتقار إلى مقلب الليل والنهار ولهذا ورد في الأثر من لم يسأل الله يغضب عليه ورحم الله من قال :

لاتسألن بني آدم حـاجـــة وسل الذي أبوابه لا تحجـــب
الله يغضب إن تركت سؤالــه وترى آبن آدم حين يسأل يغضب

فالذي يعبد ويرجى في كشف الهموم والأكدار هو الله الواحد القهار وإن من ترك بابه إلى باب غيره خسر خسراناً لا ربح بعده حيث أن الله يقول : « أليس الله بكاف عبده . »

إن الدعاء والتضرع إلى الله من أكبر الأسباب في غفران الذنو ب وهو شعار الصالحين فالمؤمن لا ينبغي له أن ييأس من رحمة الله مهما كثرت ذنوبه إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، وقال تعالى : **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم** » . فمن يقرع الباب يوشك أن يفتح له ومن يكثر الدعاء يوشك أن يستجاب له وقد وعدنا الله بغفران الذنوب والمتاع الحسن في الدنيا من رزق واسع وتفريج كروب وإزالة هموم إذا أنبنا ورجعنا إليه يؤيد ذلك قوله تعالى : **فقلت استغفروا ربكم انه كان غفاراً يرسل السمـاء عليكم**

مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً . ، وجاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال : «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ويقول دعوت فلم يستجب لي ومعنى الحديث أن المؤمن لا يمل من الدعاء لأن الدعاء عبادة وتأخير الإجابة إما لأنه لم يأت وقتها أو أنه لم يقدر في الأزل قبولها وإما ليؤخر القبول ليلح الإنسان ويبالغ في الدعاء لما في ذلك من آنقياد وآفتقار إلى الله وللدعاء شروط وآداب منها التوبة والإخلاص وطيب المأكول والمشروب والملبوس فينبغي أن يكون المأكول حلالا ولذلك قال النبي ﷺ من حديث صحيح رواه الإمام مسلم : أن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى : **يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً** ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب له، قال سيدنا وهب بن منبه رأيت في التوراة أن موسى عليه السلام مر برجل يدعو ويتضرع وهو ينظر إليه فقال موسى يا رب أما آستجبت لعبدك فأوحى الله إليه يا موسى إنه لو بكى حتى تلفت نفسه ورفع يديه حتى بلغت عنان السماء ما آستجبت له قال يارب لم ذلك قال : لأن في بطنه الحرام وعلى ظهره الحرام وفي بيته الحرام ، ومر إبراهيم بن أدهم بسوق البصرة فآجتمع الناس إليه وقالوا له يا أبا إسحاق ما لنا ندعو الله فلا يستجاب لنا، قال : لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء : أولا عرفتم الله فلم تؤدوا حقه ثانياً : قلتم إنكم تحبون الرسول وتركتم سنته، ثالثاً : قرأتم القرآن ولم تعملوا بأوامره ، رابعا : أكلتم نعم الله ولم تؤدوا شكرها ، خامساً : قلتم إن الشيطان لكم عدو ولكنكم وافقتموه، سادساً : قلتم إن الجنة حق ولم تتزودوا لها ، سابعاً : قلتم إن النار حق ولم تهربوا منها، ثامناً : علمتم أن الموت حق ولكنكم غفلتم عن الآخرة ، تاسعاً : آشتغلتم بعيوب الناس ونسيتم عيوبكم، عاشراً : دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم ولنختم درسنا بحديث قدسي جليل فيه العبرة والعظة قال تعالى : « **يا عبادي قد أخرجتكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعلت لكم السمع والبصر فسمعتم والبصر فأبصرتم والعقل ففهمتم واشهدتكم**

على أنفسكم اني ربكم فشهدتم ولكنكم بعد ان أسبغت عليكم نعمي ومددت لكم موائد كرمي نقضتم العهد وغدرتم وأنكرتم معروفي وبنعمتي كفرتم فسلطت عليكم من لا يعرفني في الارض وأذقت بعضكم بـأس بعض ولو تفكرتم لعلمتم ان كل ما في الارض من ظاهر وباطن ومتحرك وسـاكن ورطب ويابس وقائم وجالس وراكع وساجد ومستيقظ وراقد يشهد لي بالحكمة والعدل فإن رجعتم إلينا قبلنا وان عدتم عدنا ومن نسيني انسيته نفسه وصيرته خـاسراً في يومه وأمسه فالواجب على المسلمين أن يقبلوا على ربهم ويتوبوا إليه من ذنوبهم فلقد عمت البلوى وعم المصاب ودخلت علينا الفتن من كل باب وصرنا نتضرع إلى الله في كشف ما نزل بنا فلا يرى أحد منا دعاءه مستجاباً كأن ذنوبنا جعلت بيننا وبين الله حجاباً فهيهات أن يقبل الله دعاء المذنب وهو لا يتوب فتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون « وانيبوا إلى ربكم واسلموا له من قبل أن ياتيكم العذاب ثم لا تنصرون واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ·

الصلاة وأثرها في تهذيب النفوس

الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن تركها فقد هدم الدين وهي آية الإيمان وعلاقة الإنسان بالرحمان وسبيل المؤمنين إلى سعادة الدارين يتساوى فيها الفقير والغني والأمير والحقير وهي من أكبر الوسائل لترويض النفس على كبح جماح شهواتها إذا ما أداها الإنسان على وجهها المطلوب لأنها العلاقة المستمرة بين العبد وربه يعترف فيها الإنسان بربوبية خالقه ويستمد منه العون والهداية إلى الطريق المستقيم. وإذا كان كل مسلم يؤدي فرائض الصلاة حسب ما شرعها الله وأداها رسوله ﷺ فهي بلا نزاع تجعل المسلمين على قدم المساواة في فقرهم إلى الله وطلبهم رضوانه وذلك بانتهاجهم سبيله التي أقرها القرآن المجيد وبينها رسوله الكريم.

وإن من يتأمل في عظيم قدرها وجلالة مكانتها من الدين يظهر له جلياً أنها تعلم الإنسان حبه للواجب وتغرس في نفسه الطاعة للخالق وتعلمه كبح شهواته والوقوف عند حد الاعتدال. وتجمع القلوب على الهدى بعد أن كانت مبعثرة في طرق الضلال وتوحد الصفوف وتلم الشمل فإذا ما اجتمع المصلون في صعيد واحد لعبادة الله لا يكون هناك تمييز بين الأغنياء والفقراء والعلماء والجهلاء بل يختلط الحابل بالنابل لأنهم كلهم على ما بينهم من تفاوت في الثروة والعلم فقراء إلى الله تعالى يستمدون منه العون ويسألونه الهداية يتساوى في ذلك أمراؤهم وصعاليكهم صغارهم وكبارهم أسودهم وأبيضهم وأحمرهم وأصفرهم ولا يتقربون إلى الله بأموالهم وأولادهم وضياعهم وإنما بالعمل الرشيد والقول السديد وطاعة الله فيما يريد فإنكم ترون الغني المترفه على

وفرة ماله وكثرة أعوانه يقف في صلاته مع الفقير البائس الذي لا يملك قوت يومه مع رثاثة هيئته كتفا لكتف وجنبا لجنب لا تأنف نفسه لذلك ولا تعاف الوقوف بجانبه بل تجد من هو أعظم من ذلك مكانة وأسمى منزلة كالملوك والرؤساء فإن الشريعة الإسلامية تسوي بينهم وبين السوقة فيها، فلا غرو إذا تذللت نفوسهم بذلك وركنوا إلى الخضوع والتواضع ومقاومة ما هو كامن في نفوسهم من الأنفة والعظمة.

قال المستر « **هواس ليف** » الكاتب الأنجليزي في مقال نشرته المجلة الإسلامية الأنجليزية : ما كان شيء في العالم ليقنعني بأن أي دين من الأديان يدعو إلى المساواة بين الناس ولو أن بعضها يتظاهر بهذه الدعوى. فقد زرت كثيراً من الكنائس والمعابد مرات فرأيت التفريق بين الطبقات داخل الكنائس والمعابد كما هو موجود خارجها وكان اعتقادي بالطبع أن الأمر لا بد كذلك داخل المساجد الإسلامية ولكن ما كان أشد دهشتي حينما رأيت الشعور بالمساواة على أتمه بين المسلمين في عيد الفطر في مسجد « **ووكنج، بلندرة** » فهناك وجدت أجناساً مختلطين على اختلافهم في المراتب اختلاطا لك أن تسميه بحق أخوياً.

ولم أكن شاهدت مثل ذلك . ترى في المسجد رجلا زنجيا يصافح عظيماً من بلاد العرب فيبشر في وجهه ولا يأنف من أن يجاوره في الصلاة لأن الكل عند الله سواء لا فضل لأحد على أحد، وقد صرح لي إمام المسجد بأن المسلمين يعتقدون برسالة جميع الأنبياء ويؤمنون بما أنزل عليهم وكدت لا أصدق أذني وكان هذا جديداً استفدته من الإسلام ولذلك لم أعد أشك في أن هذا الدين يصلح بأن يكون ديناً عاماً. ترى أثر المساواة بارزاً في حياة المسلمين كلما كانوا متمسكين بتعاليم دينهم حريصين على أداء أوامره وكلما صعدت بتاريخ الإسلام إلى صدره الأول رأيت العدل والمساواة والإخاء يكاد يكون على أتمه مما لم يحدث به التاريخ في أي أمة من الأمم .

أيـها الإخـوان

هذه بعض أقوال ذوي الضمائر الحية نستطيع أن نحاجج بها من ظلموا أنفسهم وكفروا بنعمة الله وافتروا على الإسلام وصار لا هم لهم إلا السخرية والاستهزاء بالمؤمنين الصادقين الذين يقيمون شعائر دينهم فيقولون إنهم متاخرون لا يفهمون معنى المدنية زاعمين أن تلك الصلاة صارت لا تلائم العصور الحاضرة وأنها ما شرعت إلا للأجيال الغابرة ولو كان لهم وازع من دين أو عندهم رهبة من الحساب الأخروي لأقبلوا على شعائر دينهم وحافظوا على صلاتهم التي هي من أفضل العبادات وأعظم القربات لما اشتملت عليه من الفوائد النافعة وهو أنها تنهى فاعلها عن ارتكاب الفحشاء وفعل المنكر كما أشار الله تعالى بذلك في قوله تعالى : « **وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** » وتعود الإنسان النظافة وتمنحه فضيلة الصبر والثبات وقوة العزيمة وذلك في قوله تعالى : « **واستعينوا بالصبر والصلاة** » . إلى غير ذلك من صنوف البر والخير فلا جرم إذا عوقب تاركها بأشد أنواع العذاب وباء بالخسران والحسرة والندامة على ما فرط في جنب هذا الخير العظيم ولذا يقول الله عز وجل في بيان تارك الصلاة وما يستحقه من النكال « **كل نفس بما كسبت رهينة الا أصحاب اليمين في جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين** » ومعنى الآية الكريمة : أن كل نفس بما كسبته من الأعمال مرهونة عند الله تعالى مؤاخذه عليه بما تستحقه من العذاب إلا أصحاب اليمين وهم المؤمنون المخلصون فإن نفوسهم غير مرهونة لأنهم فكوها بما قدموا من الأعمال الصالحة وهم لذلك في جنات يتمتعون ويسألون المجرمين الذين كانوا يضحكون على إخوانهم الذين يقيمون شعائر دينهم فيسألونهم أي شيء أدخلهم في سقر فيجيبونهم : هو تركنا للصلاة.

أيهـا الإخوان

إن الدين أمانة في أعناقنا ووديعة بين أيدينا تركه لنا رجال نصروه فنصرهم الله وثبت أقدامهم وجاهدوا فاتحين لا لزخرف الدنيا الزائـل بل

لنصرة الدين وإعلاء كلمته فجعلهم ملوكا وأعز شأنهم ورفع رايتهم وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً فمن العار ومن الفضيحة أن نفرط في هذه الوديعة ونخون الله في هذه الأمانة ونترك الصلاة ونهجرها عمداً بلا عذر وقد سمعتم في هذا الدرس ما أعده الله من العقاب الأليم والعذاب الشديد لمن تركها وغفل عنها لأنها ركن من أركان الإسلام أمرنا الله بإقامتها وحتمها علينا في السلم والحرب والصحة والمرض في قوله : « **ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً** » وقوله : « **حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين** » وقوله في الحرب « **واذا كنت فيهم فاقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم** » الآية إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تحرض على إقامة الصلاة وما أنا بالغ بغيتي في العد والحصر وسنتعرض في درسنا القابل بحول الله لبقية فوائدها.

فوائد الصلاة

حدثناكم في درسنا السابق عن فريضة الصلاة وعظيم قدرها وأنها أعظم ركن من أركان الإسلام الخمس إذا استثنينا الشهادة وأن تركهـا عمداً بلا عذر شرعي ليس بالأمر الهين بل هو من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر يدلنا على ذلك قوله تعالى عندما سأل أهل الجنة أصحاب النار قالوا لهم أي شيء أدخلكم في سقر قالوا جواباً لهم عن سؤالهم هو تركنا الصلاة.

ومما يجعلنا نجزم بخطورة شأن الصلاة والمثابرة عليها هو اهتمام رب العزة بها حيث أن كل فريضة شرعها نزل بها جبريل الأمين على سيدنا محمد أشرف العالمين أما فريضة الصلاة فقد ارتفع النبي ﷺ إليها ليلة الإسراء والمعراج وفرضها الله عليه وعلى أمته بلا وساطة جبريل ودار في أمرها أخذ ورد وحوار كانت نتيجته التخفيف وهذا من أعظم البراهين على عظيم أمر الصلاة ومزيد ثوابها لذلك حث الله بالمحافظة عليها في قوله : «**حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين**» ، «**فإن خفتم فرجالا أو ركبانا**» قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله رحمة واسعة : هذا تأكيد للمحافظة على الصلاة وبيان أنها لا تسقط بحال من الأحوال فإذا حان وقتها صلى المكلف ماشياً أو راكباً كخوف من عدو أو أسد أو غير ذلك وفي حالة الركوب لا يشترط أن يكون مستقبلا للقبلة ويومىء بالركوع والسجود على قدر استطاعته وعلل ذلك بأن الصلاة هي الإقبال على الله واستحضار سلطانه وعظمته وهي روح الصلاة فهي عمل قلبي وإنما فرضت فيها الركوع والسجود مساعدة على العمل القلبي «انتهى كلامه».

وآثار الصلاة وفوائدها هي ما أنبأنا الله تعالى به في قوله «**ان الانسان خلق هلوعاً اذا مسه الشر جزوعاً واذا مسه الخير منوعاً الا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون**» ومعنى الآية أن الإنسان خلق بفطرته متقلبا في أعماله غير ثابت في أحواله كالريشة في مهب الريح إن رزقه الله من الخير طغى ومنع حقه فيه وإن أصابه بالشر جزع وسخط فإذا أتى من هذه حالته بالصلاة خمس مرات في أوقاتها تجنب الشر وصار إنساناً كاملا وخشعت جوارحه وتنور قلبه وخضع لكل ما يجرى عليه من خير وشر لعلمه أن الخير والشر من الله الذي يناجيه في صلاته.

والصلاة صلة بين العبد وربه وقربة جالبة لرضائه وحبه فمن حافظ على أدائها ولم يخل بشيء من شروطها وأركانها لا شك أنه ينال الفوز والنجاح وينتظم في سلك أهل الفضل والصلاح ويمحو الله عنه ذنوبه وخطاياه كما أشار إلى ذلك الصادق الأمين ﷺ «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء قالوا لا يارسول الله قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الذنوب والخطايا «رواه البخاري» وهي أيضا صلة بين الإنسان وأخيه الإنسان صلة البر والعطف والحنان.

روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : قال داود عليه السلام في مناجاته : إلهي من يسكن بيتك ومن تقبل صلاته ؟ فأوحى الله إليه «**يا داود انما يسكن بيتي وأقبل صلاة من تواضع لعظمتي وقطع نهاره بذكري وكف نفسه عن الشهوات من أجلي يطعم الجائع ويؤوي الغريب ويرحم المصاب فذلك الذي اذا دعاني اجبته واذا سألني اعطيته ومثله في الناس كمثل الفردوس في اعلى الجنان لا تيبس انهارها ولا تنقطع ثمارها**» والمتأمل في هذا الحديث القدسي يراه جامعاً لأصول البر شاملا لضروب الخير آخذا بالنفس الإنسانية إلى أشرف غاية من السمو على المادة وإسداء الخير لبني الإنسان الذي هو من أكبر مقاصد الإسلام كما أنه من أهم الوسائل إلى القرب من الله تعالى وسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، والصلاة وتوابعها من الطهارة والنظافة تعلم الإنسان

حبه للواجب وتغرس في نفسه الطاعة للخالق ومتى تعلم القيام بالواجب صار ذلك له عادة ثابتة يسهل عليه العمل بها فالإنسان الصالح إذن هو الذي أدب نفسه بتدريب إرادته حتى صار الخير عادته كما أن الطالح هو الذي ترك إرادته خاملة لا عمل لها حتى اعتاد الشر وحتى قيده الشر بسلاسل لم يستطع إلى الخلاص منها سبيلا وأي عادة أفضل وأقوى من الصلاة التي تأمره بالخير وتنهاه عن الشر.

والصلاة من أكبر العوامل في نشاط الجسم لما فيها من الحركات الرياضية من قيام وقعود وركوع وسجود وأغلب الحركات الرياضية التي تعلم اليوم في المدارس والأندية الرياضية تجدها في حركات الصلاة انظروا مثلا إلى صلاة الفجر وهي تؤدى قبل طلوع الشمس بساعة أو بنصف ساعة وهي ساعة البكور وكيف يكتسب الجسم نشاطا وقوة حينما ينام مبكراً ويستيقظ مبكراً بين يدي ربه يناجيه ويدعوه أن يهديه إلى الصراط المستقيم.

وصلاة الظهر والعصر من أدعى الأسباب لاستجمام راحة البدن والفكر من مشاغل الحياة اليومية فيها يستلهم السداد من خالقه ويؤدي له بعضا من واجب الشكر على الكثير من نعمه التي غمره بها. وصلاة المغرب والعشاء من أكبر الرياضة الجسمانية والنفسية لختام حياة النهار واستقبال راحة الليل في هدوء وطمأنينة.

قص الكونت « **هنري دي كستري** » وقد كان ضابطا بالجيش الفرنسي المرابط في بلاد الجزائر حيث اختلط بالعرب وعاشرهم زمنا واطلع على شيء كثير من أصول الدين الإسلامي وكان الدافع له على ذلك كما رواه هو نفسه في مقدمة كتابه الإسلام : هو أنه خرج إلى الصحراء في يوم من أيام الشتاء ليروح عن نفسه راكباً فرساً بصحبة ثلاثين عربياً من قبيلة أولاد يعقوب ممتطين جيادهم وهم ينشدون أشعار الحب والأغاني الحماسية وإذا بهم توقفوا فجأة عن المسير والتفتوا إلي قائلين : أيها السيد لقد حانت صلاة العصر ومن غير أن ينتظروا جواباً نزلوا عن خيولهم ووقفوا صفاً واحداً ببرانيسهم البيضاء ينحنون ويسجدون بحركات منتظمة وسمعتهم يقولون بصوت عال « **الله اكبر** »

فاستولى علي اضطراب لا يوصف : مزيج من الخجل والغضب وشعرت في تلك اللحظة أن هؤلاء الأعراب كانوا على يقين بأنهم أشرف مني نفساً وأكبر همة وعندما عدت إلى البرج الذي كنت أقيم فيه اجتهدت في استجماع أفكاري وشعرت بميل متزايد إلى محاسن الإسلام وكانت هذه الحادثة كما يقول المؤلف سبباً في إقباله على دراسة الإسلام وتأليف الكتاب الذي نحن بصدده وقد ألفه نتيجة أبحاثه عن صاحب الشريعة الإسلامية محمد صلى الله عليه وسلم

أرأيتم أيها الإخوان أن جلال الله إذا حضر القلوب أضاءها بنوره ولذلك لبى العرب الذين كانوا مع الكونت **هنري دي كستري** وهو رئيسهم نداء ربهم وقاموا بين يديه لما حانت صلاة العصر خاشعين لله لايرون سلطاناً غير سلطانه خافوا ربهم فخشيهم رئيسهم وعظموا خالقهم فرهبهم مستعمرهم وصدق رسول الله ﷺ الذي يقول : « **من خاف الله خوف الله منه كل شيء ومن لم يخش الله أخافه الله من كل شيء** قال تعالى : « **ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها** »

إلى هنا ننهي القول عن فوائد الصلاة وسنحدثكم عن الخشوع في الصلاة في درسنا القابل بحول الله وقوته.

الخشوع في الصلاة

حدثناكم في درسنا السابق عن فوائد الصلاة وقلنا إنها تربي في الإنسان الخوف من الله وتغرس في نفسه الطاعة ومن كان كذلك تصلح أعماله وتقوي علاقته بخالقه فيقف عند حدود الدين وينتهي عما نهاه عنه وبذلك يكون من المفلحين وفي هذا الدرس سنحدثكم عن الخشوع في الصلاة لأن الخشوع هو لب الصلاة فمن خشع لله في صلاته هداه ومن طلب رضاه أسعده وأنجاه إذ ليس كل من قام وركع وسجد وقعد مصلياً فالصلاة على أنواع ثلاثة :

النوع الأول : صلاة الساهين وهم الذين يقومون ويقرؤون ويركعون ويسجدون سراعاً كأنهم عليها مقهورون وفي فعلها مظلومون فهؤلاء لا تنفعهم صلاتهم لأن الفائدة من الصلاة أثرها في الخارج على الجوارح فاللسان لا يتكلم بالكلام الفاحش ولا يطعن في أعراض الناس ولا يسب ولا يكذب ولا يشهد زوراً والعين لا تنظر إلى ما لا تحل رؤيته واليد لا تسرق والرجل لا تذهب إلى بؤر الفساد إلخ . . .

وقد توعد الله الذين يأتون بصورة الصلاة من الحركات والألفاظ مع السهو عن معنى العبادة وسرها فيه المؤدي إلى غايتها بقوله « **فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون** فسماهم مصلين لأنهم أتوا بصورة الصلاة ووصفهم بالسهو عن الصلاة الحقيقيةالتي هي توجه القلب إلى الله تعالى المذكر بخشيته المشعر للقلوب بعظم سلطانه ثم وصفهم بأثر هذا السهو وهو الرياء وهو ما عليه أكثر

الناس وقد قال رسول الله ﷺ: إن من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً وإنها تلف كما يلف الثوب البالي ويضرب بها وجهه وروى عن الله سبحانه وتعالى في الكتب السالفة أن سيدنا داود عليه السلام سأل ربه فقال يارب من الذي يسكن جنتك وتقبل صلاته فقال يا داود « **اقبل صلاة من تواضع لعظمتي واشغل لسانه بذكري وكف نفسه عن الشهوات من أجلي يعين المصاب ويأوي الغريب ويطعم الجائع فذاك الذي إذا دعاني أجبته واذا سألني أعطيته ومثله في الناس كمثل الفردوس في أعلى الجنان لا تيبس أنهارها ولا تقطع ثمارها** ».

النوع الثاني صلاة المرائين يصلي ليقال إنه من الطيبين عسى أن يصطاد من متاع الدنيا مالاسبيل إليه لو لم يتظاهر بالورع والتقوى تراه إذا حضر مع الناس صلى فأحسن الصلاة وإذا خلا بنفسه نقر نقر الديك والتفت التفاتة الثعاب وبرك بروك البعير وضيع أركان الصلاة وأسرع فيها كأن تحت قدميه نارا أو كأنها ضريبة فرضت عليه كما تفرض الضرائب الباهضة على الشعوب الضعيفة من حكوماتها المستبدة وقد قال الله تعالى فيهم : « **ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ولا ينفقون الا وهم كارهون** » وعلى ذكر الرياء في الصلاة الذي يقصد به غير وجه الله أفكه حضراتكم بما حدثنا به المرحوم شيخنا الأستاذ سيدي الصادق النيفر في بعض دروسه التي كان يلقيها بجامع الزيتونة قال رحمه الله رحمة واسعة يوجد في الحي الذي أسكن فيه رجل فلاح متدين في معاملته مع ربه والناس وعنده بنت غاية في الجمال فرآها تلميذ يدرس الطب في فرنسا وكان ذلك في العطلة الصيفية فأحبها الشاب وأعجبته وتمنى أن تكون له زوجة فعرض الأمر على والده فاستحسن رأيه وخطبها من والدها فرفض الأب هذه الخطبة ولما لامه بعض أصدقائه كان جوابه أن الولد غير متدين ولم أره قط بالمسجد وأنا أسمع العلماء يوصوننا باختيار الزوج المتدين فكيف أعطي ابنتي لولد مثل هذا بل أعطيها لفلاح مثلي يؤدي فرضه خير من ألف شاب مثله ولما علم الفتى بهذا الرفض وكان يحب الفتاة أخذ

يلازم المسجد في الجمع والجماعات وكان لا يحلو له الجلوس إلا بجوار والد الفتاة ليراه وأخيراً رق بحاله ورضي به بعلا لابنته قائلا لأصدقائه لا بأس بإجابة رغبته حيث أنه حسنت حالته وترك ضلاله وأقبل على الصلاة وبذلك عقد الولد على الفتاة في حفل بهيج وتزوج بها لكن من ذلك الحين خاصم المسجد وانقطعت صلته به ورجع إلى ما كان عليه وصدق من قال : صلى لأمر كان يقضيه .

النوع الثالث : صلاة الخاشعين وهم الذين مدحهم الله وأثنى عليهم في قوله : « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون » فقد علق الفلاح على الخشوع لأن الخشوع هو روح الصلاة متى فقد كانت الصلاة ميتة لا فائدة فيها لأن المقصود من الصلاة أثرها وهو التعظيم والخشوع فالصلاة حينئذ بدون خشوع لا تنفع صاحبها ولا تتطهر بها نفسه بخلاف صلاة الخشوع فهي معوان على كل خير لأنها صلاة التدبر في الآيات والتفكر في خلق السموات. قال ابن عباس رضي الله عنهما : ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة .

وخلاصة القول أن الصلاة مع الغفلة وعدم الخشوع باطلة وقد علمتم سبب ذلك فمن لم يخشع في صلاته فقد أتعب نفسه وكلفها من العمل وضياع الوقت بدون أدنى فائدة ترجع إليه ويا ليته كان عملا لا فائدة فيه فقط بل هو محاسب على عدم تزكية نفسه بتلك الصلاة لذلك لا يصح أن نسمي كل من أتى بالصلاة مصليا صلاة مقبولة « إنما يتقبل الله من المتقين» فالإسلام دين القلوب والنوايا الصالحة لا دين المظاهر الكاذبة وليست الأعمال الصالحة هي الصلاة أو العبادة فقط، وإنما هو التأمل في عظمة الله وقوة سلطانه والإخلاص في عبادته والتزام ما شرعه من الدين والثبات في مواطن الأخطار ولدى اشتداد الأهوال. حدث **الأستاذ عبد الله«كوليم»** الأنجليزي المسلم أنه حينما كان مسافراً على ظهر باخرة إلى طانجة في بلاد المغرب وإذا بعاصفة قد هبت ومن شدة الريح وقوة أمواج البحر مالت السفينة بركابها

وأشرفت على الغرق وأخذ الركاب يتأهبون ويحزمون أمتعتهم وقد اضطربوا ونزل بهم الهول فلا يدرون ما يصنعون وإذا به يرى جماعة من لابسي البرانيس البيضاء يصطفون ويصلون فهاله هذا المنظر وأخذه العجب من عملهم فسأل أحدهم من أي الأديان أنت ؟ فأجابه أنا مسلم فسأل ألم يهلكم إشراف السفينة على الغرق ؟ قال وما تصنعون ؟ قال كنا نصلي لله الذي بيده أزمة الأمور إن شاء أحيانا وإن شاء أماتنا فكان هذا الجواب سبباً في بحثه عن الدين الإسلامي فأسلم وكان من أنصار الدعوة الإسلامية في بريطانيا وقد أسلم على يده الكثير من البريطانيين.

نأخذ من هذه القصة التي نتج عنها إسلام هذا البريطاني أن هؤلاء الجماعة كانوا يأتون بصلاتهم على الوجه المطلوب وهو الخشوع وبذلك زكت نفوسهم وعلموا أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً لذلك تأثر الرجل من شجاعتهم وعدم خوفهم من الموت فشعر في تلك اللحظة أن الدين الإسلامي هو الذي بعث في قلوبهم القوة وقت الخطر

فكان هذا الحادث كما يقول المؤلف سبباً في إقباله على دراسة الإسلام فأحبه وأسلم وحسن إسلامه.

هذا ولنختم درسنا بموعظة جليلة أرجومنكم أيها الإخوان أن تعملوا بها وتواظبوا عليها لتسعدوا وتربحوا في الدنيا والآخرة.

يروى عن حاتم الأصم رضي الله عنه أنه سئل عن صلاته فقال : «إذا حان وقت الصلاة أصبغت الوضوء ثم أتيت الموضع الذي أريد الصلاة فيه فأقعد حتى تتجمع جوارحي ثم أقوم إلى صلاتي فأجعل الكعبة بين حاجبي والصراط تحت قدمي والجنة عن يميني والنار عن شمالي وملك الموت ورائي وأظنها آخر صلاتي ثم أقوم بين الرجاء والخوف فأكبر تكبيراً بتحقيق وأقرأ قراءة بترتيل وأركع ركوعاً بتواضع وأسجد سجوداً بتخشع وأقعد على الورك الأيسر وأفرش ظهر قدمها وأنصب القدم اليمنى على الإبهام وأتبعها الإخلاص ثم لا أدري أقبلت مني أم لا.

أسال الله أن يجعلنا في صلاتنا خاشعين حتى نخرج من الدنيا آمنين مطمئنين.

العبرة والعظات

من قصة يوسف عليه السلام

القصص فكاهة للنفس ورياضة للعقل وتسلية الأحزان وموعظة للعاقل وتذكرة للجاهل وعبرة للغافل وتقويم للفكر وتهذيب للأخلاق والنفوس الإنسانية ميالة بطبعها منجذبة إليه سواء كان حقيقيا أم حديث خرافة والصبية والأحداث يستهويهم القصص ويفرحون بسماعها وهنا تسنح الفرصة لأخذهم بمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب وتنشئتهم على الطبع القويم والذوق السليم بما ينفث في روعهم من لطائف السير المتضمنة حوادث المروءة والشجاعة والعفة وغير ذلك.

والقصص للمدرس والمربي والناصح من ألزم الأمور وأوجبها بل هو سلاحه الماضي وبدونه يكون ضعيف العدة وإلا فبم يدفع السآمة ويجتذب البصائر والأبصار ويملك على السامعين مشاعرهم ووجدانهم ؟

القصص القرآني

والقصص في القرآن الكريم في الذروة العليا من شرف المعنى ومتانة المبنى وحسبك أنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . تقرأ القصة في غير القرآن ثم تقرؤها فيه فإذا البون شاسع وإذا بك تشعر كأنما انتقلت دفعة واحدة من مفازة محرقة إلى روضة أرضية أو كأنما تشرب بعد الصاب العسل بل إنك تقرأ القصة فيخيل إليك كأنك لم تقرأها من قبل وتظل هكذا بين أنس يطالعك وغبطة تناجيك ولذة تتجدد لك لا تحس بسأم ولا ملل وذلك هو معنى قوله تعالى: « **نحن نقص عليك**

أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين »
وفي قصص القرآن ما فيه من تثبيت لقلبه ﷺ وتسلية له عما يلقاه من أذى قريش
« فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم « وكلا نقص
عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى
للمؤمنين »

قصة يوسف

لما كانت قصة يوسف الصديق عليه السلام من أوفى القصص وأمتعها وألصقها بالمسامع والقلوب وأقربها إلى المشاعر كان من توفيق الله سبحانه وتعالى أن قمت بدرس في شهر رمضان المعظم في هذة السنة 1387 هجرية 1967 ميلادية وكان ذلك ما بين صلاة المغرب والعشاء بمسجد جدي الحاج مصطفى حمزة الذي أخطب فيه فأخذ فريق من الشبان والشابات يحضرون هذا الدرس وكان عددهم يتزايد كل ليلة وأخذ المسجد يزدحم بهم وأخذت الموضوعات تتنوع فألقيت عليهم عدة دروس في مواضيع شتى وهي كلها مسجلة في هذا التأليف ثم في العشر الأواخر من رمضان اقترح علي هؤلاء الشبان والشابات النجباء ورغبوا مني أن أجعل موضوع الدرس قصة يوسف عليه السلام فلبيت اقتراحهم وشكرتهم على هذا الاختيار حيث أن هذه القصة شغلت سورة كاملة من التنزيل وامتازت بما تجلى فيها من شتى العواطف ومختلف الغرائز التى تتفق للناس في كل زمان ومكان ولذا كان ميل الناس إليها والأنس بها عظيماً وبذا يمكننا أن نستفيد الفائدة العظيمة إذا تدبرنا معناها ووعينا مغزاها فمنها نستخرج الاستمساك بالعفة من شاب في ريعان الشباب تراوده امرأة العزيز في بيتها وتدعوه لنفسها فيعرض عنها مع ماهي عليه من جمال ومال ورفاهية استمساكاً بمبدإ العفاف والتقوى وإنه لا يرضى أن يخون سيده الذي آواه وأكرم مثواه وأكل من طعامه وشرب من مائه وأحله محل ولده فكيف يخونه في عرضه الذي هو أعز من المال والجوهر والياقوت وفيها نرى عجائب الأقدار وتصاريف الأدهار والعطف الأبوي والحسد

الأخوي والمؤامرة كيف تدبر وسلاح الكذب كيف يشهر كما نرى فيها الصبر الجميل والتسليم للجليل وغلبة الحق على الباطل وعاقبة التقى الكامل وكيف تحول الحال فإذا الأسير أمير على خزائن الأرض وكيف تعقب الشدة الرخاء وكيف يجمع الله الأحباب بعد طول الغياب ومن هنا نعلم أنه لا راد لقضاء الله وأن الناس لو اجتمعوا على أن ينفعوك أو يضروك لم يصبك شيء إلا بإذن الله ولا يخفى الارتباط بين ما لاقاه يوسف ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما ذاك من إخوته وهذا من عشيرته فكما أن إخوة يوسف ساقهم الحسد إلى إيذائه وعداوته كذلك كفار قريش تنكروا للنبي ﷺ وناصبوه العداوة حسداً منهم وبغياً وكما نصر الله يوسف على إخوته نصر الله محمداً على أعدائه نصراً مؤزراً .

القصـــــــــــة

رأى يوسف وهو صغير أحد عشر كوكباً والشمس والقمر سجدت له فذكر ذلك لأبيه ففهم منها يعقوب عليه السلام رفعة شأنه في المستقبل وأن الأحد عشر كوكباً هم إخوته والشمس والقمر أمه وأبوه ومعنى سجودهم له دخولهم في أمره وتواضعهم له ولما قص يوسف رؤياه على أبيه أمره بكتمها عنهم حتى لا يحملهم الحسد على الكيد له وفي ذلك يقول عز وجل : **إذ قال يوسف لأبيه يا أبت اني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين قال يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيداً ان الشيطان للإنسان عدو مبين** » ثم بشره بأن الله سيختصه بالدرجات الرفيعة والمراتب العالية ويعلمه تعبير الرؤيا ويتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب بالنبوة وذلك في قوله : تعالى « **وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ان ربك عليم حكيم** » .

ولما كان يعقوب عليه السلام يحب ابنه يوسف وأخاه بنيامين لأنهما كانا صغيرين ولما يراه في يوسف من دلائل الرشد والنبل لاسيما وقد زاد

حبه له بعد رؤياه الدالة على علو أمره غاظ ذلك إخوته فاجتمعوا وتشاوروا في أمره واستقر قرارهم على قتله أو تغريبه حتى يصفو لهم الجو ويقبل عليهم والدهم فيصلح شأنهم ويعلو أمرهم ثم رجح لديهم الأمر الثاني لنصيحة أحدهم وهو روبيل أو يهوذا حيث قال لإخوته لا تفكروا في قتل يوسف ولكن فكروا في طرحه في أسفل بئر من الآبار التي تمر بها القوافل بالصحراء ليأخذوه إلى بلاد نائية فنستريح منه ونسلم من إثم قتله وهذا هو الذي يحسن بكم فعله إن كنتم عازمين على الخلاص منه وبعض الشر أهون من بعض . وقد صور لنا القرآن الكريم ذلك في قوله : **«اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابات الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين»** ثم أخذوا في تنفيذ ما دبروه بطريق المخادعة والتغرير فاظهروا لأبيهم أنهم يحبون يوسف وطلبوا منه إرساله معهم ليتمتع بالرياضة واللعب لتنشرح نفسه ويطيب قلبه وقد عهدوا بحفظه من كل مكروه فكان جواب يعقوب أنه اعتذر بشيئين حزنه لبعد يوسف عنه وخوفه من الذئب عليه لأن الأرض كانت مذئبة ولما كان العذر الأول سبب إيلامهم ومصدر شكايتهم سكتوا عنه وأجابوا عن الثاني بأن حلفوا لئن حدث ما يخشاه من أكل الذئب ليوسف وهم عشرة رجال أقوياء أنهم إذن لخاسرون مستحقون للهلاك والدمار فسمح لهم يعقوب عليه السلام بذلك والكريم يخدع وفي ذلك يقول الله عز وجل : **« قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون »** وعندما خرجوا به إلى الصحراء قلبوا له ظهر المجن وجعل هذا يضربه وذاك يلطمه ولا مغيث ولا رحيم فقال لهم يهوذا أليس قد أعطيتموني موثقاً ألا تقتلوه فانطلقوا به إلى الجب ونزعوا قميصه ثم أدلوه فيه بحبل فتداركته رحمة الله التي تداركت إبراهيم الخليل عليه السلام حين ألقي في النار وفي ذلك يقول عز وجل :

فاما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابات الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون » وقبل رجوعهم إلى أبيهم أخذوا قميصه ولطخوه بدم شاة ذبحوها ثم جاؤوا أباهم وقت العشاء باكين مولولين فلما سألهم ما خطبهم أجابوا إنا ذهبنا نتسابق تاركين يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمصدق لنا في ذلك ولو كنا صادقين لفرط محبتك ليوسف ولسوء ظنك بنا وفي ذلك يقول الله عز وجل : « **وجاؤوا اباهم عشاء يبكون قالوا يا ابانا انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما انت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين** » .

وهنا فكاهة وهي أن قميص يوسف أتوا به ملطخاً بالدم ولكنهم غفلوا عن تمزيقه ولا يعقل أن ذئباً يأكل إنساناً ولا يمزق قميصه فكانت حيلتهم مفضوحة ولذا قال أبوهم ما رأيت أحلم من هذا الذئب يأكل الجسم ولا يمزق الثوب وهذا دليل على أن الباطل زاهق والعبرة في هذا هي أننا لا نغتر بالظواهر لأجل ذلك اتضح الأمر ليعقوب عليه السلام أن ابنه يوسف لم يأكله الذئب فصبر وفوض الأمر إلى الله تعالى ولذا قال : **بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون** » والصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه ولا جزع ولما أراد الله خلاص يوسف مر رفقة من مدين إلى مصر فأخطأوا الطريق فهبطوا أرضاً فيها جب فأرسلوا وارداً يستقي لهم فلما أدلى دلوه تعلق به يوسف فلما رأى حسنه وجماله فرح وقال يابشراي هذا غلام واتفق هو وأصحابه على إخفائه من بقية الرفقة لينفردوا ببيعه وفي ذلك يقول عز وجل : **وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشراي هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون** » ولما وصلوا إلى مصر باعوه بثمن بخس ناقص عن القيمة لمثله نقصاً فاحشاً وفي ذلك يقول الله تعالى : **وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين** » وقد اشتراه وزير مصر وكان يسمى العزيز .

هذه هي المحنة الأولى التي وقعت ليوسف عليه السلام وسنحدثكم عن محنته الثانية في درسنا المقبل بحول الله .

العبرة والعظات من قصة يوسف عليه السلام

حدثناكم في درسنا السابق عن محنة سيدنا يوسف عليه السلام وكيف أن إخوته لما رجعوا من سفرهم ليلاً دخلوا على أبيهم وهم يبكون وحدثوه أن ما كان يخشاه قد وقع وأن الذئب افترس يوسف وأكله ثم أخرجوا له قميصه ملوثاً بالدم فقال يعقوب ليس الأمر كما تقولون ولكن زينت لكم أنفسكم شراً ففعلتموه وأقام الحجة على كذبهم ونحن نستخلص من حديثهم أشياء :

أولا : أن البكاء قد يكون للخداع والغدر وليس كل باك مظلوم لأجل ذلك يجب علينا أن لا نغتر بالظواهر ، روي أن امرأة تحاكمت إلى شريح القاضي فبكت فقال الشعبي وكان حاضراً : إنها تبكي وهذا دليل على صدقها فقال قد جاء إخوة يوسف يبكون فماذا ترى فسكت .

ثانياً : أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء لأن الأنبياء لا يكذبون .

ثالثاً : أن حبل الباطل قصير وثوب الغش لا يستر فلو فكر إخوة يوسف قليلاً لعرفوا أن الذئب الذي يفترس الإنسان لا يترك القميص سليماً .

هذه هي المحنة الأولى التي وقعت لسيدنا يوسف عليه السلام .

وأما المحنة الثانية فإنه لما بيع بمصر واشتراه العزيز وزير مصر ذهب به إلى زوجته زليخاء وقدمه إليها وأمرها أن تكرم مثواه وفي هذا التعبير ما فيه من المبالغة في الاحتفاء والإكرام لا سيما وقد آمل فيه النفع والصلاح ورجا أن يتخذه ولداً حيث لم يرزق الولد وكانا لا يعلمان بما سبق في

علم الله من أن يوسف يكون ولي الأمر بمصر ويخلف العزيز ويمكن الله له في الأرض ويعطيه العلم والجاه والثروة بعد أن نجاه من كيد إخوته وفي ذلك يقول الله عز وجل : « **وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون** » ، ولكن حدث بعد ذلك أن امرأة العزيز افتتنت به لما رأت فيه من الجمال المفرط وأخذت تداعبه لتنال منه لبانتها وهو يعرض عنها ولكن الإعراض ضاعف هواها فسولت لها نفسها فعل السوء فتجملت كأحسن ما تتجمل عروس ليلة زفافها وحاولت أن تغري يوسف حتى تنال منه وينال منها واستعانت على ذلك بتغليق الأبواب تغليقاً محكماً حتى تطمئن ولا يراهما أحد ثم دعته لنفسها وقد صور لنا القرآن الكريم تلك الحادثة تصويراً آية في البلاغة والإعجاز والدقة في بيان ما طبعت عليه نفس يوسف من العفة والنزاهة فيقول : « **وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك** ». بمعنى أسرع وبادر ويجوز أن تكون إسم فعل خبري بمعنى تهيأت لك وهنا بدأت عظمة يوسف السامية فقال يوسف عليه السلام «**معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون** » استعاذ بالله منه لأنه في ذاته منكر بالغ غاية السوء يتحصن بالله من الوقوع فيه ثم أردف ذلك بعلل أخرى خارجة لعلها تكون رادعا لها مذكراً زوجها وهو سيده الذي اشتراه ورباه وأمرها بإكرام مثواه ومن الجرم والشناعة أن يسيء الإنسان إلى من أحسن إليه في شرفه وعرضه الذي هو أعز الأشياء لديه والعلة الثالثة في الامتناع أن ذلك الفعل من ظلم الإنسان لنفسه ولغيره ولا أفلح من ظلم والأجوبة الثلاثة في غاية الترتيب والإبداع فقوله معاذ الله إشارة إلى حق الله وقوله إنه ربي أحسن مثواي إشارة إلى حقوق العباد وقوله لا يفلح الظالمون إشارة إلى حق الإنسان على نفسه بحفظها من الهلاك ولكن المرأة عزمت عزماً مؤكداً وقدمت لذلك المقدمات ورغماً عن ذلك فلم يحدث منه محرم والمعنى هم بها لولا رؤية البرهان .

والمراد بالبرهان تطهير نفوس الأنبياء من الدنس فامتناع يوسف عليه السلام لم يكن لعدم قدرته على النساء أو لعدم مساعدة من جهة الطبيعة بل لمحض العفة والنزاهة ولأن دلائل دين الله منعته عن ذلك العمل وفي ذلك يقول الله عز وجل « **ولقد همت به وهم بها لو لا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين** » .

هذا ولما أبى يوسف الفعل وهي مصممة عليه أسرع إلى الباب يحاول الخلاص وأسرعت هي وراءه تأخذ عليه الطريق وتمنعه من الخروج فاجتذبته من ورائه فانشق قميصه طولا واستمر يوسف هارباً والمرأة خلفه ففتح الباب فإذا زوجها حاضر يريد الدخول وقد رأى ما رأى فحاولت أن تبري ساحتها أولاً وتلقي الرعب في قلب يوسف حتى يطيعها ثانياً وذلك بقولها « **ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم** » حملها حبها ليوسف على أن تقدم السجن وتؤخر العذاب شفقة عليه ولم تذكر أنه يجب أن يعامل بأحدهما بل ذكرت ذلك ذكراً مطلقاً وقولها إلا أن يسجن يقصد الرأفة أي يسجن مدة ولو أرادت التغليظ لقالت ما قاله فرعون لموسى عليه السلام لأجعلك من المسجونين وأيضاً لم تصرح بأنه قصدها بالفحش بل عبرت بالسوء وهو يشمل الزنا وغيرهما وهنا اضطر يوسف إزاء هذه الجناية الفضيعة التي رمي بها زوراً وبهتاناً أن يدفع عن نفسه هذه التهمة ولم ينس في هذا الموقف الصعب أن يرعى حقوق الأدب فقال « هي راودتني عن نفسي » بذكر ضمير الغيبة ولم يقل على سبيل المواجهة أنت راودتني عن نفسي فلما سمع الوزير قولها أسف واختار من يثق به من أقارب الزوجة للبحث والتحقيق حتى يظهر الحق فلما بحث وحقق وجد الأدلة الكافية قائمة على أن يوسف بريء وأن الزوجة كاذبة والدليل على كذبها أنه وجد قميص يوسف مقطوعاً من وراء لا من أمام فاستدل بذلك على أنه كان يهرب منها وأنها كانت تعدو خلفه لتمنعه من الهرب والخروج فقطع قميصه وهذا هو المفهوم من قوله تعالى : « **وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين**

وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم » أي أن هذه الفتنة من كيد النساء ومكرهن وحيلهن ثم قال مخاطباً الزوجة « **إن كيدكن عظيم** »

وبعد أن استقر رأيه على ذلك واطمأن قلبه للحق الذى استخلصه جمع يوسف والزوجة على انفراد وقال ليوسف في رفق ولين « **يوسف اعرض عن هذا** » أي اكتم هذا الخبر ولا تفشيه لأحد من الناس ثم قال للزوجة « **واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين** » أي استغفري ربك مما فعلت وقلت واعتذري لزوجك عسى أن يغفر لك هذه الزلة مما فعلت لأنك خاطئة ولما كان المحقق والحكم من أقارب الزوجة وهو بطبيعة الحال يعطف عليها ويلتمس لها المعاذير ليخفف عن زوجها وقع جرمها قال إنك كنت من الخاطئين ولم يقل من الخاطئات كأنه يريد أن يقول : إن الخطأ الذي وقع منك يقع في مثله الرجال فضلاً عن النساء ، وقد جاء في القصص أن يوسف عليه السلام بكى حين رأى الزوج وأغمي عليه وبعد أن أفاق وعلم أنهم كلفوا قريباً للزوجة للتحقيق في أمره خاف أن يدلس هذا القريب ولا يقول الحقيقة فأكثر من الضراعة إلى الله عسى أن يلطف به فيما جرت به المقادير وها هو لسان الشعر يترجم ما قاله يوسف الصديق حين اعتراه الهم والضيق :

إليك مددت الكف في كل شـدة
ومنك وجدت اللطف من كل جانب
فحقق رجائي فيك يا ربي واكفنـي
شماتة خب أو إساءة صاحـب
ويا محسنـاً فيمـا مضى أنت قـادر
على اللطف فارحمني وأحسن عواقبي

وتسربت الإشـاعات في المدينة وكثرت الأقاويل وملأت المجالس والأندية ولا سيما نساء الكبراء والأمراء فكن في حديثهن ينكرن على امرأة العزيز ويعبن ما فعلت ويستقبحن منها أن تراود خادمها عن نفسه وأن تحبه

حباً جماً يصل إلى شغاف قلبها ثم يلقين الذنب والتبعة عليها وحدها ويرين فعلها من الضلال الواضح وفي ذلك يقول الله عز وجل « **وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها في ضلال مبين**»

ولما علمت امرأة العزيز بما يخوض فيه نساء الأكابر بمصر من الحديث في شأنها دبرت لذلك أمراً ودعتهن إلى وليمة عندها وغداء في قصرها واتخذت ما لا بد منه فيها من أرائك ونمارق وأحضرت أنواع الطعام الذي يليق بمقامهن وقدمت لهن أنواع الفاكهة من تفاح وبرتقال وغيرهما وأعدت السكاكين لتقشيرها ثم كانت المفاجأة بأن أطلعت عليهن يوسف في شرخ شبابه وفتنة جماله فلما رأينه وأبصرن جماله الفائق دهشن وذهلن عما في أيديهن من فاكهة وسكين ورحن بلا وعي يقطعن أيديهن وقلن « **حاش لله ما هذا بشراً ان هذا الا ملك كريم** » ولما رأت امرأة العزيز ما جرى لهن من جرح أيديهن ارتاحت نفسها لما أصابهن وأخذتها نشوة الانتصار فقالت : هذا هو الفتى صاحب الجمال البارع الذي وجهتن اللوم الشديد إلي بسببه وقد سبى عقولكن برؤيته ومشاهدته مرة واحدة فكيف لي وأنا أراه كل لحظة وأسمع صوته ولفظه في كل حين ثم أقرت أنه حصل لها كما حصل لهن ففتنت به وراودته عن نفسه فاستعصم وامتنع وإن لم يفعل ما آمره ليذوقن وحشة السجن وعذابه وليكونن من المهانين فيه .

ولما سمع النساء ما توعدت به امرأة العزيز بسجن يوسف إن لم يجبها إلى غرضها قلن لها لا لوم عليك فيما فعلت فنحن جميعاً قد أصبحن له محبات ولجماله عاشقات ثم اتجهن نحو يوسف وأخذن يخدعنه ويحسن له طاعتها ويسهلن عليه الأمر ومثل هذا لا يصدر من كل النساء وإنما يقبل العقل أن يقع من صواحباتها المختصات بها .وفي ذلك يقول الله عز وجل « **فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت آخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم قالت فذلكن الذى لمتنني فيه**

ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين » .

ولما توعدت امرأة العزيز يوسف بالسجن ان لم يجبها إلى ما تطلب وأخذت صواحباتها في غوايته وتزيين هذه الطاعة له ابتهل يوسف إلى الله عز وجل أن يصرف عنه هذه المحنه وتبرأ من حوله وقوته واعترف بأنه إن لم تدركه رحمة الله وقع فيما يخشاه وكان من الجهال وفي ذلك يقول الله عز وجل : **رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هوالسميع العليم »**

ولما يئست امرأة العزيز من موافقة يوسف شكت لزوجها وقالت له : إن هذا الفتى قد فضحني بين الناس فلا بد من معاقبته ورغماً مما رآه العزيز من الآيات الدالة على عفته وإجرام زوجته بدا له أنه لا يخلصه من العار الذى لحقه ولحق زوجته إلا زج يوسف في السجن ليعتقد الناس أنه ما حبس إلا لأنه آثم كاذب في ادعائه البراءة وهذا مصداق قوله تعالى : **« ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين »**

إلى هنا ننهي القول وسنتابع بقية هذه القصة في درسنا المقبل **بحول الله**

تقدم لنا في الدرس السابق أن العزيز وامرأته زليخاء وبقية أسرتهما ظهرت لهم الدلائل الكافية على براءة يوسف عليه السلام ولكن رغماً عن ذلك أمروا بسجن يوسف مدة من الزمن ليوهموا الناس أن يوسف هو الذي أخطأ وراود امرأة سيده عن نفسها وقد سجن يوسف مع المجرمين وسجن معه في وقت واحد ومكان واحد شابان من خدم الملك أحدهما خادم مائدته والآخر خادم شرابه وكانا قد اتهما بالخيانة العظمى وهي دس السم في الطعام والشراب وفي ذات يوم أخبره الفتيان بأن كلا منهما رأى مناماً وهو يخشى عاقبته فقال أحدهما وهو خادم الشراب إنه رأى أنه يعصر العنب ليتخذ

منه خمراً على حسب ما اعتاده مع الملك وقال الآخر وهو خادم الطعام إنه رأى أنه يحمل على رأسه سلة فيها خبز تأكل الطير منه ثم سألاه أن يفسر لهما هذه المنامة لأنهما رأيا فيه ما شهداه من الصلاح والتقوى وتخفيف ويلات المسجونين وتعليمهم وإدخال السرور عليهم بما يقصه من لطف الله وفرجه وسعة رحمته وما يؤول لهم مما يرونه من الأحلام وتبشيرهم بما يسر ويكشف عنهم بعض الضر وكان له أسلوب بديع وطريق رفيع في تعليم الناس ونصحهم ووجد يوسف فرصة طيبة لدعوته حينما جاءه هذان الفتيان يستفتيانه فأراد أن يخبرهما بأنه يستطيع أن يعرف أنواع الطعام الذي يأتيهما من خارج السجن أي طعام هو ؟ وأي لون هو ؟ فكانا يجدانه كما أخبرهما ثم أعلمهما أن هذا العلم مما علمني ربي وأنا لا اتبع ملة الناس الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وإنما أتبع ملة آبائي أن لا نشرك مع الله غيره . ثم أخبر أن الايمان ونبذ الشرك من توفيق الله وفضله الذي يستوجب الشكر ولكن أكثر الناس لا يشكرون فضل الله عليهم وفي ذلك يقول الله عز وجل : « **ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون .**

وبعد أن ذكر ما هو عليه من الدين الحنيف تلطف في حسن الاستدلال على فساد الدين الذي عليه قوم الفتيين من عبادة الأصنام ولذلك ناداهما بلفظ الصحبة في السجن الذي يتبرأ الصاحب من صاحبه فيه وقد أقام الحجة على بطلان ملة قومهما بجعله الكلام على صورة الاستفهام فقال : أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، لكيلا تنفر طباعهما من المفاجأة بالدليل في صورة الإخبار وما أنجع هذا الطريق في هداية الجهلاء وقد اختار وصف الله

بالواحد القهار لينبههما أن يفكرا قليلا أيهما أقرب إلى العقل ؟أأن نعبد آلهة متعددة لا تملك ضراً ولا نفعاً وقد نصنعهـا بيدنا من حجر منحوت أو خشب منجور أو غير ذلك أم نعبد إلهاً واحداً في صفاته وأفعاله قادر قهار مريد عزيز ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ثم أردف ذلك بإخبارهما بأن الذي يدعوهما إليه من توحيد الله وإخلاص العمل له هو الدين المستقيم الذى لا عوج فيه ولكن كثيراً من الناس غلبت عليهم الجهالة والشقاوة بتأثرهم بكلام المرجفين الملحدين وفي ذلك يقول الله عز وجل : « **يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** » .

وبعد أن أتم من نصحهما وإرشادهما ناداهما مرة أخرى ليقبلا عليه لسماع التأويل فقال : يا صاحبي أما أحدكما فيعود إلى ما كان عليه من العمل ويسقي سيده وهو الملك والمراد الخمر وأما الآخر فيصلب فتأكل الطيرّ من رأسه وقد أبهم الأمر ولم يعين الناجي والهالك وإن كان التأويل يعين لأنه شاء ألا يحزن الهالك ويغمه ثم أردف ذلك بإخبارهما أن القضاء الإلهي جرى بذلك فلا مفر منه ولما أيقن يوسف أن أحدهما وهو الساقي ستظهر براءته ويعود إلى خدمة الملك أوصاه أن يذكر اسم يوسف عند سيده ومليكه ويخبره بقصته وما كان له معه لعله يأمر بإخراجه من السجن وليس مثل هذا محظوراً على الأنبياء فقد قال عيسى عليه السلام : من أنصاري إلى الله » وكان الرسول ﷺ يسأل الصحابة أن يحرسوه ولكن أنسى الشيطان الساقي أن يذكر يوسف لسيده من أجل ذلك مكث يوسف في السجن بضع سنين والبضع ما بين الثلاث والتسع فسبحان من لا راد لقضائه وإن كان على أنبيائه وأوليائه وهو القاهر فوق عباده وهو اللطيف الخبير وفي ذلك يقول الله عز وجل « **يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل االطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان وقال**

للذى ظن أنه ناج منهما آذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين » .

وفي ذات يوم رأى ملك مصر في منامه رؤيا أزعجته وحيرته فأحضر كبار رجال دولته وجمع الأشراف والكهنة من قومه وأخذ يقص عليهم رؤياه فقال إني رأيت في منامي سبع بقرات سمينات تهجم عليها سبع بقرات مهزولات وتأكلها ثم رأيت سبع سنبلات خضر وسبع سنبلات يابسات عدت على السنابل الخضر فأكلتها ثم طلب منهم أن يشرحوا له هذه الرؤيا فعجزوا عن تأويلها وقالوا ما هي إلا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعارفين وكان ساقي الملك يشاهد هذا الاجتماع فتذكر ما كان من يوسف في السجن معه من تفسير رؤياه وما كان أوصاه به من ذكره عند سيده فتقدم من الملك ومن الملإ من قومه وقال أنا أدلكم على من يستطيع أن يفسر هذه الرؤيا وهو الآن في السجن فارسلوا بي إليه وذلك مصداق قوله عز وجل :« **وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملا أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فارسلون** »

قال الملك اذهب إليه واستفته وذهب الساقي إلى يوسف في سجنه وقص عليه رؤيا الملك وقال له : يا يوسف فسر لنا هذا الحلم الذى رآه الملك فقال يوسف سيأتي على مصر سبع سنين مخصبات وتجود الأرض فيها بالخيرات من قمح وشعير وفاكهة ثم سبع سنين كلها قحط وجدب تأتي على كل ما ادخرتم في سنوات الرخاء وبعد السبع الثانية يكشف الله الضر عنكم وتأتي سنة خضراء طيبة فيها المطر ويجري النيل ويجود الزرع وتكثر الغلة وعاد رئيس السقاة إلى الملك وأخبره بما قال يوسف فأراد الملك أن يسمع الحديث من فم يوسف فأمر بإحضاره إليه فذهب الرسول لإحضاره ومعه أمر الملك وجاء الرسول إلى يوسف فبلغه أمر سيده بإخراجه من السجن ولكن يوسف أبى

أن يخرج وقال للرسول ارجع لسيدك واسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن واطلب منه إعادة التحقيق في أمرهن معي فإني لا أحب أن أخرج من السجن إلاّ ومعي براءتي وربي عليم بمكر هؤلاء النسوة فصانني فرجع الرسول إلى سيده وبلغه رسالة يوسف فلم يتردد في تحقيق ما طلب يوسف فدعا النسوة وسألهن ما حقيقة ما ذاع من أنكن راودتن يوسف عن نفسه ؟ قال النسوة : معاذ الله ما علمنا أن يوسف ارتكب فاحشة أبداً فقالت امرأة العزيز : الآن وضح الحق وبان أنا التي راودته عن نفسه فاستعصم وأعرض عني وأؤكد لكم أنه صادق في كل ما قال وإني لأشهد على صدقه في غيبته وهو لم يراودني عن نفسي وقد كدت له واتهمته وسجنته والنفس البشرية تأمر صاحبها بالسوء وتغريه به إلا نفساً خاصة منّ الله عليها وعصمها من الشر وهذا أمر مقرر لأن الله من شأنه أن يغفر ويرحم وهو أرحم الراحمين وذلك مصداق قوله عز وجل :« **يوسف أيها الصديق افتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يا بسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه فى سنبله إلاّ قليلا مما تأكلون ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون وقال الملك ائتونى به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيدهن إن ربى بكيدهن عليم قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وإن الله لا يهدي كيد الخائنين وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربى إن ربي غفور رحيم** »

هذا ولما ظهرت براءة يوسف وعفته وصدقه وأمانته قال الملك ائتوني به من السجن ولما مثل بين يديه أثنى عليه وعلى طهارته وأمانته وقال له إني قد وكلت إليك أمر البلاد لتعمل على رخائها وجعلتك أميناً على شؤون

الأمة والمفهوم من السياق أن الملك خير يوسف بين بعض أعمال المملكة بدليل قوله استخلصه لنفسي فاختار يوسف أن يكون مدبراً للأقوات لأنه عرف من طريق الوحي والإلهام أنه يستطيع أن ينفع أهل مصر وسواهم من الأمم المجاورة في زمان المجاعة والشدة وقد أخبر الله أنه مكن يوسف في أرض مصر وجعل له في نفس الملك مكانة ومنزلة فصار يتحول في بقاعها كما يشاء.

وقد جاء في الأخبار أن العزيز مات بعد خروج يوسف من السجن فرأى الملك أن يزوج يوسف من امرأة العزيز فلبى يوسف رغبة الملك وأطاعه فيما أمر فلما بنى بها ودخل عليها ذكرها بما كان منها وقال : أليس هذا الذي صرنا إليه خيراً مما كنت تريدين ؟

فقالت له : لا تلمني فإني كنت امرأة حسناء في فراغ وشباب والعزيز لا يعفف امرأة وقد رزق منها بولدين والله أعلم .

وقد أخبر الله أن الأمور كلها معلقة بمشيئته وأن يوسف كان من المحسنين في فعله وقوله فقد راودته المرأة فأبى واتهمته فما اعتدى وحبس ظلماً وما جنى وأن الأجر الذي أعده في الآخرة ليوسف ولأمثاله من الذين آمنوا وآثروا رضوان ربهم على ما عداه خير وأعظم من الدنيا وما فيها لأن خير الآخرة خالص مما يكدره ودائم لا ينتهي وذلك مصداق قوله عز وجل : **« وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون »**

إلى هنا ننهي القول وسنتابع بقية هذه القصة في درسنا المقبل بحول الله وقوته

العبرة والعظات من قصة يوسف عليه السلام

لازلنا بصدد الحديث عن قصة يوسف عليه السلام وقد علمنا من الدرس السابق أن ملك مصر فوض ليوسف إدارة الملك بعد أن رأى مبلغ إصلاحه وعفته وأمانته ومضت الأعوام المخصبة ثم تلاها الجدب والقحط وعم ذلك الأرجاء وشمل كثيراً من بقاع الأرض فكان من جملة من جاء إلى مصر لشراء الطعام إخوة يوسف كما أمرهم أبوهم يعقوب وقد خرجوا من ديارهم إلى مصر ومعهم بضاعة من صنعهم في قطرهم يتعاوضون بها حباً وطعاماً من القطر المصري فلما دخلوا على يوسف وهو في أبهته وسيادته عرفهم حين نظر إليهم وهم ما عرفوه فسألهم من هم وما الذي أقدمهم ؟ فقالوا نحن أولاد يعقوب نبي الله ببلاد كنعان وقد قدمنا لطلب الطعام فقال هل لأبيكم ولد غيركم ؟ قالوا نعم كنا اثنى عشر فهلك أحدنا بالصحراء وبقي شقيقه لكن أباه أبقاه عنده ليتسلى به في غيبتنا عنه فلما سمع يوسف قولهم أمر بإكرامهم والإحسان إليهم في الضيافة ثم أمر أن يعطوا ما طلبوا ثم زادهم حمل بعيرين على أن يكون أحدهما لأبيهم والثاني لأخيهم ثم قال لهم : إذا جئتم للميرة مرة أخرى فلا بد من مجيء أخيكم معكم حتى أعلم صدقكم فإن لم تأتوني به منعت الطعام عنكم وخير لكم حينئذ ألا تجيؤوا لأنكم لا تأخذون شيئاً فأجابوه بالسمع والطاعة وقالوا إنهم سيحرصون على مجيئه معهم وقال لخدمه اجعلوا بضاعتهم التي جاؤوا بها ليأخذوا بدلاً منها طعاماً في رحالهم أي في أمتعتهم لعلهم بعد رجوعهم إلى أبيهم يعترفون لنا بما كان منا من كرم وسخاء فيحملهم ذلك على العودة إلينا وذلك مصداق

قوله عز وجل : « **وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفي الكيل وإنا خير المنزلين فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون وقال لفتيته اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون** » .

ولما رجعوا إلى بلادهم حدثوا أباهم بما كان من أمرهم بمصر فقالوا إنا قدمنا على رجل أكرمنا غاية الإكرام ولكنه منع منا الكيل بعد ذلك إذا لم نحضر معنا أخانا بنيامين فارسل معنا أخانا ولا تخف فإننا سنبذل جهدنا في المحافظة عليه فلما سمع أبوهم ما قالوه قال كيف آمنكم عليه ؟ ثم رجع فاستسلم لما رأى المصلحة في إرساله وفوض الأمر في حفظه إلى الله .

كل هذا قد جرى قبل أن يفتحوا متاعهم ولما فتحوه وجدوا بضاعتهم ردت إليهم في طي أمتعتهم ففرحوا وقالوا يا أبانا أي شيء نبغيه من الإكرام وراء هذا بعد أن رد الرجل بضاعتنا وأعطانا الطعام بلا ثمن ؟ فلما رأى يعقوب وجه الحق بادياً في قولهم قال لا أرسل أخاكم معكم إلا إذا أقسمتم لي بالله أن تأتوا به معكم إلا إذا حدث شيء لا علم لنا به فأقسموا وأتوه موثقهم فقال يعقوب إن الله شاهد على قولنا ويميننا وذلك مصداق قوله عز وجل : « **فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا ياأبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير قال لن أرسله معكم حتي تؤتون موثقاً من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل** » .

ومرت الأيام وزاد القحط فعزموا على السفر ومعهم « بنيامين » وقبل سفرهم جمعهم أبوهم وقال لهم : لا تدخلوا دار عظيم مصر من باب واحد بل ادخلوا من أبواب لئلا يحسدكم الناس وما أريد بذلك أن أدفع قضاء الله

عنكم لأن ذلك ليس في وسع مخلوق والأمر كله لله عليه توكلت وعليه وحده يتوكل المتوكلون :

وفي ذلك يقول الله عز وجل « **وقال يابنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون** » .

وعند وصولهم إلى مصر دخلوا من أبواب متعددة كما أمرهم أبوهم ولما دخلوا على يوسف قالوا له هذا أخونا الذي أمرتنا أن نجيء به فقال أحسنتم وأمر بإكرامهم وضيافتهم ولما جلس يوسف مع أخيه « بنيامين » أخذ يسأله عن أسرته فأفضى إليه بكل ما يعلم فقال له يوسف ألا تحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك فقال « بنيامين » ومن الذي يجد أخاً مثلك فأخبره بحقيقة الأمر وأنه هو أخوه وقص عليه ما جرى له وأمره بكتمان الخبر على إخوته وأضاف إلى ذلك أنه سيحتال في إبقائه عنده حتى يتم التدبير في إحضار أبيهم وعيالهم ثم إن يوسف بعد أيام أمر أن يكال لهم الطعام وطلب من غلمانه أن يجعلوا الصاع الذي يكيلون به لهم في متاع « بنيامين » ..

وبعد أن شدوا رحالهم وساروا ناداهم المنادي أيها القوم قفوا فإنكم سارقون فأقبل إخوة يوسف على المنادي وقالوا له ما تفقدون ؟ فقيل لهم إن الصاع الذي كنا نكيل به لكم قد فقد ثم أمرهم المنادي أن يحطوا رحالهم ليبحثوها ووعد من يجيء به منهم حمل بعير من الحب وتكفل بذلك وفي ذلك يقول الله عز وجل : « **فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم** » .

ولما سمع إخوة يوسف النداء قال قائلهم . والله ما كنا ممن يعيث في الأرض فساداً وما جئنا أرض مصر لنسرق فقال المكلفون بندائهم وتفتيش متاعهم : ما جزاؤكم إن كنتم كاذبين وظهر الصاع في متاعكم وبعد التفتيش ظهر الصاع بوعاء أخيهم فاستخرجوه منه كذلك كان قدر الله أن يكيد يوسف

لإخوته بعد أن صار حاكم مصر كما كادوا له كيداً وهو صغير وأن ينطق الإخوة بالحكم على أخيهم « بنيامين » بأن يؤخذ عبداً رقيقاً في دين الوزير ولله تعالى أن يرفع درجات بعض الناس بعضهم على بعض فقد شاء أن يرفع يوسف فوق إخوته درجات فيكون حاكماً ومالكاً ومتصرفاً بعد أن سامه إخوته الخسف وأذاقوه العذاب وجعلوه مملوكاً يباع ويشرى وذلك مصداق قوله عز وجل : « **قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وماكنا سارقين قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم** »

ولما رأى إخوة يوسف الصاع أخرج من وعاء أخيهم « بنيامين » طاش عقلهم وتنصلوا من التبعة و« قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل-يعنون يوسف-وسمعهم يوسف فأسرها في نفسه ولم يبدها لهم وقال أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون » والمعني هم أقل مكانة عند الله ممن رموه بالسرقة ويوسف لم يسرق ولكن جاء في القصص أنه لما ماتت أم يوسف « راحيل » وهو صغير حضنته خالته ثم جاء يعقوب بعد مدة ليأخذه منها فدست له خالته في ثيابه شيئاً من حليها ثم استرجعته فبقي بحكم الشريعة عندها حتى ماتت ثم أخذه بعد ذلك أبوه .

هذا ولما أمر يوسف بعزل « بنيامين » عن إخوته أخذوا يستعطفونه ويذكرون حال أبيهم وأنه شيخ كبير كثير البكاء على ابنه الذي هلك في الصحراء وتضرعوا إليه أن يأخذ واحداً منهم بدلا عنه رحمة بأبيهم وجرياً على مقتضى إحسانه إليهم وإكرامه لهم فقال يوسف : نعوذ بالله أن نظلم فنأخذ أحداً غير من وجدنا حاجتنا عنده وما كان يليق بنا أن نأخذ بريئاً بمذنب وفي ذلك يقول الله عز وجل « **قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون قالوا**

يأيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذاً لظالمون » .

ولما يئس إخوة يوسف من أخذ أخيهم تشاوروا فيما بينهم فقال كبيرهم وهو « شمعون » أو يهودا ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم عهد الله أن تردوا ولده إليه وأنكم فرطتم في وصيته لكم بالمحافظة على يوسف قبل هذا العهد؟ وقال لا أفارق أرض مصر حتى يدعوني أبي ويأذن لي الله بالرجوع على أي حال وهو أعدل من حكم. ثم قال لهم ارجعوا إلى أبيكم فأخبروه بما وقع من سرقة ابنه وبأنكم شاهدتم إخراج الصاع وقولوا له : لو كنا نعلم أن ابنك يقترف هذا الذنب ما أخذناه معنا لكنا لا نعلم الغيب ثم اطلبوا منه أن يسأل الناس الذين حضروا إلى مصر معكم وعلموا بالخبر أو يبعث برسالة إلى من يشاء من أهل مصر من تجارها وأهلها فيسألهم حتى يتبين له صدقكم ويتحقق مما جرى من ابنه من السرقة وفي ذلك يقول الله عز وجل: « **فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون** ».

رجع إخوة يوسف إلى أبيهم وتخلف « بنيامين » وأخوهم الأكبر فأخبروا أباهم بما كان من أمر أخيهم وما جرى له في مسألة الصاع فلما سمع أبوهم ما حدثوه به لم يصدقهم وظن أنهم فعلوا مع « بنيامين » كما فعلوا مع يوسف وقد ترجى من الله أن يجمعه بهم كلهم ويردهم عليه ووصف الله بما هو أهله من العلم والحكمة وفوض أمره إليه لأنه هو العليم بحقيقة ما جرى ومما يدل على شدة حزن يعقوب أنه أعرض عن أبنائه بعد رجوعهم وتأوه في عزلته وقال : « يا أسفي على يوسف » وابيضت عيناه من الحزن فهو كضيم ولعل بياض عيني يعقوب من الحزن معناه ضعف البصر بسبب البكاء الكثير الناشيء

عن شدة الحزن وقد عاب بعض الجاهلين يعقوب على قوله يا أسفي على يوسف وعلى بكائه حتى ضعف بصره وظن ذلك الجاهل أن هذا كان عن جزع وعدم صبر والجواب على ذلك أن هذا الذي كان من يعقوب لم يكن عن جزع وإنما كان عن رحمة ملأت قلبه ويكفي في بيان ذلك قوله « فصبر جميل » والصبر الجميل معناه صبر ليس معه شكوى وفي ذلك يقول الله عز وجل : « **قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم وتولي عنهم وقال يا أسفى علي يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم** » .

ولما رأى أولاده بكاء والدهم وشدة حزنه قالوا إنك لا تزال تذكر يوسف وتحزن عليه حتى تكون ضعيفاً جسماً وعقلا أو تهلك دونه وهذا القول صدر منهم عن شفقة عليه ورفق به ومرادهم أنه لو استمر به هذا الحال خافوا عليه الهلاك والتلف والموت ولعل مراده من الحزن أن البكاء والشكوى إلى الله خير من الحزن مع الصمت لأن الحزن يهلك والبكاء يخفف ويطفيء لهيب القلب وإذا كان البكاء رحمة لا عن جزع فلا إثم عليه بل تكون عاقبة النحيب الفرج القريب وفي ذلك يقول الله عز وجل « **قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون** » .

ثم إن يعقوب قال لأولاده اذهبوا إلى الموضع الذى جئتم منه وابحثوا عن يوسف وعن أخيه ولا تقنطوا من رحمة الله فإن القنوط دأب الكافرين فعملوا بوصية أبيهم وخرجوا من ديارهم ورجعوا إلى مصر ودخلوا على يوسف طالبين طعاماً وقدموا من بضاعتهم المزجاة أي القليلة الحقيرة وقالوا له يا أيها العزيز نطلب منك أن تعطينا الطعام كما أعطيتنا من قبل وأن تجعل ذلك صدقة علينا لان بضاعتنا التي أحضرناها لا تستحق الذكر وفي ذلك يقول الله عز وجل « **يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز**

مسنا وأهلنـا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فاوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين » .

ولما سمع يوسف من إخوته بما أصابهم من الضيق وقلة الطعام رق قلبه وأخذته الرحمة بأبيه والشفقة عليه فغلبته عيناه وذرفتا الدمع ورأى أن يكشف أمره إليهم فقال لهم هل تذكرون ما فعلتم بيوسف وأخيه وأنتم معذورون بالجهل وطيش الشباب ولم تفكروا فيعاقبة ذلك فلما خاطبهم بهذا الخطاب قالوا له على سبيل الاستفهام : أئنك لأنت يوسف ؟ فأجابهم : أنا يوسف وهذا أخي ونحمد الله أن جمعني بكم ثم بين سبب الإنعام الإلهي وهو التقوى والصبر على المكروه وفي ذلك يقول الله عز وجل « **قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون قالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » .**

ولما سمعوا مقال يوسف وعتابه عليهم والتماسه العذر لهم قالوا معتذرين والله لقد فضلك الله علينا بالنبوة والملك وحسن الخلق ثم اعترفوا بالخطإ فقالوا ما كنا إلا خاطئين فيما فعلنا فأجابهم يوسف بقوله لا لوم عليكم اليوم ولا عقوبة ثم دعا لهم بالمغفرة وإن الله يقبل الدعاء ويغفر الذنوب وهو أرحم الراحمين وفي ذلك يقول الله عز وجل « **قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ».**

ثم إن يوسف أعطاهم قميصاً من ملبوسه وأمرهم أن يذهبوا إلى أبيهم فيقصوا عليه خبر يوسف وإخوته ويعطوه القميص لأن فيه علامة يعرفها يعقوب ويوسف دون غيرهما وقد أخبرهم أن أباهم يعقوب سيذهب عنه ضعفه الجسماني ويرحل همه فيرى كما كان يرى من قبل ثم أمرهم أن يأتوا بأهلهم أجمعين إلى مصر للإقامة فيها ولما خرجت القافلة من مصر إلى بلاد كنعان وفيها إخوة يوسف ومعهم القميص الذي بعث به إلى أبيه رمزاً إلى

أنه لا يزال حياً ولما صارت القافلة على بعد ثلاث أميال قال يعقوب لبعض أسرته إني أشم رائحة يوسف ولولا خوفي من أن يسفهوني لأخبرتكم بأن يوسف حي يرزق وبأننا سنجتمع قريباً فقال له أولاده وأحفاده والله إنك لفي ضلالك القديم بسبب يوسف وحبه الذي أورثك الشقاء والعناء ؟

وبعد أيام وصلت القافلة ودخل بعض أولاده عليه ومعه قميص يوسف فألقاه على وجهه وقصوا عليه قصصه ففرح وزال كربه وهمه وعافاه الله من العلل والأمراض ثم رجع بصيراً كما كان وعند ذلك قال لهم ألم أقل لكم يابني إني أعلم أنه سيرد علي يوسف ويجمع بيني وبينه والظاهر أن هذا العتاب كان في محفل يجمع أبناءه وأحفاده فتذكروا جميعاً ما كان من خطئهم في معاملة أبيهم فقالوا يا أبانا اطلب لنا ربك أن يغفر لنا ذنوبنا التي أذنبناها في حقك وحق يوسف قال يعقوب سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الذي يغفر الذنب وفي ذلك يقول الله عز وجل : « **اذهبوا بقميصي هذا فالقوه على وجه أبى يأت بصيراً واتونى بأهلكم أجمعين ولما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم** » .

« **فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم** » .

ثم أمرهم بإعداد العدة للرحيل إلى مصر للقاء يوسف وأخيه فكان شأنه عليه السلام وشأن أولاده كما قال القائل :

تعالوا بنا نطوي الحديث الذي جرى فلا شعر الواشي بذاك ولادرى
تعالوا بنا نعود إلى الرضاء وحتى كأن الحب لم يتغيرى
ولا نذكر الماضي الذي كان بيننا على أنه ما كان ذنباً فيغفرى

إلى هنا ننهي القول وسنتابع بقية هذه القصة في درسنا المقبل بحول الله .

العبرة والعظات من قصة يوسف عليه السلام

هذا آخر درس في قصة يوسف عليه السلام وقد تقدم لنا في الدرس السابق أن يعقوب عليه السلام أمر أولاده وأحفاده وبقية أسرته بالرحيل إلى مصر للقاء يوسف ولما وصلوا إلى مصر تلقاهم يوسف بالترحيب والتكريم فعانق أباه وخالته لأن أمه قد ماتت وهو صغير والخالة مثل الأم ثم قال لهم على سبيل الاحترام وإدخال السرور عليهم ادخلوا مصر وأقيموا فيها آمنين إن شاء الله من كل شيء وبعد ذلك أجلس أبويه على العرش فخروا له سجدا أبوه وخالته وإخوته «الأحد عشر» سجود تحية لا سجود عبادة كما كان الناس يفعلون عندما يمثلون بين الملوك في ذلك العصر وبعد أن استقر بهم المقام أخذ يوسف يتحدث إليهم فيما كان من شأنه وما رآه من الرؤيا وهو صغير وكيف كان الوصول إلى تحقيقها في الكبر وقد ذكر في حديثه أن الله لطف به وأخرجه من السجن الذي سيق إليه ظلماً لكنه عليه السلام لم يذكر مسالة إخراجه من الجب تناسياً لما جرى من إخوته بعد أن عفا عنهم وشكر الله على ظهور طهارته وعفته وبراءته مما اتهم به . وقد أظهر فرحه بقدومهم عليه من البدو يعني من البادية ونسب ما جرى من الإخوة إلى الشيطان ولم يعين المسيء ولا المساء إليه ثم شكر الله أن جمع بينه وبين أسرته مع الألفة والمحبة وطيب العيش وإن هذا الجمع بينه وبين أسرته ما كان في حسبان أحد منهم إلا أن الله تعالى لطيف فإذا أراد شيئاً هيأ له الأسباب فصار في حيز الإمكان ثم قال له كن فكان وفي ذلك يقول الله عز وجل : **«فلما دخلوا على يوسف**

آوى إليه أبويه وقال آدخلوا مصر إن شاء الله آمنين ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » .

ثم إن يوسف بعد ما جمع الله له أبويه وإخوته ومكنه في الأرض يتصرف فيها كيفما شاء وعلمه من لدنه علماً لم يكن لسواه من الأحياء أخذ يثني على ربه بما تفضل به عليه وعلى عباده من خلق السماوات والأرض ثم عاد فسأله أن يجعله إذا حان أجله ممن يموتون آمنين مطمئنين ويلحقون بالشهداء والمرسلين وفي ذلك يقول الله عز وجل : « **رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين** » .

روى أهل الأخبار أن يعقوب قام مع يوسف وبين أولاده وأحفاده بمصر حتى مرض وعلم أنه مقبوض إلى الله في مرضه فأوصى ابنه يوسف أن يدفنه في الأرض المقدسة مع آبائه وأجداده ففعل يوسف كما أوصى يعقوب أما يوسف فمات في مصر ودفن في صندوق من المرمر بشاطىء النيل فسبحان من يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وسبحان من آختص بالبقاء دون عباده وإن كانوا من النبيين والمرسلين ورحمة الله على القائل :

لا تطغينك قوة أوتيتها ... واعلم بأنك عاجز محكوم

وانظر بعقلك في الوجود فإنه ... يا ذا البصيرة مصحف مرقوم

لا شيء يبقى بعد ربك إنه ... رب العباد الواحد القيوم

وهو الذي لا ينقضي سلطانه ... وله الثنا والمجد والتعظيم

صلى الإله على النبي وآله ... ما سار في جو السماء نجوم

العبرة من قصة يوسف عليه السلام

هذه القصة عبرة وعظة بالغة ومورد غزير المادة لمن يريد أن يستنبط الأخلاق الفاضلة وموضع درس عميق في علم النفس وهي بما تخللها

من حوادث مرتبة يرتبط أولها بآخرها ويدل أدناها على أقصاها وبما ظهر فيها من التنازع على البقاء وحب الأثرة وإرضاء الشهوة وتنازع الحق والباطل وظلم الإنسان أخاه تشبه أن تكون قطعة من الحياة أو صورة للحياة وإن شئت قل إنها رواية مثلت على مسرح الوجود ابتدأت بمأساة محزنة وانتهت بغاية سارة مبتهجة كما كان بطلها يوسف الصديق عليه السلام ففيها نرى أن يوسف قد شب على أكمل الأوصاف وأروع الخصال والفضل في ذلك يرجع إلى أبويه حيث ربياه على التقوى وتعهداه بمكارم الأخلاق فنشأ أصلح نشأة وأحس من صغره بمجد آبائه وأجداده وأبوه يذكره بأولئكم الآباء الصالحين المصطفين الأخيار ويمنيه أن يلحق بهم ويسير على منوالهم انظروا حين قص يوسف على أبيه رؤياه ماذا قال له « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق » وفيها نرى أن التربية الدينية تمنع صاحبها من فعل الفاحشة انظروا إلى يوسف تدعوه امرأة العزيز إلى نفسها وتعرض عليه مفاتن جمالها فغلب عقله وقهر نفسه استمساكاً بمبدإ العفاف والتقوى وحذراً من أن يكون عار آبائه وأجداده أو يخل بأوامره دينه ونواهيه وحفاظاً لسيده الذي أكرم مثواه وأحله محل الولد ومقابلة النعمة بالكفران ليس من دأبه ولا دأب أسرته وعندما اعتراه هذا الضيق والهم التجأ إلى ربه مستعيناً به خائفاً وجلا قائلا « رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين » ففرج الله عنه ما نزل به وصرف عنه كيدهن وعملهن لموافقتهن على ما يردن من الفاحشة بأن أبعده عنهن بالسجن وهو أهون الشرين على يوسف ونرى فيها عشق يوسف لدينه والدعوة إليه ومحافظته على شرفه .

أما عشقه لدينه فيظهر لنا ذلك جلياً أنه عندما كان في السجن أخذ يدعو إلى دينه ويتحبب إلى من في السجن بالتحدث إليهم وتبشيرهم بما يسر ويجعل ذلك وسيلة إلى دعوتهم للإيمان بالله وتنفيرهم من الشرك والكفر

ودعوته إلى رئيس الخبازين ورئيس السقاة إليه لاتباع ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب وإن دينه دين التوحيد وهو الدين القيم وأبان لهما قدرته على تعبير كل رؤيا ولو كانت الرؤيا عن طعام يرزقانه لنباهما بتأويله قبل ان يأتيهما ذلك الطعام وهذا العمل المبرور يدل على أنه يجوز للعالم أن يصف نفسه بما هو عليه من العلم ولا يعد ذلك من باب تزكية النفس المنهي عنه .

وماذا يعيب المرء في مدح نفسه إذا لم يكن في قوله بكذوب

وأما محافظته على شرفه فيظهر لنا حين جاء رسول الملك بأمر منه للإفراج عنه والخروج من السجن فأبى أن يخرج في صورة متهم مع أن جميع الناس يعلمون أن صحيفته بيضاء نقية لم تدنس بشيء من العار ولو كان غير يوسف وجاءه أمر الملك بالإفراج عنه من السجن لفرح وبادر بالخروج ولكن يوسف كانت له همة عالية فلم يشأ أن يقال إنه مجرم وقد عفا عنه الملك لأنه فسر له منامته لذلك قال للرسول ارجع إلى سيدك وآطلب منه إعادة التحقيق في شأن النسوة الاتي قطعن أيديهن ولما أجرى الملك التحقيق ظهرت براءة يوسف وعند ذلك رضي بالخروج من السجن مرفوع الرأس نقي الصحيفة وخلق الشمم والإباء يحملان المتصف بهما على مجانبة كل ما يمس شرفه أو يدنس نفسه ونرى فيها أن يوسف كان متحلياً بفضيلة الصبر والصبر من أعظم الفضائل وأجلها قدراً ذكره الله في كتابه العزيز في نيف وسبعين موضوعاً .

ورتب الله عليه كثيراً من الخيرات والدرجات العالية أنظروا إلى قوله **« إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب » « وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون »** .

ولقد ضرب يوسف للناس المثل الأعلى في كثير من أنواع الصبر .

1) — صبر على إيذاء إخوته ولطمه ولكزه وإلقائه في الجب بقصد إهلاكه .

2) — صبر على بيعه بيع الرقيق في بلاد غير بلاده ليعيش عبداً رقيقاً

فما وهن ولا جزع بل تجمل بالصبر ففرج الله عنه ونجاه من محنته جزاء صبره .

3) — صبر على شهوة الفرج والطالبة سيدته وربة نعمته مع ما هي عليه من جمال ومال وهو شاب في إبان فيضه وقوته فتغلب على هواه وقهر نفسه الأمارة بالسوء لباعث الدين وكرم النفس فأخضع نفسه لقلبه وسلط عقله على عواطفه .

4) — جاء إخوته يمتارون وهم الذين أساؤوا إليه فلم يجز شرهم بمثله بل صبر وغفر ولما قالوا له إئنك لأنت يوسف ؟ قال لهم أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين وأظهروا ندمهم واعترفوا بخطيئتهم قائلين تاالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين فأسبل ذيل عفوه على إسائتهم وقال لهم : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين .

والخلاصة أن هذه القصة الجميلة عبرة لأولى الألباب وعظة بالغة لكل عبد أوأب وقد سماها الله أحسن القصص والقرآن الكريم حافل بأمثال هذه القصة التي تبين لنا كيف كان حظ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الابتلاء والاختبار وقد أراد الله من شدة ابتلائهم أن يكونوا قدوة حسنة لأممهم في قوة الصبر والجلد وآحتمال الشدائد ففي قصصهم عبرة سامية وعظة نافعة وسيرة عطرة تتجلى فيها روح التضحية والبطولة في أروع مظهر وأبهر صورة لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب فمن نظر في ابتلاء الأنبياء نظر فكر وآعتبار وتأمل وآستبصار اشتد صبره وقوى يقينه واطمان قلبه واستراح ضميره وهانت عليه المصائب واستسلم لقضاء الله وقدره وصغرت الدنيا في عينيه وتزود منها بالتقوى والعمل الصالح ولا شك أن من لازم ذلك يكون هو السعيد الرابح ربحاً يستفيد منها حياً وميتاً : « **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين** » .

فإذا كان من حكم الله في ابتلاء الأنبياء أن يختبر إيمانهم بما يصيبهم

به من البلاء فما أجدرنا بالثبات والصبر لنفوز بما وعد الله به الصابرين من الأجر والثواب في قوله عز وجل : « **وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** » .

أسأل الله أن يجمعنا في دار كرامته وأن يغسل ذنوبنا بوابل غفرانه ورحمته : يا رب إنك أمرتنا أن لا نرد سائلاً يقف ببابنا ونحن السائلون الواقفون ببابك فلا تردنا خائبين ولا تحرمنا رحمتك يا أكرم الأكرمين وتقبل صيامنا وقيامنا يا أرحم الراحمين وصل اللهم على محمد وآله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين .

الصبر وآثاره المحمودة

روى البخاري ومسلم وغيرهما بسندهم إلى النبي ﷺ أنه قال : « الصبر عند الصدمة الاولى »

لهذا الحديث سبب ذكره أنس بن مالك خادم النبي ﷺ وهو أن رسول الله كان بالمقابر فمر بامرأة فيهـا تبكي على ولدهـا عند قبره وسمع منها ألفاظاً تدل على جزعها وهلعها فأمرها النبي بالصبر وباحتساب ولدها عند الله تعالى ليحصل لها الثواب العظيم وقال لها اتقي الله وآصبري فأجابته بقولها : إليك عني فإنك لم تصب بمصيبتي ولم تكن تعرف أن الذي يكلمها هو رسول الله فتركها النبي وذهب إلى منزله وبعد ذلك أخبرت المرأة أن الذي كلمها هو النبي ﷺ فكادت تصعق من شدة الكرب والحزن اللذين أصابا قلبها حينما علمت فتركت القبر واقلعت عن البكاء وأسرعت إلى بيت رسول الله ﷺ فلم تجد على بابه بوابين ولا حجاباً فقابلته وآعتذرت له : إني لم أعرف أنك الرسول فأعذرني يا رسول الله فقال لها النبي ﷺ إنما الصبر عند الصدمة الأولى فكأنه يقول لها : دعي الاعتذار فأنا لا أغضب إلا لله ولا أغضب لنفسي مهما أسأت إلي وعليك بالصبر عند الصدمة الأولى من نزول المصيبة فإنه هو الذي ينال صاحبه الأجر العظيم والثواب الكبير من هذا الحديث الشريف علمنا أن الصبر الذي ينال به الإنسان المنازل العضمى والدرجات العليا التي وعد الله بها عباده الصابرين هو الصبر الذي يحصل عند أول نزول الحادثة وعند مفاجأة المصيبة ومهاجمتها للإنسان وشدة وقعها في القلب فإنها في هذه الحال يكون لها أثر عظيم على النفس فتزعزع القلب وتزعجه

بصدمتها فيجاهد الإنسان نفسه ويسلم الأمر لله ويرضي بقضائه وقدره ولا يجزع بما قدره الله فإذا حصل منه ذلك عند حصول المصيبة في أول وقوعها كان له الأجر المرتب على هذا الصبر فإذا مرت الأيام على الحادثة التي حصلت والمصيبة التي نزلت كان الزمان كفيلاً بنسيانها والتسلية عنها فيصير الصبر عادة للإنسان فلا يستحق عليه أجراً وإنما الجزاء العظيم والفضل الكبير لمن صبر ومنع نفسه عن الجزع والهلع عند الإحساس بحرارة المصيبة في أول أمرها .

وليس المراد من الصبر عدم الحزن فإنه غير مستطاع لأن الفرح والحزن طبيعيان لا يستطيع الإنسان الخلاص منهما مهما كانت منزلته ولو كان من الأنبياء والمرسلين فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بكى عند موت ولده إبراهيم فقيل له ألم تنه عن ذلك ؟ فأخبرهم بأن هذا من الرحمة وقال : إن العين تدمع والقلب يحزن وما نقول إلا ما يرضي ربنا وإنما المراد من الصبر عدم الجزع عند صدمة المصيبة حتى يذهب صاحبه إلى لطم الخدود وشق الجيوب والأقوال النسائية والدعوات الجاهلية .

هذا وقد جعل الله المصائب في الدنيا آلة اختبار ومقياس آمتحان يمتحن الله به عباده المؤمنين فإن كان العبد مؤمناً حقيقياً فلا يدخل قلبه أي آعتراض على فعل الله ولا جزع مما قضاه الله وقدره وكلما اشتد به البلاء زاد إيمانه وقوي تسليمه لله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد قال تعالى: « **أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون** » أي لا يختبرون بالمصائب التي تنزل بهم والشدة التي تحيط بساحتهم وإن كل شخص ضعيف الإيمان فإنه يجزع ويكفر وييأس من روح الله ولا يطيق وقع المصيبة على نفسه فينقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين قال تعالى : « **ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** »

فهذا سيدنا إبراهيم خليل الله اختبره الله بإلقائه في النار فصبر حتى قال الله للنار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم . وسيدنا إسماعيل اختبره بالذبح فصبر حتى فداه الله بذبح عظيم وسيدنا يعقوب اختبره الله بفقد ولده يوسف فقابل ذلك بالصبر والرضا والتسليم وقال : « عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً » وسيدنا يوسف اختبره الله بمجاهدة نفسه وسجن ومكث في السجن بضع سنين وسيدنا أيوب اختبره الله بالضر الذي أصابه فصبر حتى صرفه الله عنه . فالدنيا ما خلقت إلا للكفاح والجهاد لا لتكون موطن راحة وهناء ونعيم بل لتكون دار جد وعمل واختبار وابتلاء ولقد أخبرنا الله جل شأنه أنه لم يخلق هذه الدنيا إلا ليبلو إيماننا ويختبر يقيننا فيها فيظهر الصالح منا والطالح قال تعالى : « **تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** »

فمن نزلت به مصيبة فلا يضيق بها صدره وليرض بالقضاء حلوه ومره ويقابل الشدائد بعزيمة ثابتة فإن الأمور بيد الله يصرفها كيف يشاء وإن الأيام لا تبقى على حالة واحدة فلا حزن يدوم ولا سرور ورحم الله القائل :

دع الأيام تفعل ما تشاء ... وطب نفساً إذا حكم القضاء
ولا تجزع لحادثة الليالي ... فما لحوادث الدنيا بقاء
وكن رجلاً على الأهوال صلداً ... وشيمتك السماحة والسخاء
يغطي بالسماحة كل عيب ... وكم عيب يغطيه السخاء ؟
فلا حزن يدوم ولا سرور ... ولا بأس عليك ولا رخاء
ومن نزلت بساحته المنايا ... فلا أرض تقيه ولا سماء
وأرض الله واسعة ولكن ... إذا أنزل القضاء ضاق الفضاء
دع الأيام تنذر كل حي ... فما يغني عن الموت الدواء

فالمؤمن لا يقنط من رحمة الله فإن مع العسر يسراً وبعد الضيق فرجاً روى مسلم بسنده إلى رسول الله ﷺ أنه قال : عجباً لأمر المؤمن كله خير له إن أصابته سراء (يعني ما يسر به) شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء

يعني ما يضر صبر فكان خيراً له وورد في حديث عطاء عن أبي عباس أن النبي ﷺ دخل على الأنصار فقال أمؤمنون أنتم ؟ فسكتوا فقال عمر نعم يا رسول الله قال وما علامة إيمانكم قالوا نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء فقال مؤمنون ورب الكعبة ، وفي الحديث الصبر نصف الإيمان قال تعالى : **أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** » « **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم** » .

والمسلمون الأولون لما ادرعوا بالصبر صار النصر حليفهم والظفر أليفهم فتبؤوا ذروة المجد حتى عمروا الأرض وجعلهم الله خلفاء بعد أن كانوا مطرودين مضطهدين .

والتاريخ ينبئنا بالمثل العليا من صبر الصحابة رضوان الله عليهم كالذي يذكر عن عمار بن ياسر وقد ناله ما ناله من أنواع التعذيب حتى خير بين الكفر والقتل فاختار الموت طائعاً عن طيب نفس حباً في دينه ورغبة في رضاء ربه وكالذي ذكر عن أبيه وأمه وبقية آله الذين سلاهم رسول الله ﷺ بقوله صبراً يا آل ياسر فإن موعدكم الجنة .

كذلك زوجته مثلت بها قريش شر تمثيل حتى رخص لها رسول الله في كلمة الكفر للضرورة فأبت وقالت والله لا أدنس لساني بهذا أبداً فمضت قريش في تعذيبها حتى ربطوها بين بعيرين وقتلوها شر قتلة . فهؤلاء وأمثالهم من المؤمنين الذين تغلغل الإيمان في قلوبهم وملك مشاعرهم وإنما فازوا بالصبر فأين منهم الذين نبذوا دينهم وراء ظهورهم وفهموا أن ما يصيب العبد في دنياه من الشدائد دليل على غضب الله عليه كيف ذلك ورسول الله ﷺ يقول : أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثال وقال عليه الصلاة والسلام : إن الله يجرب أحدكم بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار فمنهم من يخرج كالذهب الإبريز يعني الخالص ومنهم من يخرج كالذهب الأسود فذلك الذي افتتن وعلى الجملة الدنيا دار المحن والمصائب إذا ضحكت مرة

أبكت مرارا وإن أحسنت مرة الى شخص أساءت إليه مراراً أما الحياة الطيبة اللذيذة الخالية من الكدرات فهي الدار الآخرة : « **وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون** » فالسعيد من تدرع بالصبر واقتدى بالسلف الصالح وآهتدى بهديهم .

بقي أمر جدير بالذكر وهو أن المصائب التي تنزل بالشخص قسمان قسم لا يكون فيه حيلة كما إذا مات للشخص ابن أو أخ عزيز فالصبر الجميل إذ ذاك أمر محمود .

القسم الثاني : ينزل بالإنسان مصيبة كفقر وله عيال يتضورون جوعاً وأسباب الرزق ممهدة أمامه فيعرض ويقول إنه صابر والصبر مفتاح الفرج أو يصاب بمرض وله علاج ويقول إنه صابر والصبر سلاح المؤمن أو يعتدى عليه ويكون في مقدوره كف أذاه لكنه لا يفعل ويقول إنه صابر فهذا ليس من الصبر المحمود ما دام في طاقة الإنسان اتخاذ الأسباب لدفع الشر وآسترداد الحق والاحتفاظ بالكرامة .

التحذير من الغرور

قال الله تعالى في كتابه العزيز: «اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور».

بين الله في هذه الآية الكريمة أن الحياة الدنيا التي تشغل بالنا وتستهوي نفوسنا ما هي إلا لعب ولهو وزينة ومفاخرة بالأحساب والأنساب ومباهات بالأموال وهي مثلها كمثل مطر يصيب الأرض فيرويها فتنبت الزرع ويخضر فتفرح به الناس معلقين عليه الآمال ثم ينقطع المطر فيذبل الزرع ويصفر ويصبح هشيماً. تذروه الرياح فمن غرته الدنيا وتعلق قلبه بها ولم يأخذ نصيبه منها وهجر ما أمر الله به وانكب على حبها وانهمك في شهواتها ونسي الآخرة فله عذاب شديد فالآية صريحة في أن أفضل الناس منزلة من لم تشغله دنياه عن آخرته ولا آخرته عن دنياه بل يعمل لهذه وتلك حتى لا يكون قد أخل بنظام الكون وخالف قوانين الشريعة.

فنحن لا نعلم ديناً من الأديان السماوية وفق بين مصلحتي الدنيا والآخرة وحض على العمل لهما كلتيهما بقدر ما فعل دين الإسلام. وكان النبي ﷺ يراوح بين أعمال الدنيا وأعمال الآخرة تراه مقبلاً على عمل من أعمال آخرته كصيام وقيام حتى تراه قد انصرف عنه إلى عمل آخر من أعمال دنياه كإعداد القوة والنظر في مصالح المسلمين والعناية بأهل بيته وزوجاته وإغاثة الفقراء وعيادة المرضى وتفقد الأصدقاء إلى غير ذلك.

ونحن حينما نستعرض معكم هذه الآية الكريمة نجد فيها الوعيد الشديد لمن يغتر بالدنيا وينسى الآخرة وإن الشهوات واللذات هي التي تسبب للإنسان الغرور . والغرور أنواع فهناك الغرور بالمال والأولاد وهناك الغرور بالمنصب والجاه وهناك الغرور بمظاهر السلطة والزينة وهذا الأخير كان من أكبر الدوافع التي حملت فرعون على دعوى الألوهية فصدقه قومه لضعف عقولهم لما رأوا عنده من مظاهر السلطة والزينة والثراء وهو القائل « **أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون** » وبهذه المظاهر الفاتنة لضعاف العقول أطاعوه وأعرضوا عن اتباع موسى عليه السلام لأنه ليس له من مباهج الزينة ما لهذا الطاغية وقد أشار الله لذلك بقوله : « **فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين** » وهكذا شأن البشر في كل عصر تخدعهم المناظر الكاذبة إلا قليلاً من ذوي العقول الراجحة فتحجب بصائرهم على أنوار الحقيقة فيضلون عن الحق ويصدقون الدعاوي الباطلة من غير أن يطالبوا أنفسهم بعرضها على محك النقد ليتبين ما فيها من الزيف والفساد .

وخلاصة القول أن الغرور من أكبر الآفات وهو ليس من خلق المؤمنين ومتى أصيب به الإنسان والعياذ بالله تراه يعتقد أنه كل شيء في هذا الوجود وأنه هو العالم بدقائق الأمور وهو بين الأدباء أديب بارع الفكر فإذا أردت أن تقنعه بخطإ ما وقع فيه لا يعترف لك بالحق في إدراك الصواب بل يرى الحق والصواب وفقاً على نفسه لا يقبل في ذلك جدلاً ولا مناقشة وهذا كله ادعاء كاذب يثير الحقد والضغينة في النفوس ويفسد عوامل الألفة والتعاون بين المسلمين لذلك يجب علينا أن نعالج أنفسنا من داء الغرور ونستمع إلى قول الله تبارك وتعالى يؤدب نبيه ﷺ في قوله « **وقل رب زدني علماً** » وقوله : « **وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** » ونقتدي برسولنا الكريم فقد ورد أنه دخل مكة منتصراً دون أن يشعر بنشوة الفاتحين المغرورين ولما وقف على باب الكعبة ووقفت قريش بصناديدها وكبريائها تنتظر ماذا يفعل بها بعد أن تمكن من رقابها حتى ظن كثير منهم أن هذا اليوم الذي

فتحت فيه مكة يوم هلاكهم انتقاماً منهم حيث أخرجوه ﷺ من داره بغير حق وكسروا رباعيته وشجوا وجهه وقتلوا عمه حمزة يوم أحد ولكنه ﷺ بش في وجوههم ثم سألهم « ما تظنون أني فاعل بكم ؟ فقالوا أخ كريم وابن أخ كريم إن عاقبت فبذنب عظيم وإن عفوت فبحكم قديم قال أقول لكم ما قال أخي يوسف « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين اذهبوا فأنتم الطلقاء » وقال لرجل وقف بين يديه خوفاً منه : هون عليك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد ، فما أروع هذا الأدب وما أبلغ أثره في العفو عند المقدرة صدق من سماه الرؤوف الرحيم .

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه رآه عروة بن الزبير يحمل على عاتقه قربة ماء فهاله الأمر وقال له يا أمير المؤمنين إنه لا ينبغي لمثلك أن يفعل هذا فقال له : لما أتتني الوفود سامعة مطيعة دخلت نفسي نخوة فأحببت أن أكسرها ومضى بالقربة إلى حجرة من الأنصار فأفرغها في إنائها وورد عن عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه أنه كان في ليلة مع ضيفه فضعف السراج فقام الضيف يريد أن يصلحه فقال له عمر اجلس فليس من الكرم أن يستخدم المرء ضيفه ثم قام فأصلح السراج بنفسه .

بمثل هذه الأخلاق الكريمة سعدت الأمة الإسلامية وفاقت غيرها من الأمم جنبني الله وإياكم من داء الغرور إنه سميع مجيب .

التحذير من الغفلة

قال الله تعالى في كتابه العزيز: « **ومن يعش عن ذكر الرحمان نقيض له شيطاناً فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون** » .

نفهم من هذه الآية الكريمة أن من غفل عن ذكر الله يسلط الله له شيطاناً يضله ويغويه ويجعله له صاحباً وقريناً فينسيه الصلاة ويزين له الشهوات فتمتلىء نفسه بالعجب والكبر ويسعى في تحصيل منفعته ولذاته ولو كان في ذلك هلاك غيره فتراه يكذب ويخون وينافق ولا تهمه إلا نفسه ويظن الغافلون أن الشياطين سائرون بهم في طريق الهداية فيسيرون وراءهم ويتبعونهم بحيث يكونون عندهم كالكرة في أيديهم يقلبونهم كيفما شاؤوا وأرادوا وبذلك يخسرون الدنيا والآخرة ولقد أشار الله إلى ذلك بقوله : « **آستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون** » .

وقد تعظم غفلة بعضهم عن الله حتى تكون طبعاً وختماً على القلب والعياذ بالله فلا يرجى لصاحبه اهتداء ولا نجاة يوم القيامة من عذاب الله . مما تقدم يظهر لنا جلياً أن علة العلل في ضلال البشر هي غفلتهم عن الله تعالى وإنك إذا تأملت في أحوال العصاة والضالين وغيرهم من أهل اللهو والمجون تجد أنهم جميعاً في حياتهم ساهون غافلون عن الله لا يخطر ببال أحدهم أن الله سيحاسبه على ما أجرم فلا يجد في نفسه رادعاً يزجره عن فسقه وتمر بهم الأيام وهم في غفلتهم يعمهون حتى تنقضي حياتهم ويخرجوا من الدنيا بصفحة مظلمة تسوؤهم يوم الفزع الأكبر .

وليس لهذه الغفلة علاج إلا ذكر الله تعالى ذكراً يغمر القلب نوراً يضيء لها سبيل الرشاد ويفرق لها بين الطاعة والمعصية ويصقلها من أدرانها فإذا هي نفوس مشرقة يبصرها مسالك الخير والهدى ولذلك أمر الله بالذكر وحث عليه ومدح أهله في كثير من كتابه العزيز . .

وبينت السنة فضل الذاكرين وما لهم عند الله من رفيع الدرجات قال تعالى : « **فاذكروني أذكركم واشكروا لي و لا تكفرون** » وقال جل ذكره : « **إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار** وقال تعالى « **واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين** » ، وقال « **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** » ، وقال : **واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون** » ، وقال « **وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار** » ، والآيات في ذلك كثيرة وكلها تدل على فضل الذكر وأهله وقد بين الله تعالى في آيات أخرى أن من أعرض عن ذكره ونسيه ينسيه الله نفسه فيقع في الخطايا من حيث لا يشعر فقال تعالى : « **ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** » **وقال « نسوا الله فأنساهم أنفسهم » .**

وهذه الآيات تبين لنا أن الغفلة عن ذكر الله هي التي تسبب وقوع الإنسان في الخطايا لأن الشيطان يستولي على الغافل ويزين له الفجور فيتبعه وهو يحسب أنه من المهتدين ، فإذا ذكر العبد ربه لم يتمكن الشيطان من إغرائه حتى إذا وسوس له الشيطان اقتراف معصية تراه يفزع إلى ربه بالذكر والاستغفار والتوبة فيفسد على الشيطان حيله وكيده وهذا هو التقي الذي أخبر عنه القرآن في قوله : « **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** » . يعني متيقظون لا يلعب الشيطان بعقولهم لأن الشيطان لا يستولي إلا على قلب الغافل .

وقد ورد في فضل الذكر أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ : لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده . أي ذكرهم الله في الملأ الأعلى ومعنى حفتهم الملائكة أحاطت بهم فلا تمكن الشياطين من القرب منهم ونزلت عليهم السكينة أي الطمأنينة والوقار» .

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله « ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه وقوله فيما يرويه عن ربه ومن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم » .

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة لا يمكن حصرها وأفضل أنواع الذكر والتهليل « لا إله إلا الله » والتسبيح والتحميد والتكبير والدعاء وقراءة القرآن فالتسبيح كأن يقول الإنسان « **سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم** » وقد قال الرسول ﷺ: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم» وقال في شأن القرآن العظيم: يقال لصاحب القرآن اقرأ ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها ، رواه أبو داود وصفوة القول أن ذكر الله تعالى هو أعظم علاج لمداواة الغفلة عن الله وأمراض القلوب من الكبر والحقد والحسد والنفاق والغش وما شاكل ذلك فعلينا بهذا الدواء لنبرأ من عللنا الباطنية وكفى الذاكرين فضلاً أن الله يغنيهم بأنسه وتحل محبته في قلوبهم ومتى امتلأ القلب بحب الله نشطت الجوارح في طاعته ورحم الله الإمام البصري الذي يقول :

وإذا حلت الهدايا قلبـــــاً نشطت في العبادة الأعضـــــاء

جعلنا الله من الذاكرين وأدخلنا برحمته في عباده الصالحين .

التحذير من الظلم

قال الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين : « **ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء** ».

لا يظن أحد أن الله سبحانه وتعالى يغفل عن أعمال الظالمين الذين يظلمون الناس ولكنه يمهلهم ولا يهملهم ليزدادوا آثاماً على آثامهم ثم يعذبهم يوم القيامة عذاباً شديداً جزاء ما اقترفوه من الظلم وأكل حقوق الناس يوم يكون الناس في حيرة من هول ما يرون فتبقى عيونهم مفتوحة من شدة الرعب ويأتون الحساب في ذلة واستكانة رافعين رؤوسهم إلى السماء لا يفهمون شيئاً لشدة فزعهم وحيرتهم ودهشتهم فيكون مثلهم كمثل من يقدم إلى ساحة الإعدام .

من هذه الآية الكريمة علمنا أن الظلم جريمة من أكبر الجرائم تنكره الشرائع ولا تقره الطبائع وتمجه النفوس وتعافه صفات الإنسانية وقد حرمه الله على نفسه وجعله بين الناس محرماً فقال في كتابه العزيز« **إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون** » وذلك لما ينشأ عنه من تنافر القلوب وتفرق الكلمة وسعادة الأمم وارتقاؤها إنما يكون بائتلاف القلوب واتحاد النفوس فالأمة التي صلحت قلوبها هي التي تنبت العدالة فيها نباتاً حسناً فتكون السعادة عندها موفورة والأفراد فيها يكونون مطمئنين على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم . حكي أن أعرابياً سمع قول الله تعالى : **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي** » فشقت هذه الآية الكريمة إلى صدره طريقاً فسيحاً وأثرت في نفسه وتبرأ من شركه وآمن بربه وأصبح صحابياً جليلاً . أتدري من هو ذلك ؟ هو عثمان بن مضعون المتوفي شهيداً في إحدى الغزوات وأخبر الصادق الذي لا ينطق عن الهوى أن ملائكة الرحمان قد غسلته .

والظلم يأتي من لؤم الطبع وخبث النفس وهو دليل على تجرد الإنسان من صفات المروءة والشرف وبرهان على ذهاب نور الإيمان من القلب وهو نوعان ظلم الإنسان لنفسه وظلمه لغيره فظلمه لنفسه كأن يعطي نفسه حظها من الشهوات والمعاصي حتى يغلبها هواها ويصبح أسيراً لنفسه كلما أمرته بمعصية أطاعها ولبى دعوتها بدون تفكير في العواقب ولا خوف من الله

ويعد هذا من التطور والمدنية ولا شك أنه بعمله هذا يحرم نفسه من النعم في الآخرة وأما ظلمه لغيره يكون بأكل أموال الناس بالباطل أو بخيانة شريكه أو بالتعدي على جاره أو القدح في أعراض الناس أو تدبير الشر لهم أو بسرقة أموالهم أو أرضهم فمن فعل شيئاً من هذه الأعمال خسر الدنيا والآخرة والمظلوم ينصره الله على أعدائه ودعوته ليس بينها وبين الله حجاب لأنها صادرة من قلب متأثر لا يردها الله بل يتقبلها وينتقم من الظالم قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ترد دعوتهم الإمام العادل ودعوة الوالد على ولده ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ويقول وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين» ورحم الله من قال:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتـــدراً ... فالظلم آخره يأتيك بالنـــدم
تنام عينـاك والمظلوم منتبــه ... يدعو عليك وعين الله لم تنـــم

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

إذا اتخذ الظلم ابن آدم مذهبـــاً ... ولج عتواً في قبيح فعالـــه
فكله إلى صرف الليالي فإنهـــا ... ستبدي له ما لم يكن في حسابـــه
طغي وبغي حتى إذا جره البقـــاء ... أناخت جميع النائبات ببانـــه
فأصبح لا مالا ولا جاهاً يرتجـــي ... ولا حسنات تلتقي بكتابـــه

يروى عن عروة ابن الزبير رضي الله عنه أن سعيد بن زيد خاصمته أروى بنت أوس إلى مروان بن الحكم وادعت أنه أخذ شيئاً من أرضها فقال سعيد وكيف آخذ شيئاً من أرضها بعد الذي سمعت من رسول الله ﷺ يقول: من أخذ شبراً من الأرض ظلماً طوقه الله إلى سبع أرضين فقال له مروان لا أسألك بينة بعد هذا فقال سعيد: اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها وأطل فقرها واقتلها في أرضها قال عروة فما ماتت حتى ذهب بصرها وافتقرت وبينما هي تمشي إذ وقعت في حفرة فماتت وهكذا يستجيب الله دعاء المظلومين ويهلك الظالمين في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأبقى فالمؤمن الكامل من يجتنب الظلم ويبتعد عن الظالمين وإن كان ظلم أحداً

فليطلب منه العفو والسماح ويرد ما أخذه منه إن كان موجوداً أو قيمته إن كان مفقوداً وإذا اغتاب أحداً أو نم عليه فليعتذر إليه ويرجو منه الصفح عسى أن يتجاوز الله عنه ويتوب عليه . هذا فيما يتعلق بظلم الإنسان لنفسه وظلمه لغيره وأما ظلم الحكام للرعية فهو أعم ضرراً وأسوأ أثراً وأشر تدميراً للبلاء وتشتيتاً لشمل العباد لذلك أمر الله الحاكم بالعدل لأن العدل أساس العمران والظلم مؤذن بخرابه مقوض لبنيانه قال تعالى : « **ياداود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب** » وقال النبي ﷺ أحسنوا إذا وليتم والمراد بالإحسان هو العدل والكف عن الظلم لأن بعدل الحكام تطمئن الناس على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم وبذلك يعم الرخاء وتزدهر البلاد ويزول الفقر والبلاء وتعيش الأمة في سعادة وهناء .

قال علماء الإسلام : الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم يؤيد هذا قول الله تعالى : « **وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون** » ومعنى الآية أن الله لا يهلك أمة بسبب كفر أهلها ما دام العدل سائداً بينها ولولا استبداد وظلم بعض ملوك تونس في العصور الماضية وسفكهم للدماء وإرهاقهم للشعب بالضرائب الفادحة واغتصاب حقوق الضعفاء لما قامت تلك الثورات في تونس التي خلقت جروحاً دامية في جسم الأمة كان من أثرها كل ما انبعث بعد ذلك في تاريخ أمتنا التونسية من مآس وفتن وكوارث وقضى على كل مظاهر الكرامة والعزة في نفوس الشعب وهوى به في منحدر سحيق من الجهالة والفوضى والفقر والتأخر مئات السنين حتى أفقنا على جيوش الاحتلال تشتت وحدتنا وتستعمرنا وتقضي على البقية الباقية من مظاهر عزتنا وسيادتنا فكثير من هؤلاء الذين حكموا تونس في الزمن الماضي آثروا الباطل على العدل والحق واغتصبوا حقوق الضعفاء وأراقوا دماء الأبرياء وملؤوا السجون بالمظلومين فجازاهم الله بظلمهم وانتقم

منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر وسلب عنهم ذلك الملك وحرمهم من ذلك العرش وصدق الله العظيم إذ يقول « **فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين** » أي أنهم هلكوا وبادوا فكان على البشر أن يحمدوا الله على لطفه بهم مذ أراحهم من شرهم . وعلى ذكر ظلم الملوك السابقين في تونس نذكر لكم قصة الحجاج بن يوسف الذي كان والياً على العراق فقد أسرف هذا الطاغية في الظلم والاستبداد حتى قيل إنه قتل مائة ألف قتيل ولما وقف ضد ظلمه وآستبداده سيدنا سعيد بن جبير ذلك الشهم الكريم والمحدث العظيم أرسل في طلبه ولما أوقفه بين يديه قال له : ما تقول في يا سعيد ؟ فقال له : أنت قاسط عادل ، فآغتم الحجاج وقطب وجهه وعبس فقال له الحاضرون لماذا غضبت فقد مدحك فقال الحجاج ألم تعرفوا يا جهال أنه ذمني وجعلني حطباً لجهنم بقوله « **قاسط** » اقرؤوا قول الله تعالى : « **وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً** » ونسبني إلى الشرك بقوله « **عادل** » اقرؤوا « **ثم الذين كفروا بربهم يعدلون** » ثم قال له لأوردنك حياض الموت قال سعيد : إذا أصابت في إسمي أمي (يعني إن مت مت شهيداً) قال له ما تقول في علي أفي الجنة أم في النار ؟ فقال لو دخلت فرأيت أهلها لأخبرتك قال أتحب أن أعفو عليك قال الذي يعفو هو الله قال : إذهبوا به فاقتلوه فلما خرج ضحك فسمع الحجاج ضحكه فأمر أن يعودوا به فلما أعادوه قال له الحجاج : ما يضحكك ؟ فقال من جراءتك على الله وحلم الله عليك وقبل قتله طلب سعيد من الله أن لا يسلطه على غيره من المسلمين فآستجاب الله دعاءه ولم يعش بعد سعيد إلا خمسة عشر يوم وآشتد به المرض كلما أراد أن ينام رأى سعيداً آخذاً بثوبه ويقول له : فيما قتلتني يا عدو الله . فيستيقظ مذعوراً . وكان يقول في احتضاره : يا للموت وشدته والقبر ووحشته والنار وعذابها . ودخلت عليه أمه فقال لها : يا أمي هل يرحمني ربي على ما كان من ذنبي ؟ فقالت له : إنما يرحم الله عباده الرحماء ويحك يا حجاج قتلت ذلك المحدث العظيم والشهم الكريم ويلك بماذا تجيب ربك إذا ناقشاك الحساب ؟

وروي عن سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه رأى الحجاج بعد موته تنبعث منه رائحة كريهة فقال له ما فعل الله بك ؟ فقال قتلني بكل قتيل قتلة واحدة وبسعيد بن جبير سبعين قتلة وهكذا ينتقم الله من الظالمين ويستجيب دعوة المظلومين .

ما هي أعظم الفتن في الدنيا؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « بادروا بالأعمال فتناً كقطيع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً أويمسي مؤمنا ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا» رواه مسلم. الفتن هي المحن والشدائد التي تصيب الأفراد والجماعات فتنتزع من قلوبهم الأمن والطمأنينة وتكدر عليهم صفو الحياة وأعظمها القتل والهرج وقد جرت سنة الله في خلقه ألا يخلو عصر من عصور التاريخ من الفتن إما لنشوب حرب يسعر نارها المطامع وشهوات الساسة المتحكمين في رقاب الأمم وإما لقيام ثورات يؤجج نارها بعض الطامعين في الحكم أو تقوم بها بعض الدول الصغيرة المستعبدة لترفع عن كواهلها نير الظلم والاستبداد وتسترد ما لها من حقوق اغتصبها بعض المستعمرين في الأرض بغير حق وتغسل بها ما لحقها من ذلة وهوان وقد تكثر الفتن بظهور البدع وانتشار الفسق والفجور إذ ينقسم الناس إلى معسكرين أحدهما يدافع عن الحق ويذود عن الدين والفضيلة والآخر يدافع عن الباطل إما بالتهريج والسفسطة وإما بترويج الإثم والفجور فيهم ليكونوا لهم أعواناً .

وقد تكون الفتنة بفساد رجال الحكم ونفاق بعض المنتسبين الى الدين الذين لا يرقبون للدين ذمة فتراهم يدعون إليه بألسنتهم ويهدمونه بأعمالهم وذلك شر ما يبتلى به الناس في كل عصر لأنه يهون على العامة التجهم على الدين وانتهاك حرمة الفضيلة وذلك ما كان يحذره عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المسلمين إذ يقول إن أخوف ما أخاف عليكم المنافق العليم قالوا يا أمير المؤمنين كيف يكون منافقاً عليماً ؟ قال : يكون منافق القلب

عليم اللسان يقول ما لا يفعل ويدعو إلى ما ينقضه بعمله فيقول الناس لو كان ما يدعو اليه حقاً لكان أول العاملين به فتمتلىء قلوبهم بالشكوك والريب التي تهدم في قلوبهم دعائم الإيمان الصحيح وقد تكون الفتنة بسبب طغيان النزعات الإلحادية باسم حرية العلم والمذاهب الهدامة لبناء المجتمع باسم المدنية كما هو حاصل في زماننا في كثير من الأمم فيغتر بها ضعاف العقول فيغمسون فيها أيديهم ويدنسون بها أنفسهم . فإذا اجتمعت هذه الأنواع من الفتن ضلت الناس عن سبيل الهداية والتبس عليهم الحق بالباطل ولقد يمسي الرجل مؤمناً فتصيبه الفتنة فيصبح كافراً إما لزيغ طرأ على اعتقاده أو يصبح كالكافر لإتصافه بصفات الكافرين من النفاق والغش والفجور وما إلى ذلك من ألوان الرذائل .

وما رأينا من الفتن أشد تأثيراً في ظلال البشر من فتنة المال والنساء والإطراء والمدح وكفى بالمال فتنة ما قصصناه عليكم في درسنا السابق من حديث ثعلبة بن حاطب الأنصاري فقد أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن على الفقراء والمساكين وليكونن من الصالحين في معاملة الناس أجمعين فما وفى بما قال ولا صدق فيما وعد بل بخل بالزكاة المفروضة وهي من أسباب نماء المال وتكثيره وحصول البركة فيه حتى يقوم قليله مقام كثيره فباء بالخزي والعار فضلاً عما ينتظره في الآخرة من عذاب النار . ولقد شاهدنا ولا نزال نشاهد بعضاً من الناس يشغلهم الكسب وتلهيهم التجارة عن أداء الفرائض في أوقاتها كما أمروا . ولقد تدفع شهوة المال إلى السرقة والاختلاس غير مبالين لما يلحقهم من العار في شرفهم وهتك أعراضهم .

أما الفتنة بالنساء فقد حذرنا النبي ﷺ منها فقال : ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء . وكيف لا تكون المرأة فتنة والشيطان بصورتها يغزو القلوب ويوقعها في الأسر والإثم والحكماء أعلنوا أن الإناث فتنة للذكور وحاكمات متصرفات في قلوبهم على مر الدهور .

أما فتنة حب الإطراء والمدح والثناء فهذا داء عزيز الدواء فبعض الناس يحب من أعماق قلبه أن يشيد بذكره أهل عصره لأنه يحسب الشهرة في الدنيا هي الكمال والجمال وإن خبثت الأفعال وأي كمال وجمال في إطراء من لا قدر له في السماء أن الإطراء بالباطل جر أقواماً على تسخير الناس في مدحهم وحمدهم ومن لم يطفف لهم هذا الكيل أذاقوه أنواعاً من الظلم والويل وكأنه دين لا بد أن يستوفوه ممن يسوء حضه فيتصل بهم اتصال المرؤوس بالرئيس ومن قصر في أدائه مقتوه وأعرضوا عنه وربما نقموا منه.

ومن الفتن في الدنيا فتنة المناصب فإنها تستدرج صاحبها إلى مستقر أصحاب الكبرياء فيرى نفسه فوق من كانوا له إخواناً وأصحاباً فيتطاول عليهم ويحقرهم وتلك صفة الأخساء واللؤماء وفي مثل هذا يقول الشاعر :

ليس الكريم الذي إن نال منزلة ... فضلاً وطولا على إخوانه تاها
الحر يزداد للإخوان مكرمة ... إن نال حظاً من السلطان أو جاهاً

وقديماً قالوا مما يدل على صغر الهمة التلون على من كان صديقاً وصاحباً بالأمس وقال الشاعر في صديق زور عنه بعد أن نال رفعة ومنصباً.

تغير عني حين ولوه منصباً ... وعهدي به من قبل وهو صاحب
وما هو في الدنيا بأول صاحب ... وأول شخص غيرته المناصب

وقد دلتنا أحداث الزمن على أن الفتن في كل عصر أسرع إلى قلوب الناس من السيل المنحدر من شواهق الجبال إلى السهول والوديان وعلى أن أكثر الناس يتأثرون بها إلى حد يرون معه الحق باطلاً والباطل حقاً فيدافعون عن الباطل بقوة وحماسة كما يدافع الكريم عن عرضه بل أشد من ذلك.

وها نحن نرى بأعيننا ونسمع بآذاننا ونشاهد في كل وقت ماذا فعلت الفتن بالمفتونين من أبناء جيلنا الحاضر حتى صاروا يبنون للرذيلة في كل يوم صرحاً على أنقاض ما هدموه من الفضائل الدينية والإنسانية باسم المدنية والعلم والحرية حتى صارت الحياة الاجتماعية مليئة بأقذار لا يطهرها إلا طوفان كطوفان نوح عليه السلام ولله در أبي العلاء المعري إذ يقول :

والأرض للطوفان مشتاقـــة   لعلهـــا مـــن درن تغسل

هـذا ولما كانت الفتن سريعة الانتشار بين الناس أمر النبي ﷺ كافة المؤمنين أن يسارعوا بالأعمال الصالحة قبل أن تحول الموانع بينهم وبين الصالحات التي يتخذون منها را داً لمعادهم ينجيهم من عذاب الله « **يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم** » . وهذه النصيحة من أجل نصائح رسول الله ﷺ إذ كان عليه السلام أعلم الناس بتأثير الفتن في صرف العباد عن صالح الأعمال وعن طاعة الله وقد ورد في معنى هذه النصيحة نصائح أخرى كثيرة منها قوله عليه الصلاة والسلام: « اغتنم خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك ، وغناك قبل فقرك» وفي معناها قوله تعالى : « **وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين** » . ولقد كان السلف الصالح رضي الله عنهم يوجسون خوفاً من ظهور الفتن فكانوا يسابقونها بالعمل الصالح لأنهم يعلمون أن أمامهم مفاوز وعقبات في سفر طويل إن لم يتزودوا لها لم يستطيعوا قطعها وقد رويت في ذلك آثار كبيرة قال سحيم مولى بني تميم جلست إلى عامر ابن عبدالله وهو يصلي فأوجز في صلاته ثم أقبل وقال : أرحني بحاجتك فإني أبادر فقلت من ؟ أي من الذي تبادره وتسابقه قال ملك الموت فقمت عنه وقام إلى صلاته فيجب أن نعلم أن من سنن الله في معاملة الأمم المفتونة أن يوالي لها الإنذارات المؤذنة بحلول عقابه ونقمته فإن فاءت إلى رشدها يسر الله لها أمرها وإن عميت وغفلت عن النذر أخذها الله تعالى بعقابه وهاهي ذي النذر الإلهية تتوالى علينا بعدما فرطنا في جنب الله تارة بالرعب والخوف من بطش الأقوياء بنا وطوراً بالأزمات الاقتصادية الخانقة التي

هي عماد ثروة البلاد فلنبادر بالأعمال الصالحة قبل أن تحول بيننا وبينها الحوائل فأعظم آفات الأعمال تسويفها وأشد منها الغرور بما عمله المرء فيما سلف ولنحذر من الاعتماد على الأماني فإنها بضائع الموتى وهي التي أضلت من قبلنا وأغرتهم بترك العمل حتى وافاهم الأجل فإذا بهم يخرجون من الدنيا بالحسرات القاتلة والندم الذي لايجدي .

وفقنا الله للعمل الصالح ويسر لنا سبل التقوى إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

الشكوى من الزمان

أينما سرت وأنى حللت لا تسمع من الناس إلا الشكوى المريرة من الزمان والتبرم من الحياة والسخط على كل ما في الوجود ولا ترى أمامك إلا وجوهاً عابسة وزفرات حارة لا تدل إلا على معاني اليأس والقنوط .

تدخل محل تجارة لتشتري بعض السلع فيلقي عليك التاجر محاضرة طويلة في ركود السوق وكساد الحال ويتلو على مسامعك شكواه الأليمة من الخسارة التي تتوالى عليه كل يوم وأنه يفكر في هجر التجارة إلى عمل آخر لقلة فائدتها وضياع الوقت فيها وأن المكاسب قد قلت وأصبحت التجارة على أربابها وبالا وخسراناً وتقابل صانعاً من الصناع فيدور بينكما الحديث فلا تسمع منه أيضاً غير عبارات السخط والشكوى أما الفلاح الذي عرف دائماً بالقناعة والرضا بما قسم الله فلست ترى منه إلا الحسرات ونغمات الألم وزفرات الحزن ولن تراه إلا شاكياً ساخطاً يشكو الضر وينبئك أنه أصبح لا يجني من زراعته غير التعب بسبب الجفاف وقلة الأمطار وأن الديون قد أثقلت كاهله ولقد تسمع هذا اللحن أيضاً من بعض الموظفين الذين يأخذون راتبهم من الحكومة في كل شهر ولكنهم على الرغم من ذلك يقولون لك إن المرتب أصبح لا يكفيهم لغلو المعاش وإنهم من مدة لم تشملهم الترقيات .

هكذا تتصاعد في هذه الأيام من مختلف الطبقات أصوات الشكوى من الزمان وضيق الحال وهي إن دلت على شيء في العقيدة فإنما تدل على ضعف في الإيمان وعلى خور في العزيمة وزعزعة في الإرادة .

إن الله سبحانه وتعالى الذي خلق الناس ويعلم ما يسرون وما يعلنون هو الذي قدر اليسر وهو الذي قسم الأرزاق بين عباده كما شاء بحكمته العالية ولكن الطمع الذي يتغلغل في النفوس ويتحكم في بعض الضمائر يدفع بالشاكين إلى الشكوى ويحتم عليهم أن لا يقنعوا بما هم فيه .

و الله قسم بين الخلق رزقهـــــم . لم يخلق الله مخلوقـــــاً يضيعه
لكنهم ماثـــوا حرصاً فلست ترى مسترزقاً وسوى الغايات تقنعـــه

إن الإنسان لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا تجديه شكايته إلا الهم والحسرات كما قيل :

ويمنعني بشكواي للناس أننـــي عليل ومن أشكو إليه عليـــل
ويمنعني شكواي لله أنـــــه عليم بما أشكوه قبل أقـــول

روي أنه لما دخل علي بن أبي طالب رضي الله عنه جامع البصرة وجد الحسن البصري يعظ الناس فقال له يا فتى إني سائلك عن أمر فإن أجبتني عنه أبقيتك ترشد الناس وإلا أقلتك فقال الحسن سل عما شئت قال : ما ملاك الدين ؟ قال : الورع ، قال : فما فساد الدين ؟ قال الطمع ، قال : اجلس فمثلك من يعظ الناس وليس من الطمع أن تسعى وتجد في تحصيل الرزق لأن ذلك يحفظ عليك كرامتك وعرضك فهذا واجب في الدين وطريق الحياة الشريفة إنما المشين أن تذل نفسك وتتطلع إلى ما في يد غيرك فقليل مع الكرامة أفضل من الدنيا وما فيها من المذلة والمهانة وصدق الذي قال :

العبد حر ما قنـــــع والحر عبد ما طمـــع
فاقنع ولا تطمـــــع فما شيء يشين سوى الطمـــع

والشكوى إلى الناس تقلل من احترام الإنسان وتنزل من كرامته في نظر بعض الناس في هذا الزمان كما قيل :

لا تشك بؤســـك إلا لمن يعالج بؤســـك
أو فاكتم الهم واسكـــت أأنت تفضح نفســـك

إن الدنيا بخير والحمد لله وهي مليئة بالنعم والخيرات التي من الله بها

على عباده وإنما ران الطمع والجشع على قلوب بعض الناس فالعاقل هو الذي يقنع بما قسم الله فالقناعة كنز لا يفنى وهي رأس مال الصالحين من رزقها فقد رزق الخير وسعد في الدنيا والآخرة .

أسأل الله أن يرزقنا القناعة ويجعلنا من المؤمنين القانعين ويوفقنا لشكره وأن يجعلنا بما قسم لنا راضين .

الطمع والحرص وأثرهما

جاء في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : اشترى رجل من رجل عقاراً فوجد الذي اشترى العقار في عقاره جرة فيها ذهب فقال الذي اشترى العقار خذ ذهبك إني اشتريت منك الأرض ولم اشتر الذهب وقال الذي له الأرض إنما بعتك الأرض وما فيها فتحاكما إلى رجل فقال الذي تحاكما إليه ألكما ولد ؟ قال أحدهما لي غلام وقال الآخر لي جارية قال إنكحا الغلام الجارية وانفقا على أنفسهما منه .

تأملوا معي أيها الإخوان في هذا الحديث لتعرفوا كيف كان رسول الله ﷺ يرغب أصحابه في القناعة ليزيل عن أنفسهم الطمع والحرص وعدم النظر إلى ما في أيدي الغير وتأملوا إلى زهد الرجلين في حطام الدنيا وتمنع كل منهما عن أخذ الذهب ولو حدث هذا في زماننا لحصل الخصام والنزاع والتضارب بل لسالت الدماء أنهاراً لأن الناس في هذا الزمان أصبحوا ماديين في جميع مظاهرهم فمهمة غالب الناس جمع المال بكل الوسائل بسببه تداس الكرامة ويضحي صاحبه بشرفه فتراه يكذب وينافق ويغش ويخدع وصدق رسول الله ﷺ يهرم ابن آدم ويشب معه إثنتان الأمل وحب المال .و لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب ولو رجع الإنسان إلى دينه لعلم أن الرزق مكتوب مع الأجل وأن الطمع لا يزيد الإنسان إلا عذاباً ونصباً وأنه لن يخرج من الدنيا حتى يستوفي ما كتبه الله له فقليل مع الكرامة أفضل من الدنيا وما فيها من المذلة والمهانة ورحم الله الذي يقول :

وذي حرص تراه يلم وفراً لوارثه ويدفع عن حماه
ككلب الصيد يمسك وهو طاو فريسته ليأكلها سواه

وليس ما نراه اليوم من الجرائم الكثيرة من سرقة وقتل إلا أثراً سيئاً من آثار الحرص والطمع ، قرأت في بعض الصحف من زمن غير بعيد أن رجلاً من أغنياء الهند مات عن ولد وحيد له ثلاثة من أبناء عمه وهؤلاء تآمروا على قتله ليرثوه ويتمتعوا بالثروة الكبيرة التي خلفها فاستأجروا له أحد الأشقياء ليقتله وأعطوه بعض المال فذهب الشقي إلى المدرسة وطلب من المدير أن يسلم له الولد لأن عمه يريد مقابلته فصدقه المدير وسلمه له فذهب به إلى منزل وأدخله فيه وأجلس الصبي على كرسي وذهب إلى أحد الغرف وحمل معه فأساً وخبأه في قفة وخرج لينفذ أمره فإذا بحية خارجة من الغرفة المقابلة فلدغته فأردته قتيلاً وذهبت الحية والتفت حول الصبي الصغير تداعبه وتحرسه فصرخ الصبي فزعاً منها فحضر الناس على صوت الصبي فرأوا القتيل ومعه أداة الجريمة ولم تمس الحية الصبي بسوء .

نأخذ من هذه القصة أن الله هو القاهر فوق عباده فالحية التي تعتبر من ألد أعداء الإنسان سخرها الله لهذا الصبي ليعاقب بها القاتل فقتلتهوإن الله أرسلها جندياً لحراسة الصغير حتى يحضر من يتولاه لرده إلى منزله وأن السبب في تآمر أولاد عمه هو الطمع الذي هو من أعظم الأمراض الخبيثة التي تفتك بالمجتمع الإنساني لأن عنه يتولد الحقد والبغض والحسد فهو داء ووباء وبلاء ما تلبس به إنسان إلا سلب منه الهناء والراحة والطماع أحقر رجل في هذه الدنيا وإن ظنه الناس عظيماً وإذا كان الإنسان ليس له من الدنيا إلا ما أكل فأبلى أو لبس فأفنى أو تصدق فأمضىفلماذا الطمع والتطلع على ما في أيدي الناس لما في ذلك من ضياع الشرف وذهاب المروءة ويرحم الله الإمام الشافعي فقد أحسن وأبدع في قوله :

أمت مطامعي فأرحت نفسي فإن النفس ما طمعت تهون
وأحييت القنوع وكان ميتاً ففي إحيائه عرضي مصون
إذا طمع يحل بقلب عبد علته مهانة وعلاه هون

الأسرة في الإسلام

المرأة قبل الإسلام وبعده

أعطى الإسلام المرأة من الكرامة في داخل الأسرة وخارجها مالم يعطه لها أي دين آخر فقد اعتبرها إنساناً كاملاً لها حقوق الإنسان وقد كانت المرأة قبل الإسلام مضطهدة ذليلة مهانة لا رأي لها في شأن من الشؤون العامة ولا الشؤون الخاصة بنفسها إذ كان أولياؤها يغصبون كثيراً من حقوقها الطبيعية ولم تستطع المرأة أن تجد في وسط ذلك المجتمع المضطرب التائه في بيداء الجهل والضلال من يأخذ بناصرها ويحفظ لها حقوقها ويصون كرامتها ومنزلتها إذ لم يكن للقوم شرع يهتدون بنوره ولا قانون منظم يحدد حقوقهم وواجباتهم وكيف يرجى النظام من أمة خيم عليها ظلام الجهل فأضل العقول والأفكار وتركهم في غيهم يعمهون ؟ أم كيف يرجى فيها حفظ الحقوق والجهل حليف الفوضى والظلم وليس أدل على ذلك الظلم الفادح مما رواه التاريخ من إجحافهم بحقوق المرأة فقد كان وليها يغصب مهرها ولا يعطيها شيئاً منه وكانت تباع وتشترى وتكره على الزواج وعلى البغاء ، تورث ولا ترث وكان للزوج الحق في التصرف في مالها بدون إذن منها حتى إن بعض رجال الأديان في العهد القديم قد قرر أنها حيوان نجس بكم فمه كالبعير والكلب العقور لمنعها من الكلام والضحك لأنها أحبولة الشيطان وكانت أعظم القوانين تبيح للوالد بيع ابنته ومنهم من لا يرى القصاص على الرجل في قتل المرأة وكانت تلقى احتقاراً وهواناً وازدراء ومقتاً يدلكم على ذلك أن أحد الملوك كان يحارب بعض خصومه ذات يوم فرمته امرأة بحجر من فوق الأبراج فهشم

شطراً من جبهته ولما أيقن بالهلاك نادى خادمه قائلاً له: استل سيفك وآضربني به لئلا يقال قتلتني امرأة وقد كان الخادم باراً لسيده وحريصاً على كرامته فآستل سيفه وطعنه به فمات من عار القتل من يد امرأة.

وكان (أفلاطون) يحقر المرأة فلقد رأى امرأة عوراء فقال: «ذهب نصف الشر» ورأى ذات يوم امرأة مشرفة على الغرق فبدلاً من نجدتها قال «شر أخذ شرا» ورأى فتاة تتعلم فقال: «سيف يسن الشر» ورأى امرأة تشاور نسوة فقال: «ثعبان تقترض من أفعى».

بمثل هذه المعاملة القاسية عوملت المرأة قبل الإسلام فكانوا يرونها شيئاً محتقراً حتى اعتادوا وأدها يعني قتلها وكان الوأد عن طرق عدة منها أنهم كانوا يحفرون حفرة ويلقونها فيها ويهيلون عليها التراب فتلاقي حتفها ومنها أنهم كانوا يصعدون بها إلى أعلى مكان في الجبل ويلقونها منه وهذا ما نهاه الله عليهم بقوله «**وإذا بشر أحدهم بالأنثي ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب الأساء ما يحكمون**».

إلى هنا نختصر القول ثم لننظر إلى حال المرأة في الإسلام، الإسلام كرم المرأة ورفع قدرها وكفل لها حقوقاً لم تكفلها لها أعظم الدول حضارة وعلماً وفتح لها باب العلم على مصراعيه وأشركها مع الرجل في خطاب التكليف مع ما يتفق مع تركيبها الجسماني وصرح القرآن الكريم بأنها هي والرجل سواسية في الحقوق والواجبات قال تعالى: «**ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة**».

وقد فهم المسلمون الأولون تقدير القرآن لمقام المرأة فكانوا يعاملونها بمقتضى الرأفة والعطف ما دامت قائمة على حدود الدين والفضيلة فكانت تحضر المجتمعات وتعلن رأيها فيها بكل صراحة ولو خالف أكبر الحاضرين مقاماً وأعظمهم جاهاً فلقد رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه غلو الناس

في مهور النساء حين اتسعت عليهم الدنيا في عصره فخاف عاقبة ذلك وهو ما نشكو منه اليوم مر الشكوى فنهى الناس على أن يزيدوا فيها على أربعمائة درهم فحاجته امرأة من قريش فقالت : أما سمعتم ما أنزل الله ؟ إنه يقول : « **وإن أردتم آستبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً** » فقال عمر اللهم غفراناً أصابت امرأة وأخطأ عمر كل الناس أفقه منك يا عمر حتى النساء وصعد المنبر وأعلن رجوعه عن قوله .

ولقد حضرت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان بيعة النساء وهي متنكرة لئلا يعرفها الرسول ﷺ فإنها هي التي كانت أخرجت كبد عمه حمزة يوم أحد ومضغتها ولاكتها شماتة وانتقاماً ثم لفظتها فكانت ترد على الرسول في كل جملة ، قال النبي : « أبايعهن على ألا يشركن بالله شيئاً » فقالت إنك والله تأخذ علينا أمراً ما رأيناك أخذته على الرجال فقال : « ولا يسرقن » فقالت هند إن أبا سفيان رجل شحيح وإني أصبت من ماله فلا أدري أيحل لي أم لا ؟ فعرفها النبي وقال « وإنك لهند بنت عتبة » فقالت نعم فاعف عما سلف فقال النبي : « عفا الله عنك» ثم قال « ولا يزنين » فقالت أو تزني الحرة؟ فقال « ولا يقتلن أولادهن » . فقالت ربيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً وكان ابنها حنظلة قتل يوم بدر فقال : « ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن » فقالت : والله إن البهتان لقبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق فقال : ولا يعصينك في معروف ، فقالت ما جئنا في مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك : فأقر النسوة بما أخذ عليهن ولم يقل الإسلام في المرأة إلا كل ما فيه إجلالها وإكبارها فلقد خص الله النساء بسورة مستقلة سميت « سورة النساء » وقرر فيها حقوقهن في قوله « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان الأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضا ، وقال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً**» ، الآية ، وقال : « **وإن أردتم استبدال زوج مكان زوجٍ وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثما مبيناً وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً** » .

الاسرة في الاسلام

مركز المرأة في السلف الصالح .

حدثناكم في درسنا السابق عن حالة المرأة قبل الإسلام وكيف أنها كانت مضطهدة لا رأي لها في شأن من الشؤون العامة ولا من الشؤون الخاصة بنفسها إذ كان أولياؤها يغصبون كثيراً من حقوقها الطبيعية ولا تجد من يأخذ بناصرها أو يحفظ لها حقوقها ويصون كرامتها ومنزلتها إذ لم يكن للقوم شرع يهتدون بنوره ولا قانون منظم يحدد حقوقهم وواجباتهم لذلك ظلوا في طغيانهم يعمهون وفي هذا الدرس سنحدثكم عن مركز المرأة في الإسلام . كانت المرأة في عهد رسول الله ﷺ تصلي في المساجد وتحضر مجالس العلم وميادين القتال وتراجع الخلفاء وتجادلهم وعن كثير منهن أخذ الدين والفقه والقرآن والحديث ولقد عاشت السيدة عائشة رضي الله عنها بعد رسول الله ﷺ أربعين عاماً روي عنها في خلالها أكثر من ألف حديث حتى قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : ما أشكل علينا حديث قط فسألنا عائشة عنه إلا وجدنا عندها فيه علماً وقد قال عليه الصلاة والسلام « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء »

وهذه خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها شكا لها رسول الله ﷺ ما أصابه من الخوف عندما فاجأه الملك في غار حراء فأمنت خوفه وأذهبت فزعه ودثرته وواسته بما لها وأعانته على تلقي الوحي . ولم تكن خديجة تلميذة في مدرسة أو كلية أو جامعة ولكنها نشأت في أسرة طيبة صالحة لتخريج الطيبات وكانت بنت الإمام مالك رضي الله عنها حفظت

الموطأ وكانت تدق الباب إذا لحن قارىء الموطأ على أبيها حين كبر أبوها سناً فكان بعض الأخطاء يمر عليه ولا ينتبه له فتدق هي الباب فينتبه الإمام ويقول للقاريء إرجع فالغلط معك فيرجع القاريء فيجد الغلط معه وابنة سعيد بن المسيب المحدث المشهور الذي روى عنه الإمام البخاري ووثقه قد ضربت بسهم في علوم الدين حتى أن زوجها لما أصبح من الليلة التي زفت فيها إليه وكان من تلاميذ أبيها أخذ رداءه يريد الخروج فقالت له إلى أين ؟ قال إلى مجلس سعيد يريد أباها لتعلم العلم قالت له : اجلس أعلمك علم سعيد ويضيق المجال عن تعداد من اشتهرن بالشعر والأدب كليلى الأخيلية وبكارة الهلالية وزينب بنت محمد بن عثمان التي كانت عالمة بالفقه والحديث فتحت حلقة دروس لا يقل من يحضرها عن الخمسين طالباً وطالبة ومن تلاميذها الحافظ بن حجر الذي ألف في فنون الأدب والحديث ما ينيف عن المائة وخمسين تصنيفاً ونحن إذا أمعنا النظر وجدنا أن نبوغ الصحابة رضي الله عنهم كان الفضل فيه يرجع إلى أمهاتهم فأمير المؤمنين علي بن أبي طالب أمه فاطمة بنت أسد وعبد الله بن عباس أمه لبانة بنت الحارث الهلالية والزبير بن العوام أمه صفية بنت عبد المطلب وعبد الله بن الزبير أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ومعاوية بن أبي سفيان أمه هند بنت عتبة وغيرهم كثير فما كان هؤلاء الأفراد إلا أطفالا صغاراً وصاروا رجالا قد تلقوا دروسهم الأولى من أمهاتهم فكن الأستاذ الأول لهم لأن الأم المهذبة خير للطفل من سبعين معلماً ذلك لأن الطفل في تكوينه العقلي يحتاج إلى أم صالحة عرفت الطرق المنتجة في تثقيف أولادها فسلكتها لذلك يتغنى شاعر النيل بأخلاق الأم :

والأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعباً طيب الأعراق

وليست المرأة الصالحة هي التي تؤدي شعائرها الدينية فحسب بل لا بد لها أن تكون وفية بعهدها لأبنائها مخلصة لزوجها أمينة على وطنها مدبرة لشؤونها لذلك كانت السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها خير قدوة

للنساء اللاتي يردن أن يعشن عيشة راضية سعيدة مباركة مع أزواجهن وأحسن مثال تقتدي به السيدات المثقفات اللاتي هذبن العلم فهجرن زخارف الحياة الكاذبة وانصرفن عن الشهوات الفاسدة إلى ما فيه الفوز والخير والفلاح .

فكانت رضي الله عنها آية في النبوغ ومعجزة في الذكاء وحسبكم أن أصحاب النبي ﷺ وأئمة الدين نقلوا عنها ما يزيد على ربع الأحكام الشرعية ولها ألفان ومائتان وعشرة من أحاديث الرسول ﷺ اتفق البخاري ومسلم على مائة وأربعة وسبعين حديثاً منها وانفرد البخاري بأربعة وخمسين حديثاً وانفرد مسلم بثمانية وستين حديثاً ولقد روى الترمذي بسنده إلى أبي موسى الأشعري أنه قال : « ما أشكل علينا معشر أصحاب الرسول ﷺ حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً » وقال عروة ابن الزبير : « ما رأيت أحداً أعلم بالقرآن ولا بفريضة ولا بحرام ولا بفقه و لا بشعر ولا بطب ولا بنسب من عائشة » . وقال معاوية : « ما رأيت خطيباً قط أبلغ ولا أفصح ولا أفطن من عائشة » وعن مسروق قال : رأيت مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ الأكابر يسألونها عن الفرائض وكان إذا حدث عنها قال : « حدثتني الصديقة بنت الصديق البريئة المبراة وقال الزهري : لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أمهات المؤمنين وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أكثر وفي البخاري عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال : فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام » ولقد حدث هشام بن عروة عن أبيه أنه كان يقول لعائشة : يا أمتاه لا أعجب من فقهك لأني أقول زوجة رسول الله ﷺ وابنة أبي بكر الصديق ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس لأني أقول ابنة أبي بكر وهو أعلم الناس بالأنساب ولكن أعجب من علمك بالطب كيف هو ومن أين هو ؟

ولقد نقل إليها أن عبد الله بن عمر روى أن النبي ﷺ قال : « الشؤم في ثلاث : المرأة والدار والدابة فأنكرت أن يكون من كلام النبي وقالت إنما حكاه النبي عن أهل الجاهلية وأقوالهم ثم قرأت قول الله (ما أصاب

من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير) ولذلك سمعت أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه فقالت : رحم الله عمر ما حدث رسول الله بذلك ولكن قال: إن الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه ثم قالت : حسبكم كتاب الله الذي يقول « ولا تزر وازرة وزر أخرى » تعني السيدة عائشة أن المشركين في الجاهلية كانوا يوصون أهليهم بالنياحة والندب عليهم بعد موتهم وكان ذلك من عادة العرب أيضاً قال طرفة بن العبد :

إذا مت فابكيني بما أنا أهله وشقي علي الجيب يا أم معبد

فالميت هو الذي يعذب أو يزداد عذابه بتلك الوصية أما الذي لم يأمر أهله بالنياحة عليه بعد موته أو ينهاهم عن ذلك قبل موته فإنه لا يصيب من نياحتهم عليه شيء بل يكون الإثم على النائحين والنائحات .

وقيل لعائشة إن أبا هريرة يروي عن النبي ﷺ أن امرأة عذبت في هرة قال: فقالت عائشة: إن المرأة كانت كافرة يا أبا هريرة أنت الذي تحدث عن رسول الله ﷺ أن امرأة عذبت بالنار من أجل هرة لاهي أطعمتها ولا سقتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض شيئاً حتى ماتت قال أبو هريرة سمعت هذا الحديث عن رسول الله فقالت عائشة : المؤمن أكرم عند الله عز وجل من أن يعذبه من أجل هرة فالمرأة كانت كافرة .

وبلغ عائشة أن أبا هريرة يقول :إن رسول الله ﷺ قال : لأن أقنع بسوط في سبيل الله أحب إلي من أن أعتق ولد الزنا فقالت عائشة رحم الله أبا هريرة أساء سمعاً فأساء إجابة فقوله لأن أقنع بسوط في سبيل الله فإنها لما نزلت « فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة » قيل يا رسول الله ما عندنا ما نعتق إلا أن أحدنا له الجارية السوداء تخدمه وتسعى إليه فلو أمرناهن فزنين فجئن بأولاد فأعتقناهم فقال الرسول عليه السلام « لأن أقنع بسوط في سبيل الله أحب إلي من أن آمر بالزنا » .

وسمع شيخ من أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله ﷺ : من

أحب لقاء الله أحب لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه وليس منا أحد إلا وهو يكره الموت فقالت عائشة : رحم الله أبا هريرة حدثكم بآخر الحديث ولم يحدثكم بأوله وهو قول رسول الله ﷺ : إذا أراد الله بعبد خيراً بعث إليه ملكاً في عامه الذى يموت فيه فيسدده ويبشره فإذا كان عند موته أتى ملك الموت فقعد عند رأسه فقال أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى ربك راضية مرضية فعند ذلك يحب لقاء الله ويحب الله لقاءه .

فأنتم ترون أيها السادة أن علم عائشة رضي الله عنها كان غزيراً وأدبها كان كثيراً وعقلها كان وفيراً وكان ذلك مما حبب النبي ﷺ فيها وجعل كبار الصحابة يستفتونها ويرجعون إليها في كثير من مشكلات الفتاوى والأحكام فتفتي بما يشفي الغليل مع إقامة الدليل .

الأسرة في الإسلام

ما معنى الأسرة :

عني الإسلام بالأسرة بوصفها البيئة الأولى في بناء المجتمع فإذا ما صلح بناء الأسرة وقوي تكوينها قوي المجتمع وشمخ بنيانه .

والأسرة معناها التعاقد بين الزوجين في ظل الأحكام الشرعية قال الله تعالى : « **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** » وقال تعالى : « **ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً** » وقال تعالى : « **هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها** » وقال جل ذكره وعز ثناءه : « **والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات** » .

يرشدنا الله تعالى بهذه الآيات إلى حكم جليلة تترتب على الزواج منها سكون الرجل إلى شريكة حياته تشاطره سراء الحياة وضراءها وتمحو بابتسامتها متاعبها وشقاءها وتعينه على أعباء الحياة المنزلية وتربي أولاده تربية سامية وتقوم بتعهد شؤونه الداخلية وتكون له في الشدة مسلياً وفي الرخاء نعيماً ، وهذا هو أهم ما يرجوه المرء من سعادة الحياة الدنيوية ولذلك جعل الله تعالى زوج الإنسان من نوعه ليتم بينهما التآلف والتعاطف والرحمة والمودة وجعل التوفيق بين طبائعهما المختلفة وغرائزهما المتباينة آية من آيات قدرته وحكمته وحث الناس على التفكر في تلك الآية الجليلة ليخضعوا لعظمته ويذعنوا لربوبيته ويؤمنوا بحكمته ويسبحوا بحمده بكرة وعشيا .

ومنها تناسل الأبناء والأحفاد الذين يخلدون مآثر الآباء والأجداد على مر السنين والأحقاب ويكونون عوناً للأب في شيخوخته ويرفهون عن نفسه متاعب الحياة وبهم يبقى النوع الإنساني في الأرض إلى أن ينتهي عمر الدنيا ويرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ولا ريب أن الأولاد من نعم الله على العبد في الدنيا وهم زينتها وبهجتها وفي اعتقادي أن الرجل الذي لا زوجة له لو شعر بما يشعر به المتزوج وعرف ما يتمتع به رب الأسرة في بيته بين زوجته وأطفاله لعلم أنه فقد كثيراً من لذة الحياة إنه يجد زوجة تلقاه بصدر رحب وابتسامة سرور ويجد أطفالا تتهلل وجوههم بشراً بقدومه وتفرح قلوبهم برؤيته ويسعون للقائه في كلمات الطفولة ونغماتها العذبة الصادقة الخالصة من الرياء فتريح تعبه وتدخل السرور على قلبه . حقاً لو شعر الأعزب بذلك كله لآثر حياة الزوجية على حياة العزوبية ورأى حياته التي يقضيها بين المقاهي ومحلات اللعب والجلوس مع بنات الهوى حياة لا خير فيها لنفسه ولا لوطنه .

إن الأعزب أقرب إلى الشر منه إلى الخير وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال لعكاف بن وداعة الهلالي : ألك زوجة يا عكاف ؟ قال : لا ، قال : وأنت صحيح موسر ؟ قال : نعم والحمد لله قال : فأنت إذاً من إخوان الشياطين شراركم عزابكم ويحك يا عكاف تزوج ، فقال عكاف : يا رسول الله لا أتزوج حتى تزوجني من شئت فقال رسول الله : قد زوجتك على اسم الله والبركة كريمة كلثوم الحميري .

يتضح لنا من هذا الحديث أن الشارع رغب في الزواج وحرض عليه ليعصم الإنسان نفسه من التورط في المنكر والوقوع في حماة الرذيلة التي تنافي الشرف والدين والمروءة وتجلب على صاحبها العار في الدنيا وعذاب الله في الآخرة فإذا كان للزواج هذه الفضيلة في صيانة الآداب العامة في الأمة وعصمة الفتيان والفتيات من السقوط في الزلل فلماذا نرى الاعراض عنه شائعاً بين شباب اليوم ؟ ما بالنا نرى التأفف منه فاشياً فيهم حتى ظهرت هذه الأزمة الخطيرة .

وفي نظري أن إحجام الشبان عن الزواج والزهد فيه ناشىء عن سوء سيرة الفتاة إن الفتى يرى الفتاة برزت في الطريق بوجه مصنوع غير مطبوع وقد أبدعت نقشه وتلوينه لابسة من الثياب ما ينم على من تحته ويلفت النظر إلى استطلاع ما وراءه ويراها كاشفة عن ثديها وفخذيها حاسرة عن ذراعيها تختال في مشيتها غادية رائحة متمايلة تقطع النهار والليل في غشيان النوادي حتى إذا جن عليها الليل تأبطت ذراع بعض المفتونين من شبان اليوم وسارا معاً إلى الملهى والمرقص وما يجري هناك تتلقنه وتعتاده .

لا أظن أن هذه الفتاة تصلح أن تكون بعد ذلك زوجة صالحة تنعش الزوج وتقوم بمسؤولية البيت هذا وأمثاله يحصل كل يوم وكل ليلة في البلد ووالدها لا يدري أين هي ولا يستطيع أن يسألها أين كانت فلا تعجب إن رأينا الشبان يحجمون عن الزواج ويرون أن الإضراب عنه أمر لا بد منه خوفاً من أن يبتلي بزوجة من هذا الصنف الذي لا يعرف حقوق العشرة ولا الواجب على الزوجية .

إن خير علاج لهذه الحال السيئة أن يأخذ أولياء أمور الفتيات في تربية فتياتهم بالحزم ويعملوا على مراقبتهم بالحكمة وبذلك يستطيعون القضاء على هذا الانحراف .

صفة المرأة التي تستحب خطبتها .

المرأة شريكة الرجل وأول مربية لأولاده في مدرسة الحياة فينبغي أن تكون على جانب عظيم من الفضائل والكمالات الخلقية والعلم بشؤون المنزل وطرق تدبيره وأساليب التربية الفاضلة التي تغرسها في نفوس أطفالها وهم في طور المرونة وأوان الصبا الذي يكون الطفل فيه خاضعاً لتأثير من حوله وتتأثر فيه ملكاته بما يلقى إليه من التعاليم وما يغرس في نفسه من الأخلاق وتكون فوق ذلك صالحة ملمة بأحكام دينها وفضائله خصوصاً ما يتعلق منها بالنساء وتعرف حق ربها وواجبات منزلها وأولادها فإذا تخير الرجل لنفسه زوجة على هذا النحو عاش سعيداً هادىء البال ممتعاً في حياته المنزلية

موفور الكرامة عند زوجته لا يجد من مغص العيش ومتاعب الحياة ما يئن منه كثير الناس وإلى ذلك يشير الحديث الذي أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : « قال رسول الله ﷺ الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة » وقد دلت الأبحاث النفسية على أن للمرأة تأثيرا كبيرا في سلوك الأطفال في صغرهم وفي مستقبل حياتهم لأن الصفات الخلقية التي يكون عليها الآباء تنتقل جرثومتها بالوراثة إلى نفوس الأطفال وتظل كامنة فيها كمون النار تحت الرماد فإذا وجدت بيئة صالحة لنموها نمت وترعرعت وأصبحت صفات ثابتة وملكات نامية وإن لم تجد ما يعين على ظهورها من البيئات ظلت استعداداً كامناً في نفس الطفل تنتظر الفرصة الصالحة لظهورها ونموها .

ومسألة وراثة الصفات الخلقية قد شعرت بها الأمم قديماً وحديثاً فقديماً قال العرب في أمثالهم السائرة « هل تلد الحية إلا حية » وقالوا : « إن العصا من العصيا » .

وقد جاء في الأثر « تخيروا لنطفكم » فإذا كانت وراثة الصفات أمراً مقرراً مطرداً وكان استعداد الأطفال تابعاً لما عليه الآباء من الصفات الخلقية فجدير بالرجل العاقل أن يتخير لأولاده أماً صالحة فاضلة مهذبة تعرف حقوق ربها وحقوق زوجها وأولادها أما المرأة الفاسدة الشريرة التي لا ترعى حق الله ولا تعرف واجب الزوج ولا تعني بتدبير المنزل ولا توجد عندها الملكات الأخلاقية الفاضلة فهي أشد خطراً على الأولاد من السم الزعاف لأن ما عندها من جرثومة الشر ينتقل بالوراثة إلى أولادها وقد يندمج هؤلاء في البيئات الفاسدة فينمو استعداد الشر عندهم وتظهر آثاره السيئة في سلوكهم فيصيرون بلاء على أنفسهم وعلى أمتهم على أن تأثير المرأة في الطفل لا يقف عند هذا الحد لأن الطفل لا يكاد يدرك ما حوله من الأشياء حتى يكون له أول أستاذ له في الحياة أمه التي هي أكثر الناس اتصالا به فيحاكيها في أقوالها وأفعالها ويتأثر بطبائعها ويتلقى أول درس

في الأخلاق منها ، فإذا كانت الأم فاضلة مهذبة صبغت نفسه بصبغة حسنة من الأخلاق القوية وإن كانت فاسدة لوثت نفسه وأفسدت أخلاقه وكانت قدوة سيئة له فإذا شب الطفل وتفتحت له مسالك الحياة اندفع في أهوائه وشهواته وهان عليه ارتكاب المنكرات لأن منازع الشر الكامنة في نفسه تدفعه في هذا السبيل وليس عنده من المناعة الخلقية ما يحجزه عن تيار الأهواء الفاسدة من هذا يتضح لنا أن أول واجب على الرجل أن يتخير المرأة الصالحة الفاضلة الدينة لينسل أولاداً فضلاء وقد حث رسول الله ﷺ على تزوج ذات الدين والخلق القويم فقد روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك» فهذا الحديث يدلنا على أن المرأة قد يرغب الرجال في تزوجها لمالها إن كانت مثرية ولجمالها إن كانت وضيئة ولحسبها وصيتها ومع ذلك أمر رسول الله ﷺ بالظفر بذات الدين الذي يضيء جوانب نفسها ويهذب عاداتها ليبين للناس أن الدين يجب أن يكون هو المقصد الأسمى من الزواج وهذا لا ينافي أن تكون المرأة المتدينة غنية وجميلة وذات حسب ونسب وشرف ولكن ينبغي أن يكون الباعث للرجل على زواجها هو دينها وخلقها لا مجرد المال والجمال والشهرة لأن هذه أعراض لا تتصل بجوهر النفس وهي عرضة للزوال أما إذا كان الباعث على زواجها هو الدين فلن يكون الزواج عرضة لعوامل الانحلال إذا زال المال وانطفأ مصباح الجمال في الكبر لكننا مع الأسف الشديد نرى أن كثيراً من الناس قد انصرفوا عن هذه الاعتبارات السامية وأصبح الحامل لهم على اختيار الفتيات للمال أو جمال الخلقة الظاهري وإن لم يصحبه جمال النفس ولا كرم الطبع وبعض الشبان يدفعه الغلو إلى الاهتمام بما تعرفه الفتاة من لغة أجنبية أو مهارة في رقص ولا يعبأ بما عدا ذلك من الناحية الأخلاقية والناحية الدينية غير ناظر إلى ما يجره هذا التطرف من تنغص الحياة ومن أجل ذلك تأخرت حياتنا تأخراً ظهرت آثاره جلية واضحة في هذا العصر فنحن إذن

لسنا في حاجة إلى فتيات يكن متعة الخاطر وزينة الحياة ولهو النفس فحسب بل نحن في أشد الحاجة إلى تكوين أمهات فاضلات يغرسن في نفوس الأطفال مباديء المجد والشرف ومعرفة الواجب في الحياة حتى تتبوأ الأمة المكانة السامية اللائقة بها بين الأمم ولو راجعنا التاريخ ونظرنا في سيرة عظماء الرجال الذين قاموا بأجل الخدمات الإنسانية ورفعوا منزلة أممهم وجدنا للأمهات الفاضلات أعظم الأثر في مجد هؤلاء العظماء وإنهن كن منشأ البواعث النفسية التي دفعتهم إلى المغامرة في ميدان الحياة العملية حتى كونوا لنفسهم مجداً خالداً فجدير بنا معشر المسلمين أن نراعي تلك الحكمة الجليلة التي جاءت السنة النبوية الشريفة بها لنبني حياتنا المنزلية على أقوى الأسس وأمتن الدعائم والله الموفق إلى أقوم طريق .

نحو أسرة طيبة

أحكام الخطبة ــ جواز النظر إلى المخطوبة .

أباحت الشريعة الإسلامية للرجل أن ينظر إلى من يريد خطبتها واتخاذها زوجة ليرى بعينيه ما يرغبه في العقد عليها وليكون على بصيرة من أمره حتى لا يعض بنان الندم ولا تذهب نفسه حسرة إذا وجدها بعد الزواج على غير الصفة المرغوب فيها . وهذا من محاسن الشريعة الإسلامية ومزاياها الكبرى ورعايتها لمصالح الناس حتى يعيشوا في إخلاص وفي أمن ترفرف عليهم الوية الهناءة والسعادة .

والنظر هو العلاج الوحيد الذي يزيل شر الزواج ويجعل الرجل على بصيرة من أمره قبل الإقدام على توثيق عقد الزواج لأنه يطلعه على المرغبات في المرأة أو المنفرات عنها قبل البت في أمر العقد .

فالشاب الذي يريد خطبة فتاة يجب أن ينظر إليها قبل العقد فإذا كانت الفتاة تخرج سافرة فهو يراها المرة بعد الأخرى وأما إذا كانت محافظة وغير سافرة وتعلق غرضه بخطبتها يجب أن لا يقدم على عقد الزواج إلا بعد أن ينظر إليها والنظرة الواحدة كافية في ذلك فإنه كثيراً ما يرى الواحد منا شخصاً لم يكن رآه من قبل فلا يكاد يقع نظره عليه حتى يميل إليه ميلاً شديداً أو ينفر منه نفوراً عظيماً وذلك راجع إلى ما بين الأرواح المتجانسة من التآلف وما بين الأرواح المتناكرة من التخالف كما قال رسول الله ﷺ : الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » رواه الإمام البخاري .

ويختلف الميل إلى الشخص أو النفور عنه بحسب اختلاف أمزجة

الناس وطبائعهم فرب شخص يكون حسناً مرغوباً فيه عند واحد من الناس وقبيحاً مرغوبا عنه عند غيره فليس الاستحسان والاستقباح على درجة واحدة عند جميع الناس وليست ميولهم وأذواقهم متفقة في ذلك .

وقد ورد في السنة أحاديث كثيرة تؤيد وتثبت ما قلناه من جواز النظر . منها ما روي عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أنه خطب امرأة فقال النبي ﷺ : « آنظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » رواه الإمام البخاري .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال خطب رجل امرأة فقال النبي ﷺ : « أنظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئاً » رواه النسائي وعن محمد بن مسلمة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إذا ألقى الله عز وجل في قلب امريء خطبة إمرأة فلا بأس أن ينظر إليها » .

هذه الأحاديث تدل بصريح عبارتها على جواز نظر الرجل إلى الفتاة أو المرأة التي يريد خطبتها وإلى ذلك ذهب جمهور العلماء .

ومع كون الشريعة قد أباحت ذلك النظر لما تقدم من الأدلة ولما يترتب عليه من إظهار رغبة الرجل في المرأة رغبة صادقة أو رغبة عنها قبل الزواج فإن كثيراً من الناس قد آتبعوا بعض العادات التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم فحضروا على من يريد خطبة فتاة منهم أن ينظر إليها قبل العقد ظناً منهم أن ذلك ينافي الشرف والكرامة والغيرة وهم في ذلك جد مخطئين لأن الشارع الذي أباح النظر كان أغير الناس وأشدهم محافظة على الشرف والكرامة والله الذي أوحى بذلك التشريع الحكيم أغير من عباده وماذا يخيف هؤلاء إذا كان الرجل كفؤا وقد وثقوا بأخلاقه وفضائله ونبل عواطفه وإنه إما أن يقبل التزوج أو يرفض مع حفظ الكرامة .

ومن الناس من يكتفي بإرسال أمه أو أخته أو أية سيدة من أقاربه لرؤية الفتاة التي يريد خطبتها ويكتفي أن يعرف أوصافها مثل سواد شعرها وبياض وجهها وحمرة خديها وضيق فمها واعتدال قوامها وغير ذلك من صفات جسمها ويكتفي بتحكيم ذوق من يرسلها فهذا خطأ فاحش قد يؤدي إلى

انفصام عروة الزوجية بين الرجال والنساء الذين يتزوجون على هذا النحو لأن أذواق الناس وحكمهم على استحسان الشيء أو استقباحه تختلف باختلاف أمزجتهم وطبائعهم إختلافاً بيناً وليس الجمال من الأشياء المادية التي يعرف حجمها وقدرها ولكنه من الأمور الوجدانية فلا يجدي الرجل والحالة هذه أن تكون الخطيبة قد راقت في عين من شاهدتها من قريباته وإنما الذي يجديه أن يرى شخصاً حياً يجمع من الصفات ما يلائم ذوقه ويتفق مع رغباته ولا يكون ذلك إلا بنظره الذي أباحته الشريعة السمحة .

بقي أمر غاية في الأهمية لا بد من التعرض إليه وهو اختلاط الرجل بالفتاة التي يريد خطبتها ليعرف طبائعها ويدرس ميولها النفسية وملكاتها حتى توجد بينهما المحبة التي تملأ حياتهما المستقبلة هناءة وسعادة .

ولا يخفى ما سيترتب من الأخطار التي تنجم عن إباحة هذا الاختلاط والحقائق الملموسة والوقائع المشاهدة التي ذهب فيها العرض ضحية ذلك الاختلاط المشؤوم وصرع فيها العفاف أعظم شاهد على ما نقول ومن ذا الذي يرى الخد المورد والعين النجلاء ويحس من نفسه بالدوافع القهرية والجاذبية التي تجذبه إلى المرأة ثم يستطيع أن يعصم نفسه ولا رقيب عليه من التورط فيما يزري بالشرف والكرامة والعرض والوقائع الكثيرة تؤيد صدق هذا القول لأجل ذلك حرمت الشريعة الإسلامية الخلوة بالأجنبية حتى يوجد معها ذو محرم لها كما روي عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلون بامرأة ليس معها محرم فإن ثالثهما الشيطان » .

إني لأعجب لمن يسمح لابنته أو أخته أن تختلط بشاب كيفما كان أدبه وعلمه وجاهه وماله قبل أن يتم عقد الزواج وأعتقد أن هذا خطأ لا يغفر وذنب لا كفارة له إلا ثلم العرض وضياع الشرف والكرامة على أننا لو أبحنا للشاب أن يختلط بالفتاة فهل يمكن أن يستفيد ذلك الشاب في معرفة طبيعة الفتاة وأخلاقها معرفة صحيحة كلا ثم كلا إنه لن يستفيد إلا المجاملات والظهور بمظهر الكمال الذى ليس له فيه حظ ولا نصيب بل ربما كان هذا الاختلاط مدعاة لانخداعه وجر الوبال عليه .

نحو أسرة طيبة

هل يتوقف الزواج على رضا المرأة .

جرت العادة عند كثير من الأسر في بلادنا أن يتجنبوا الحديث مع البنت فيما يتعلق بالرجل الذى خطبها فلا تسأل هل تحب الاقتران به أم لا ولا يبحث أحد عن رغبتها وميلها ولا يحدثونها عن صفاته وأخلاقه بحيث توجد عندها صورة لشخصه تجذب ميلها إليه وتحقق رغبتها فيه إن كانت صفاته على ما ينبغي من الكمال ولا يهتم أحد منهم بتعرف ما تجيش به نفسها من أمر الزواج وهي لا تجد من نفسها جرأة على أن تبدي ما في ضميرها ويرى كثير من الناس أنه لا يليق بها أن يكون لها صوت في أهم الأشياء لديها فترى القريب والبعيد منهم يبدي رأيه في زواجها وهي صامتة لا تستطيع أن تنبس ببنت شفة ويظنون أن ذلك من كمال الحياء ورقي الآداب فتظل الفتاة جاهلة أمر الزواج حتى ترى نفسها بين يديه ليلة الزفاف وكثير من الآباء والأولياء يذهب بهم حب المال والرغبة في الشراء من طريق المصاهرة مذاهب الاستبداد بالفتاة المسكينة فيرغمها على قبول الزوج الذى اختاره لها وإن كانت تكرهه لينال من زواجها به مغنماً بارداً كما يتوهم أو فخراً كاذباً وفي كثير يكون هذا الزوج هو ما كانت صلته بالدنيا تنقطع وقد يكون سيء الأخلاق مستهتراً بالدين والأدب .

وعاقبة هذا الفعل الممقوت أن يتم العقد رغم أنف الفتاة وتأخذ كرهاً إلى منزل زوجها وهناك تصلى ناراً حامية كلها غم وهم . هناك يموت قلبها حسرة لمعاشرتها زوجاً لا تربطها به رابطة قلبية ولا تميل نفسها

اليه ولا تجد في قربه أنساً ولا سروراً فلا يلبث الجفاء أن يدب بينهما حتى تنتهي بنكبة تقوض دعائم تلك الأسرة وتذهب بها أدراج الرياح وقد ظن كثير من هؤلاء الجاهلين أن الفتاة في أيديهم عرض يباع ويشترى في سوق المزايدات فآستبدوا بها وجنوا على سعادتها وآمالها وهذه عادات باطلة لا يقرها الإسلام فقد رفع الإسلام من شأن المرأة المسلمة ومنحها كثيراً من الحقوق والمزايا التي لم تتمتع بها نظيرتها في الأمم الأخرى .

وكان من أخص ما منحه لها الإسلام أن آعتبر رضاها بالخاطب شرطاً في صحة عقد الزواج ليحقق لها سعادتها وآمالها حتى تقوم بواجبها في الهيئة الاجتماعية على أحسن ما ينبغي وما علينا إلا أن نسمع صوت شريعتنا في ذلك ونصغي إلى قول نبينا محمد ﷺ حتى نعلم مقدار عناية الإسلام بهذا الأمر الذى تتوقف عليه سعادة الأسرة وهناءتها .

عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الثيب أحق بنفسها من وليها والبكر تستأذن في نفسها وإذنها صماتها » رواه الجماعة إلا البخاري . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قال رسول الله ﷺ « لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا البكر حتى تستأذن » قالوا يا رسول الله وكيف إذنهما ؟ قال : أن تسكت . رواه الجماعة . وعن ابن عباس رضي الله عنه أن جارية بكراً أتت رسول الله ﷺ فذكرت أن أباها روجها وهي كارهة فخيرها النبي ﷺ رواه أحمد وآبن ماجة .

فهذه الأحاديث دليل على اعتبار الرضا من المرأة التي يراد تزويجها وإنه لا بد من إذنها إما بصريح القول إن كانت ثيباً أو بالقول وما يقوم مقامه من السكوت إن كانت بكراً سواء استأذنها الأب أو الجد أو غيرهما كما يفيد عموم الأدلة . وظاهر الأحاديث أن البكر إذا زوجت بغير إذنها لم يصلح العقد لأن النبي ﷺ أبطل العقود التي وقعت بإكراه وهو الموافق للمعقول ولسنة الرسول .

من هذا تعلمون أيها الإخوان كيف رفع الإسلام من شأن المرأة وجعل

حداً لطغيان الأولياء الذين يستغلون زواج الفتيات لأغراضهم الخبيثة ولو ضاعت سعادتها ضحية أطماعهم الجشعة فجدير بنا أن نتبع سنة رسول الله ﷺ ونترك البدع التي انتشرت بيننا ونتعظ بتجارب العصور الماضية فالسعيد هو الذى يتعظ بما ينزل بغيره من الكوارث والشقي هو الذى لا يتعظ إذا نزل به المكروه وأصابه الأذى .

فمما نقل عن الأوائل في ذلك أن الحارث بن سليل الأسدي زار علقمة الطائي فرأى ابنته وكانت من أجمل أهل زمانها فأعجب بها وخطبها إلى أبيها فقال علقمة للحارث إنك رجل ذو حسب وكرم ومثلك لا يرد طلبه غير أن لي شريكا فيها وهو أمها فانتظر حتى أكلمها فيها فأجابه إلى ما طلب ثم خلا علقمة بزوجته وحدثها بما كان فقالت أمهلني حتى أخلو بالبنت وأحدثها فيما قلت فاختلت بابنتها وسألتها : أي الرجل أحب إليك ؟ الكهل الواصل المناح أم الفتى الوضاح تريد أي الرجلين أحب إليها : الرجل الهرم الكثير المال والعطاء أم الفتى القوي الوضاح الجبين وإن كان فقيراً معدماً ؟ فقالت البنت : الفتى الوضاح أحب إلي فقالت لها أمها يا بنية ليس الفتى المعدم الذى يحوجك إلى أبيك كالشيخ القادم الذى يغنيك فقالت الفتاة : يا أماه إن الفتاة تحب الفتى كما يحب الراعي المرعى الخصيب على أن الشيخ يبلي شبابي ويشمت بي أترابي فلم تزل أمها بها حتى غلبتها على رأيها ورضتها به فتزوجها الحارث على مائة وخمسين من الإبل مهراً ثم انتقل بها إلى أهله وقومه وبعد شهور رحل بعض الشبان من قبيلة علقمة لمصارعة أمثال لهم من قوم الحارث فاجتمع الناس لرؤية تلك المصارعة وكان الظفر للشبان الذين هم من قبيلة الفتاة ، فلما رأت تلك المنظر تنفست الصعداء ثم دمعت عيناها فرآها الحارث فسألها ما سبب بكائها فأنكرت وألح عليها فقالت إنما أبكي لأني علمت أن أمي قد خدعتني ففهم الحارث ما أرادت وعرف سبب بكائها فقال لها : الحقي بأهلك وطلقها .

إن الذى أخبر بهذه القصة لم يرد تفكهة السامعين ولكنه أراد أن ينصحهم فأين المنتصحون .

فياليت آباء البنات وأمهاتهن والمعلمين والمعلمات لهن ؛ يزودهن بشيء من آداب الزوجة وإنهم لو فعلوا ذلك لهدأت المنازل وسعدت الأسرة وعاش الزوجان في وئام وسلام فالحياة قصيرة لا تتسع للهو والملام والسلام على من آتبع الهدى ·

المهر

أشار الله تعالى في بعض آيات الكتاب الكريم إلى أنه شرع المهر في مقابلة استمتاع الرجل بالمرأة فقال تعالى : « **فما آستمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة** » وقال تعالى « **وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً** » فأنكر على الزوج أن يأخذ منه شيئاً بعدما أفضى إليها وأفضت إليه ليدل على أن مقتضى ذلك الإفضاء أن يدفع لها مالا في مقابلته ولذلك ذهب كثير من الفقهاء إلى أن العلة في تشريع المهر هو ذلك الاستمتاع .

مقدار المهر

لم يرد في الشريعة الإسلامية تحديد لأعلى مقدار يدفعه الإنسان مهراً بل ترك ذلك للناس يتفقون على ما تراضوا به لأن الناس مختلفون في الغنى والفقر والرفعة والضعة فأباحت الشريعة لكل إنسان أن يدفع بحسب حاله وما تسمح به نفسه قل ذلك المال أو كثر يدل على ذلك قول الله تعالى :« **وإن أردتم آستبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ؟ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً** » فهذه الآية تدلنا على جواز إعطاء المال الكثير مهراً لأنّ الله تعالى نهى من أعطى المال الكثير أن يأخذ منه شيئاً بعدما سمحت به نفسه وجعل أخذه بهتاناً وإثماً مبيناً وأنكر على من يقدمَ على ذلك بعدما أفضى إلى زوجه وأفضت إليه بعشرة الزوجية وبعدما أخذت منه ميثاقاً غليظاً بعد الزواج فأسلمت إليه نفسها وقبلت رياسته عليها ولهذا لما نهى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن الغلو في المهر حاجته امرأة بهذه الآية فرجع عن رأيه وآقتنع بحجتها .

هذا هو الأصل في الشريعة الإسلامية الغراء لكن السنة النبوية الشريفة تدل على أنه يستحب للإنسان أن يلتزم جادة الاعتدال والتوسط وعدم الغلو في المهر لأن ذلك أدعى إلى تيسير الزواج على كثير من الناس وعدم طمع الأولياء في مهور البنات . والأحاديث الواردة في هذا الموضوع صريحة في ذلك فمنها ما روي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤونة » رواه أحمد وهو دليل على أفضلية الزواج مع قلة المهر لأن المهر إذا قل لم يستصعبه من يريد الزواج من الشبان ولا يكون حجر عثرة في سبيل زواجهم .

وروى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إني تزوجت امرأة من الأنصار فقال له النبي ﷺ هل نظرت إليها فإن في أعين الأنصار شيئاً ؟ قال نظرت إليها قال على كم تزوجتها ؟ قال على أربع أواق فقال له النبي ﷺ على أربع أواق ؟ كأنما تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل ما عندنا ما نعطيك ولكن عسى أن نبعثك في بعث تصيب منه فهذا الحديث يدل على أن النبي ﷺ قد أنكر على ذلك الرجل ما التزمه من جعل صداقه أربع أواق من الفضة لأنه كان فقيراً يشق عليه أداء ما التزمته ولذلك جاء إلى النبي ﷺ ولعله طلب منه ما يكمل به الصداق فأخبره رسول الله ﷺ إنه ليس عنده ما يعطيه منه وإنه سيبعثه في جيش للغزو عسى أن يناله شيء من الغنيمة يدفع منه الصداق وهذا دليل على أنه لا ينبغي للإنسان أن يلتزم في تقدير الصداق مالا طاقة له به ولا قدرة له على دفعه . وعن أبي العجفاء قال : سمعت عمر يقول « لا تغالوا صدق النساء فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أوتقوى في الآخرة كان أولاكم بها النبي ﷺ ما أصدق رسول الله ﷺ امرأة من نسائه ولا أصدقت امرأة من بناته أكثر من ثنتي عشرة أوقية » رواه الخمسة وصححه الترمذي وهذا النهي من عمر رضي الله عنه عن الغلو في المهور هو الفقه الدقيق في السنة وفي دين الله تعالى وأما اعتراض المرأة عليه كما تقدم فمنشؤه أنها فهمت

من عبارته أنه يحرم الغلو في المهور ولهذا قالت ليس ذلك لك يا عمر لأن التحريم والتحليل في الإسلام خاص بالله تعالى وليس لأحد أن يحرم أو يحلل شيئاً من عند نفسه قال تعالى : « **ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون** » .

وخلاصة القول أن المستحب في المهور هو التوسط الذى لا يرهق ولا يثقل كواهل الناس ولا يكون عائقاً لهم عن الزواج وخيرما يضرب به المثل في الزواج وقلة الصداق والمهر زواج السيدة فاطمة الزهراء بنت سيدنا رسول الله ﷺ فقد تزوجها علي ابن أبي طالب وكان صداقها درعه التي كان يلبسها في الحرب فقد روى أن علياً باع درعه إلى عثمان بن عفان بنحو خمسمائة درهم أي نحو عشرة دنانير فدفعها الى النبي ﷺ فأخذ بعضها وأعطاه إلى بلال ليشتري به طيباً وعطراً وأمر بعض النساء أن يقمن بشراء جهار فاطمة رضي الله عنها لأن أمها خديجة لم تكن حية حينئذ فاشترى النساء لها ثوبين وخميلة أي ملاءة وسوارين من الفضة وقدراً للطبخ وقربة للماء ورحى للطحن وأربع وسائد (مخدات) محشو بعضها بالليف وبعضها بالصوف وقطيفة للغطاء وجلد كبش وسريراً مرمولاً بالخوص المفتول .

هذا جهاز فاطمة بنت النبي ﷺ كان كجهاز الفقيرات من بنات المسلمين ولو شاء أبوها أن يجعل جهازها كجهاز بنات الملوك ما أعياه ذلك ولكنه ﷺ أحب أن تكون بنته أسوة للفقيرات من المسلمات وأن تكون على عادة قومها في الجهاز ليضرب ﷺ المثل الأعلى لأمته في الاقتصاد وعدم الإسراف .

وقبل زفافها أولم علي رضي الله عنه وليمة خاصة ليس فيها غلو ولا تبذير فأين هذا مما يحصل الآن في ولائم الأعراس الإسلامية وأين هذا من الشروط التي يشترطها أهل الزوجة على الزوج فتراهم يساومون في المهر كما يساومون في البيع والشراء ويغضب أحدهم أشد الغضب إذا قدر الخاطب

لبنته مهراً يراه حقيراً لا يليق بجلال قدره فيشتط في الطلب حتى يرضى الخاطب فيلتزم ما لا قبل له بدفعه أو يرفض الزواج قراراً من تلك المطامع الجشعة وليت ذلك النهم إلى زيادة المهر يشتري به ما ينفع ابنته نفعاً حقيقياً أو يدخر بعضه إلى أوقات الشدة فيحسن إليها صنعاً ولكن كثيراً منهم يندفع بجهله إلى الغلو في شراء أثاث بأثمان باهضة ثم لا يلبث عدة سنين حتى يصير مزقاً بالية . ليست سعادة البنت بكثرة مهرها ولكن سعادتها بشرف أخلاق زوجها وسمو نفسه وطهارته ومعرفته بحقوقها وقيامه بالواجب لها ولأن يكون زوجها رقيق الحال جميل الخصال خير من أن يكون كثير المال قبيح الأفعال ألا فلنتق الله في بناتنا وشبابنا ولنسهل لهم ولهن جميعاً أمر الزواج بجعل الصداق قليلاً محتملاً ومنع النفقات التي لا ينتفع بها الزوج ولا الزوجة وفيها إسراف والله المعين وعليه التوكل في كل حين .

الأسرة في الإسلام

أثر المرأة في الحروب والفتوحات الإسلامية .

حدثناكم في درسنا السابق عن حالة المرأة في عهد رسول الله ﷺ وكيف أنها كانت تصلي في المساجد وتحضر مجالس العلم وميادين القتال وفي هذا الدرس سنحدثكم عن بعض نساء سلفنا الصالح االلاتي ضربن المثل الأعلى للرجال والنساء بعزة النفس وعلو الهمة والشجاعة في الحرب ولنذكر لكم على سبيل المثل لا على سبيل الحصر قليلاً من هؤلاء النساء الفاضلات .

صفية بنت عبد المطلب

هي عمة رسول الله ﷺ وأم الزبير بن العوام أحد القادة العظام في الإسلام وكان من حديثها : أن رسول الله ﷺ لما ثار عليه الأحزاب من قريش وذهب جموعهم إلى المدينة تريد القضاء على المسلمين جميعاً، جمع النساء والصبيان في حصن بني حارث حتى لا يمسهم السوء وآعتصم بالحصن يومئذ حسان بن ثابت وكان ضعيفاً واهن القلب وكانت صفية يومئذ بين النساء فبينما هي مشرفة من الحصن بصرت بفارس يهودي يطوف بالحصن فخشيت أن يقتحمه فقالت لحسان : إن هذا اليهودي يطوف بالحصن وإني والله ما آمنه أن يدل علينا من ورائنا من يهود وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه فآنزل إليه فآقتله قال : يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا حتى إذا يئست منه احتجزت بثوبها وآحتملت عموداً ونزلت إليه فقتلته .

رفيـــــــدة

رافقت هذه السيدة النبي ﷺ في كثير من غزواته فكانت تنصب خيمتها في مسجده لمداواة الجرحى وموالاة من أصيب من المجاهدين بنفسها ولما أصيب سعد بن معاذ قال الرسول ﷺ لقومه : اجعلوه في بيت رفيدة حتى أعوده عن قريب.

أم عطية الأنصارية

قـــالت هذه السيدة : غزوت مع النبي ﷺ سبع غزوات فكنت أصنع للمسلمين طعامهم وأخلفهم في رجالهم وأداوي الجرحى وأقوم على المرضى.

و من أحسن ما يروى عن شجاعة النساء أن أبا قدامة الناشيء كان محباً للجهاد فقصد في إحدى غزواته إلى الرقة لشراء جمل يحمل عليه سلاحه وبينما هو جالس يدعو الناس إلى الجهاد ويرغبهم فيه قدمت عليه امرأة وقالت :

يا أبا قدامة : سمعتك وأنت تتحدث عن الجهاد وقد رزقني الله من الشعر ما لم يرزقه لأحد من النساء وقد قصصته وأصلحت منه شكالاً للفرس لئلا ينظر إليه أحد وقد أحببت أن تأخذه فإذا سرت إلى بلاد الأعداء وجالت الرجال والأبطال ورميت النبال وزحفت الرجال إلى الرجال فألقه ليعفر في سبيل الله تعالى وإياك والنظر إليه وهو يعفر في التراب وإني امرأة أرملة وكان لي زوج وعصبة قتلوا كلهم في سبيل الله ولو كان لي قدرة على الجهاد لجاهدت .

ثم ناولته الشكال وقالت : إن زوجي لما قتل خلف لي غلاماً في الخامسة عشرة من عمره وإني أوجهه معك هدية مني إلى الله تعالى فأسألك بحرمة الإسلام ألا تحرمني مما طلبت من الثواب .

فخرج الغلام معه مجاهداً وأظهر بطولة نادرة إلى أن أصيب فقال لأبي قدامة : احمل ثيابي المضمخة بالدم إلى والدتي وسلمها إليها لتعلم أني لم أضيع وصيتها ولم أجبن في الحرب ثم ابتسم وانتقل إلى رحمة الله

تعالى ولما عاد أبو قدامة إلى الرقة ذهب إلى أم الغلام فخرجت إليه وقالت وهي متغيرة الوجه :

ـ أبا قدامة أمبشر أم معز ؟

قال : بيني لي المبشر من المعزي ؟

قالت : إن كان قد قتل في سبيل الله فأنت مبشر وإن كان مات فأنت معز

قال : قد قبل الله هديتك

فقالت : الحمد لله الذى جعلك يا ولدي ذخراً لي يوم القيامة

غزوة بدر سنة 2 هـ 624 م .

وتقدمت (أم سليم ورقة بنت نوفل) إلى النبي ﷺ في غزوة بدر وقالت له : ائذن لي في الغزو معك أمرض مرضاكم لعل الله يرزقني الشهادة . ومن أبطال غزوة أحد (نسية بنت كعب وأم قيس بنت عبدالله) وكانت تملأ الماء في القرب وتسقي الجيش .

فتح اليمامة

ومن النساء البارزات في فتح اليمامة (أم حبيب نسيبة بنت كعب) فإنها ظلت تقاتل حتى انصرفت وبها جراحات « وأم عمارة بنت كعب) الأنصارية .

واقعة اليرموك

انتصر المسلمون على الروم في واقعة اليرموك انتصاراً باهراً وكان للنساء في هذا النصر نصيب يذكر بالثناء والإعجاب فقد قاتل نساء من قريش بالسيوف حين دخل العسكر منهن « أم حكيم بنت الحارث بن هشام » ولقد كان لهن في هذه الواقعة مواقف مشهودة ذلك أنه بعد أن خطب أبو سفيان آبن حرب الجيش المجاهد في ميدان القتال ورجع النساء اللاتي مع المسلمين وكان كثير من المهاجرات قد حضرن يومئذ مع أزواجهن وأبنائهن وجلسن خلف صفوف المسلمين .

أمر أبو سفيان بالحجارة فألقيت بين أيديهن ثم قال : لا يرجع إليكن أحد من المسلمين إلا رميتنه بهذه الحجارة .

ولما دارت المعركة بين الفريقين وحمى وطيسها تقهقر بعض المقاتلين من المسلمين فآستقبلتهم النساء وأخذن يضربن وجوههن ويقذفنهم بالحجارة .

ثم حدث في أثناء القتال أن آنكشف فريق من المسلمين وثبت فريق آخر وآستمر القتال وحملوا على الروم حتى ردوهم على أعقابهم ثم شدوا عليهم شدة واحدة إلى أن تم لهم النصر .

ومن النساء اللاتي سجل التاريخ بطولتهن في هذه الواقعة (أسماء ابنة يزيد) فإنها قتلت (وهند ابنة عتبة) و(خولة بنت ثعلبة الأنصارية) .

غزالة الحرورية

هي زوج البطل شبيب بن زيد وهي إحدى القادة الذين دوخوا البلاد وروعوا الجيوش وملؤوا القلوب اثراً والارض عبراً وقد توعدها الحجاج آبن يوسف بالقتل فخرجت إليه في سبعين فارساً وهو في أربعة آلاف فارس فما لبث أن آختلط عليه الأمر وخلع قلبه الفزع وولى هارباً وآختفى في داره وفي ذلك يقول عمران بن حطان الخارجي يعير الحجاج حيث يخاطبه :

أسد علي وفي الحروب نعامة ربداء تجفل من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر
صدعت غزالة جمعه بعساكر تركت كتائبه كأمس الدابر

وبلغ من جسارتها وقوة قلبها أنها أقسمت لتصلين في مسجد الكوفة ركعتين تقرأ في الأولى سورة البقرة وفي الثانية آل عمران و الكوفة يومئذ معقل الحجاج ودار إمارته ومجتمع قوته . إن المتأمل في هذه القصة يعجب أشد العجب من هذه السيدة غزالة كيف تقهر أميراً في دار إمارته وقد كان كثيراً يخشى لقاؤه فهو الذي دانت له العراق وذلت له الرقاب وقد دان لامرأة وذل عند لقائها وصغر في عينها . إذن يحق لي ولغيري أن يقول بحق

إن نساء الصدر الأول خير من رجال هذا العصر بعد الذي رأيناه من قوة إرادتهن وصبرهن وشجاعتهن .

وإليكم حديثاً آخر ترون فيه مثلاً عالياً في الشجاعة والصبر وقوة العزيمة .

لما مات يزيد بن معاوية تولى الخلافة بعده آبنه معاوية الثاني وبايعه كثير من الناس إلا أهل الحجاز فإنهم قاوموه ولم يرضوا به وبايعوا عبدالله آبن الزبير بن العوام ونصبوه إماماً لهم .

ولما تولى عبدالملك بن مروان أعد لهم جيشاً كبيراً بقيادة رجل جبار هو الحجاج بن يوسف فحاصر مكة وشدد الحصار على جيوش عبد الله وأغرى فريقاً من أهل مكة بالأموال والمناصب حتى آنفضوا عن عبدالله فجاء عبدالله ودخل على أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها يعرض عليها الأمر ويستشيرها فيما يفعل ويقول لها : يا أماه خذلني الأعوان وآنفض عني الأهل والإخوان ولم يبق معي إلا القليل فقالت له أمه : أنت أعلم بنفسك يا بني فإن كنت تعتقد أنك على حق تدعو الناس إليه فآمض فيه ولا تقل إني كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت عزيمتي فليس هذا فعل الأحرار فوالله لضربة بالسيف في عز أحب من حياة ذل والقتل أحسن من المهانة .

عبد الله : يا أماه أخاف إن قتلني أهل الشام يمثلوا بي ويصلبوني .

أسماء : يا بني إن الشاة لا تتألم من السلخ بعد ذبحها فآستعن وآمض في طريقك .

عبد الله : هذا رأيي فوالله ما ركنت إلى الدنيا ولا فضلت الحياة فيها على القتل في سبيل الله ولكني أردت أن أستمع إلى مشورتك لتزيدني قوة وهداية وآعلمي يا أمي أني مقتول في يومي هذا فلا يشتد حزنك علي وسلمي الأمر لله وعنده حسن الثواب وهو يعلم أني ما خرجت على الأمويين إلا إرضاء له وغضباً لدينه وليس عندي آثر من طاعة مولاي وخالقي .

أسماء : والله إني لا أرجو أن يكون جزائي فيك حسناً إن تقدمتني آحتسبتك « تعني قدمتك ذخراً وثواباً » وإن ظفرت سررت بظفرك .

ثم قالت : اللهم إني قد أسلمته لأمرك ورضيت فيه بقضائك وأثبني فيه ثواب الصابرين الشاكرين .

ثم هم بالخروج فعانقته فوقعت يدها على درعه تحت ملابسه فقالت : ما هذا صنيع من يريد ما تريد أتخاف الموت ؟

فقال : والله ما لبستها إلا لأشد متنك (يعني ظهرك) والمراد عزمك قالت : هذا لا يشد متني فخلعها وخرج للقتال فقاتل مستميتاً وكان لا يميل عن ناحية إلا هزم من فيها فرماه جندي من أعدائه بحجر فشج رأسه وسال دمه حتى مات فأسرع إليه أعداؤه وصلبوه .وبقي معلقاً أياماً لا يأذن الحجاج بدفنه حتى أمره الخليفة فتسلمته أمه وغسلته ودفنته وقد نظم هذه القصة الرائعة زعيمان من زعماء الأدب هما المنفلوطي وشوقي بك قال المنفلوطي :

إن أسماء في الورى خير أنثى ... صنعت في الورى خير صنيع
جاءها ابن الزبير يسحب درعاً ... تحت درع مصبوغة بالنجيع (1)
قال يا أم قد عييت بأمري ... بين أسر مر وقتل فضيع
خانني الصحب والزمان فما لي ... صاحب غير سيفي المطبوع
فأجابت والجفن فقر كأن لم ... يك من قبل موطناً للدموع
إن موتاً في ساحة الحرب خير ... لك من عيش ذلة وخضوع
مت هماماً كما حييت هماماً ... واحي في ذكرك المجيد الرفيع
ثم قامت تضمه لوداع ... هائل ليس بعده من رجوع
فنضاها (2) عنه وفر إلى المو ... ت بدرع من الفخار منيع
وأتى أمه النعي (3) فجاءت ... بعد لأي (4) بدمعها الممنوع

(1) النجيع : الدم المائل الى السواد
(2) فنضاها : خلعها ونزعها
(3) النعي : خبر الموت
(4) لاي : بطء واحتباس

وقال شوقي :

وضاق عبد الله عن عبد الملــــــــك ... ورأيه الوضــاء في الخطب الحلـك
فجاء أمه ومن كأمــــــــــــــه ... لعلها تحمـل بعض همـــــــــه
فقـال ما ترين فالأمر لــــــــك ... للموت أمض أم لعبد الملـــــــك
قالت إن كنت لحق ثرتـــــــا ... فلا تفارق من إليه ســــــرتا (1)
الحق بأحرار مضوا قد احسنـــوا ... فالموت من ذل الحياة أحســــن
ولا تقـل هنت بوهن من معــــــي ... فليس إذاً فعل الشريف الألمعــــي
ومت كريمـاً أو ذق الهوانــــــا ... وعبث الغلمان من مروانـــــــا
ولا تقـل إن مت مثلوا بــــــي ... وطـاف أهـل الشام بالمصلــــوب
هيهات ما للسلخ بالشاة ألـــــم ... ورب جذع (2) فيـه للحق علـــم
عـانقته فأحست درعـــــــاً ... قـالت آضقت بالمنون ذرعـــا (3)
مثلك في ثيابه المسمـــــــرة ... جاهـد لا في الحلق (4) المسمـــرة
لا تمض فيها وأرح منهـا الجســـد ... وامض بلا درع كما يمضي الأســد
فنـزع النثرة (5) عنـه وانطلـــق ... في قلـة يلقى العـديـد في الحلـــق
فمـات تحت المرهفـــات (6) حــراً ... لم يأل (7) خير الأمهــات بـــــرا

إن المتأمل في قصة هذه السيدة أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها يرى فيها البطولة الصادقة والشجاعة الكاملة وكل هـذا كان ثمرة من ثمرات تثقيفها ثقافة دينية كاملة فتاريخها حافل بأنواع المعارف مما استنبطته

---

(1) الالف التي في آخر ثرتا وسرتا زائدة للشعر واصل الكلمتين ثرت وسرت.
(2) جذع : المراد الخشبة التي يربط عليها المصلوب
(3) ذرعاً : ضاق بالامر ذرعاً ضعفت طاقته ولم يجد من المكروه مخلصاً
(4) الحلق : جمع حلقة وهي الدرع
(5) النثرة : الدرع السهلة الملبس
(6) المرهفات : السيوف الرقيقة الحد
(7) لم يال : لم يقصر

من الآراء والأحكام الفقهية وما حملته من السنة الشريفة النبوية روى عنها كثير من الصحابة وكانت صوامة قوامة مع محافظتها وحرصها على تقليد رسول الله ﷺ وكانت تطيل القيام في الصلاة تأسياً بالرسول الأكرم فقد كان صلوات الله وسلامه عليه يكثر القيام وقراءة القرآن في صلاته خصوصاً في النافلة يدعو مولاه عند ذكر آية دعاء ويستعيذ إذا مر بآية يذكر فيها العذاب . دخل عروة على أسماء وهي في صلاتها فسمعها تقرأ قول الله تعالى « **فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم** » فاستعاذت من عذاب السموم فقام عروة وهي تستعيذ فلما طال عليه خرج إلى السوق فمكث مدة ثم رجع وهي لا تزال تبكي وتستعيذ وكانت لا تبرم أمرا حتى تستفتي رسول الله ﷺ . قدمت عليها أمها قبيلة وهي مشركة وكان طلقها أبو بكر قبل الهجرة تريد إحساناً من أسماء فأبت أن تعطيها شيئاً وقالت حتى أستفتي رسول الله ﷺ ثم ذهبت إليه عليه السلام وقالت له : يارسول الله إن أمي جاءت إلي راغبة أفأصلها ؟ قال : نعم صلي أمك وفي ذلك نزل قول الله تعالى : « **وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً** » .

وأما جهادها وبطولتها فتظهر في موقفين : أما الأول فقد كانت تواصل حمل الزاد إلى رسول الله ﷺ وأبي بكر كما كانت تحمل هي وأخوها عبد الله من أخبار القوم ما يعدون من خطط للظفر بهما وأطلق عليها رسول الله ﷺ (ذات النطاقين) وذلك أنه لما أراد النبي عليه الصلاة والسلام وصاحبه الخروج من الغار جاءت أسماء بزاد الطريق في سفرهما وأرادت أن تعلقه في رحل البعير فلم تجد له رباطاً فخلعت نطاقها وشقته نصفين جعلت نصفاً علامة للسفرة والآخر انتطقت به فقال لها النبي : أنت ونطاقك في الجنة .

وأما الثاني فقد دخل عليها الحجاج بعد صلب ابنها وقال لها : يا أماه إن أمير المؤمنين أوصاني بك فهل لك من حاجة ؟ فقالت له : لست لك بأم إنما أنا أم المصلوب ومالي من حاجة ولكني أحدثك أني سمعت رسول الله يقول : يخرج من ثقيف كذاب ومبير فأما الكذاب فقد رأيناه وأما

المبير فلا أراك إلا إياه . ودخل عليها عبد الله بن عمر وقال لها يريد مواساتها: إن الجسد ليس بشيء وإنما الأرواح عند الله فآتقي الله وآصبري . قالت وما يمنعني من الصبر وقد أهدي رأس يحيى بن زكرياء إلي بغي من بغايا بني إسرائيل .

أيتها الأخت المسلمة

قدمت لك صورة من صور حياة أختك التي سبقتك في الإسلام يتجلى لك فيها معنى العظمة النفسية وقد تحملت وهي في أول شبابها أخطر سر من أسرار الدعوة فكانت نعم المحافظة الأمينة فلتكوني مثلها في الدين الموصل لك للسمو والسعادة والجمال والكمال .

نساء اليوم والأمس.

علمنا من الدروس السابقة أن للمرأة كبير الأثر في سعادة الأمة وأن الأسرة إذا سعدت سعد بها الوطن وطابت الحياة وكانت العزة وزالت الذلة وضربنا لكم الأمثال بسيرة أمهات المؤمنين رضي الله عنهن وكيف كن متعلمات في حياء عالمات في نفع ورشد مهذبات في تواضع لينات طيعات لأزواجهن عفيفات تقيات جاهدن أنفسهن جهاداً طويلاً وصبرن على طاعة الله صبراً جميلاً .

وفي هذا الدرس سأسوق على حضراتكم حديثاً يتبين لكم منه الفرق العظيم بين نساء اليوم والأمس ليتذكر به من يتذكر « **والذكرى تنفع المؤمنين** » إذا قارنا بين حاله المرأة اليوم وحالها في الصدر الأول من الإسلام رأينا البون شاسعاً والفرق واسعاً فالمرأة اليوم نجدها جادة في تقليد نساء أوروبا مولعة بالتبرج المعيب تمشي في الطرقات العامة عارية الصدر والأفخاذ غير مبالية بدين ولا خلق ولا حياء بدعوى مجارات الموضة في باريس تحسب البيت سجناً وقيام الرجل عليها ذلاً وهواناً ولعل بعض الرجال يشترك معهن في هذا الإثم لأنهم حسنوا لهن هذه الموضة وزينوا لهن هذا التبرج فقل الحياء وعظمت الشكاية في كل الأرجاء بالله أي مسلم يسكن الإيمان قلبه لا تنقطع نياط قلبه أسى وحسرة على ما حل بالمسلمين في هذا الزمان من انحدار في الأخلاق وفقدان الغيرة وانقياد للنساء حتى ضجت الأرض بما يحدث عليها من الفسق والفجور فأينما سرت وحيثما حللت في دكاكين التجارة ومراكب الكهرباء رأيتهن أفواجاً وجماعات لايستحين أن تتلاصق الأجسام ولا يبالين أن تتزاحم المناكب .

أراد الإسلام أن يجعل منها ملكة محجبة فأبت إلا أن تكون سوقة مبتذلة وأرادت الشريعة أن تجعلها قاصرات الطرف مقصورة في البيت فأبت إلا أن تهجرها وتخرج لغير حاجاتها قد يقول القائل : إن نساء

عصرنا غير نساء العصور السابقة فنساء هذا العصر متعلمات عاليات النفوس شريفات لا يتطلعن إلى صغيرات الأمور فأقول على رسلك أيها المخالف في هذا الكلام للواقع فهل بلغت المرأة عندنا من الكمال العلمي والديني ما بلغته نساء الصدر الأول كلا ثم كلا فالداعين حينئذ إلى حرية المرأة من ناحية الاختلاط بالرجل إن هم إلا مروجو الرذيلة والقاضون على كرامة المرأة . إذا كنا حقيقة نريد إصلاح حالتنا النسوية فيجب علينا أن نعنى في أول ما نعنى به من الإصلاح تغيير مناهج التعليم وأن نعلمها تعليماً دينياً صحيحاً يعرفها حقوقها وواجباتها مع مراقبة العمل بأوامر الله والنهي عن نواهيه في المدرسة وخارجها ولكن نقول مع الأسف الشديد إن مدارسنا لا تقوم بأداء هذه المهمة فهي تحشر أدمغة الطالبات بما لا يفيدهن من علوم في حياتهن ولا يؤهلهن لأداء وظيفتهن بل يخرجن من مدارسهن وهن جاهلات بأمر دينهن ناقصات في تربيتهن لا يصلحن لأن يؤدين الواجب عليهن كأم وزوجة ، والعلم الناقص كثيراً ما يكون أضر من الجهل فحياتهن إلى الطيش والغرور والافتتان بأنفسهن أقرب من حياة النبل وأداء الواجب والاعتصام بالفضيلة ولا عجب إن أصبح العقلاء ينفرون من الزواج بهن لأنهم عافوا ما رأوه وخافوا أن يقعوا في هذه المنكرات وقد عم النذير وكثر التحذير من الشبان بعضهم لبعض من الزواج بالفتيات وهن على الحالة التي لا يرضاها عاقل.

فلتصلح الفتاة أخلاقها ولتعتصم بالحجاب في داخل بيتها فسترى الرجال يهيمون بها ويرون السعادة في تزوجها وعشرتها .

ونحن مهما ألقينا التبعات على بعض الفتيات في تبرجهن وتمردهن فإن الأب أو الأخ أو الولي في الواقع هو المسؤول أولاً عن هذا الفساد فهو الذي أطلق لها الحرية حتى خلعت ثوب الحياء وضلت الطريق فأصبحت عنواناً للإسراف والتبذير في كل ما تفعل : مسرفة في ملبسها وزينتها مسرفة في تقليدها هازئة بعوائد قومها ووطنها لا تميز بين ما تعمل وبين ما يجب أن تكون عليه .

لا مخرج لنا مما نجتازه من محنة الجهل وشر التقاليد إلا بالرجوع إلى الدين الحنيف واتباع سيرة نساء السلف الصالح اللاتي كن عارفات بما يجب عليهن لربهن ولبعولتهن وكانت المرأة تعيش ولها من الدين والخلق ما يعصمها عن الآثام والشرور فكانت طائعة لربها مخلصة لزوجها وكانت لا تخرج من بيتها إلا بإذن زوجها وإذا خرجت لم تخرج متبرجة ولا متعطرة بل إذا أرادت الخروج تغتسل من الطيب مثلما تغتسل من الجنابة وكانت إذا ذهبت إلى المسجد لسماع درس أو لأداء صلاة تجلس في الصف الخلفي وإذا أتمت صلاتها تعود إلى بيتها وتقبل على تدبيره وقيام شؤونه ومع ذلك كان زوجها يراقبها مراقبة شديدة .

وهاكم نماذج وشواهد من شديد رقابة سيدنا محمد ﷺ وتأديبه لنسائه وأهله حتى فيما نظنه من توافه الأشياء :

شاهد (1) دخل عبدالله بن أم مكتوم بيت النبي ﷺ وكان عبدالله هذا ضريراً فظنت اثنتان من أزواجه أنه لا بأس من جلوسهما ونظرهما إليه لأنه أعمى ولكن الرسول ﷺ أبى عليهما ذلك ولما اعتذرن إليه بأنه أعمى قال لهما أفعمياوان أنتما ؟ أي إذا كان الرجل أعمى فما عميتما أنتما .

شاهد (2) رأى ﷺ ابنته فاطمة الزهراء مقبلة إلى بيتها ومعه بعض الصحابة فلم يمهلها حتى تدخل البيت وينصرف من كان معه بل استوقفها وسألها : ما أخرجك من بيتك يا فاطمة ؟ قالت : ذهبت إلى أهل هذا الميت فعزيتهم في ميتهم فقال : لعلك بلغت معهم إلى القبور قالت معاذ الله وقد سمعتك تذكر فيما تذكر فقال : أما إنك لو ذهبت معهم إلى القبور لكان من عقابك ما كان مما لا يقع في الحسبان. ولا تعجبوا يا سادة من دقة الرسول في بيته هذه الدقة ويقظته هذه اليقظة فإن بيوت القادة دائماً هي موضع التأسي لسائر بيوت الأمة ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأهله : إن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم فمن خالف منكم ضاعفت عليه العقوبة وهذا المعنى استمده أمير المؤمنين من القرآن الكريم

إذ خاطب الله أمهات المؤمنين وقال: «**يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين واعتدنا لها رزقاً كريماً**»

ولا تظنوا إن رقابة الرسول كانت مفروضة على أهله فحسب بل كان يفرضها على سائر نساء الأمة .

وإليكم أمثلة على ذلك أيضاً :

مثال (1) رأى ﷺ فتاة ثيابها رقيقة شفافة فأعرض عنها وغضب عليها وقال : إن الفتاة إذا بلغت أوان المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا وأشار إلى الوجه والكفين .

مثال (2) جاءته امرأة تسأله في حجة الوداع : هل تحج عن أمها العاجزة ؟ فقال : نعم وكانت المرأة وسيمة الوجه فجعل الفضل بن العباس ينظر إليها وهو رديف النبي ﷺ فلما شعر الرسول منه بذلك أدبه ولوى عنقه عنه .

مثال (3) رأى نسوة جالسات ينتظرن جنازة فقال : ما يجلسكن ؟ قلن : ننتظر الجنازة قال : هل تغسلن ؟ قلن لا ، قال : هل تحملن ؟ قلن : لا قال : هل تتولين دفنه في قبره؟ قلن : لا قال : فارجعن مأزورات غير مأجورات. من هذه الأمثلة يتبين لحضراتكم أن الرسول ﷺ لم يأمر النساء بلزوم البعد عن الرجال إلا محافظة عليهن من السقطات وصوناً لأعراضهن فالعرض أغلى من المال والجوهر والياقوت كما يقول حسان رحمه الله .

أصون عرضي بمالي لا أدنسه ... لا بارك الله بعد العرض في المال
أحتال للمال إن أودى فأجمعه ... ولست للعرض إن أودى بمحتال

فالفطن اللبيب يجب عليه أن يراقب بناته وأهله مراقبة شديدة ولا يأمن عليهن من الرجال لأحد من قريب أو بعيد ويرحم الله القائل :

لاتأمنن على النساء ولو أخاً ... ما في الرجال على النساء أمين
إن الأمين وإن تحفظ جهده ... لا بد أن بنظرة سيخون

بعد هذا أنتقل بكم إلى ذكر سيرة نساء سلفنا الصالح فأقص عليكم نبذاً من أخلاقهن الطيبة ونفوسهن الزكية وكيف كن طاهرات الذيول كريمات النفوس عظيمات الخلال شريفات الخصال عسى أن تتنور قلوبكم وقلوب نسائنا بسيرتهن ويتأدبن بآدابهن .

قال الإمام القسطلاني في شرحه على البخاري في الجزء الأول « في باب فضل من استبرأ لدينه » لتعرفوا إلى أي حد وصل بنا التأخر الديني :

قالت أخت بشر الحافي لأحمد بن حنبل: إنا نغزل على سطوحنا فتمر بنا مشاعل رجال الشرطة ويقع الشعاع علينا أفيجوز لنا الغزل في شعاعها ؟ فقال : من أنت عافاك الله ؟ قالت : أخت بشر الحافي فبكى وقال : من بيتكم يخرج الورع الصادق لا تغزلي على شعاعها .

ذكرتني قراءة هذه القصة بأخلاق نساء الصدر الأول وما كن عليه من الورع الصادق والأدب الكامل وشدة تمسكهن بدينهن ومحافظتهن على ذلك وسؤالهن العلماء في كل شيء حتى الأشياء التى لم يقطع بحرمتها آخذات بما رواه الترمذي من حديث الحسن بن علي أن النبي ﷺ قال :« دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » .

حقاً لقد ذكرتني قراءة هذه القصة بأخلاقهن الطاهرة ونفوسهن الزكية وأخذتني الحسرة على نساء عصرنا اللائي هجرن الدين وتركنه خلفهن ظهرياً وكأني بهن غير مسلمات لما هن عليه من تبرج ولجهلهن بهذا الدين وآدابه وصار لا هم لهن إلا تجعيد شعورهن وتقصير ثيابهن تقصيراً ذهب معه كلُ حياء وكشف نحورهن وأذرعهن كشفاً أغرى بهن السفهاء

وإليكم مثلا آخر يدل على العبقرية الغالية والنفوس الزكية الراقية مثلاً يدل على منتهى الحب لرسول الله ﷺ فقد ذكر ابن الأثير في تاريخه إن رسول الله ﷺ حين رجوعه إلى المدينة المنورة بعد غزوة أحد مر بامرأة من الأنصار قد قتل أبوها وأخوها وزوجها في غزوة أحد فلما نعوا لها قالت : ما فعل رسول الله ﷺ تسأل عنه وهل أصيب بشيء ؟ فقيل لها

هو يحمد الله كما تحبين.قالت أرونيه حتى أنظر إليه فلما رأته قالت : « كل مصيبة بعدك جلل يارسول الله » أي أمرها هين ويسير .

فكروا أيها السادة والسيدات في نفس هذه السيدة المحترمة يصاب أبوها وأخوها وزوجها في ميدان القتال فلما قيل لها هذا سألت عن رسول الله ﷺ ولم تقتنع بما أخبرت به عنه بل طلبت رؤيته ذاكرة له أن أي مصيبة تلحقها بعد سلامة رسول الله ﷺ فهي هينة .

إن هذا العمل بالنسبة لرسول الله ﷺ الذي أنقذ العالم من الشرك والجهل إلى نور المدنية والعرفان وإلى الإيمان الحق قليل ولكنه من هذه السيدة التي تعد في عرف المجددين من القرون الوسطى كبير وجليل بل هو تشجيع للمسلمين على المضي في جهادهم والدفاع عن بيضة الإسلام وإرشاد إلى أن المسلمين سالمون ما سلم رسول الله ﷺ قائدهم إلى الخير وهاديهم إلى الصراط المستقيم .

ولو قسنا هذا الخاق بأخلاق رجالنا الذين لا يقيمون لأحكام الشريعة وزناً ولا يأخذون بما سنته للعالم من نظام يكفل لهم السعادتين الدنيوية والأخروية لوجدنا البون شاسعاً ويؤلمني أن أقول إن بعضاً يبيع دينه بشيء زائل من حطام الدنيا الفانية .

وإلى حضراتكم مثلاً آخر يدل على الشجاعة والصبر والرضا بالقضاء والقدر والتضحية الكبرى بالنفس في سبيل نصرة دين الله ذكره ابن الأثير أيضاً وذلك أن صفية بنت عبدالمطلب أقبلت بعد انتهاء وقعة أحد فأمر رسول الله ﷺ ابنها الزبير أن يردها لئلا ترى ما حل بأخيها حمزة حيث أن هنداً امرأة أبي سفيان مثلت به وهو قتيل فبقرت بطنه ولاكت كبده تشفياً وتنكيلاً .

ولما أعلمها بأمر رسول الله ﷺ قالت له : بلغني أنه مثل بأخي وذلك في الله قليل فما أرضانا بما كان فلأحتسبن ولأصبرن .

مرحباً بهذه الشجاعة الدينية والصبر الجميل يمثل بأخيها في سبيل الله وفي ميدان القتال ويريد رسول الله ﷺ أن يحول بينها وبين رؤيته رأفة

منه بها وشفقة عليها فتتقبل هذا العطف المحمدي بالرضا ذاكرة أن ما نال أخاها في سبيل الله ونصرة دينه قليل .

بالله هل نرى لهذه الشجاعة مثيلاً في هذا العصر ؟ بل هل نجد من تحدثه نفسه بالجهاد في سبيل الله ونصرة دينه لا بالسيف والمدفع ولكن بالدعوة باللسان ؟ وهل يستطيع الرجل منا أن يصبر على إيذاء بعض السفهاء بألسنتهم عند أمره بالمعروف ونهيه على المنكر ؟ لقد استولى علينا الخنوع والذلة حتى عم الفساد وإذا حدث الإنسان نفسه في يوم من الأيام أن يدعو إلى دين الله وجد ألف مثبط لمهمته ومفتر لعزيمته .

إذن يحق لي ولغيري أن يقول بحق إن نساء الصدر الأول خير من رجال هذا العصر بعد الذي رأيناه من قوة إرادتهن وورعهن وصبرهن وشجاعتهن .

إن ما ذكرته لكم الليلة كالقطرة من بحر إخلاصهن الصافي وشمائلهن العالية .

أما السر في تقدمهن فهو إنهن كن متمسكات بأحكام الدين آخذات بآدابه وفضائله فكن يسألن عما لا بأس به حذر الوقوع فيما فيه بأس وقد تأخرنا وجهلنا الحق ولم نعمل بما علمنا (ومن ازداد علماً ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعداً) .

وإلى حضراتكم مثلا آخر يدل على الصبر الجميل والتضحية الكبرى بفلذة الأكباد في سبيل نصرة الدين وإعلاء شأن الوطن وذلك أن الخنساء رحمة الله عليها قد وصت بنيها الأربعة في واقعة القادسية فقالت : يا بني أنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين والله الذي لا إله إلا هو إنكم لبنوا رجل واحد ما هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم واعلموا أن الدار الآخرة خير لكم فاصبروا وصابروا واتقوا الله لعلكم تفلحون وإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقيها وتأججت نيرانها فتيمموا وطيسها وجالدوا رئيسها تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والسلامة .

فخرج بنوها قابلين لنصحها عازمين على قولها فلما أضاء لهم الصبح بادروا إلى مراكزهم واستمروا مقاتلين حتى قتلوا رحمهم الله تعالى رحمة واسعة .

ولما بلغها الخبر قالت : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر عنده ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعطيها أرزاق أولادها الأربعة .

أرأيتم أيها السادة والسيدات هؤلاء النساء المثقفات بثقافة الدين كيف كن مؤمنات ولكن إيماناً حقاً مسلمات ولكن لا يدن بالدين العصري الرخو سمعن منادي الإيمان أن آمنوا بربكم فآمن به فسمت أرواحهن إلى غاية الإسلام وحكمة تنزيله فربين فتية آمنوا بربهم فزادهم هدى وربط على قلوبهم فلم يدخلها خور في العزيمة ولم يخالجها شك في الدين. وإذا أردتم أن تعرفوا الفرق بين نسائنا ونساء السلف الصالح فإنكم تجدونه في الحادثتين الآتيتين .

أوصت أسماء بنت خارجة الفزارية ابنتها عند زواجها فقالت : يا بنيتي إنك خرجت من العش الذي فيه درجت فصرت إلى رجل لم تعرفيه وقرين لم تألفيه فكوني له أرضاً يكن لك سماء وكوني له مهاداً يكن لك عماداً وكوني له أمة يكن لك عبداً ولا تلحفي به فيقلاك ولا تتباعدي منه فينساك ، إن دنا منك فاقربي منه ، وإن نأى عنك فابعدي عنه واحفظي أنفه وسمعه وعينه فلا يشمن منك إلا طيباً ولا يسمع إلا حسناً ولا ينظر إلا جميلاً.واسمعوا الآن نصيحة امرأة من نساء القرن العشرين لابنتها يوم زفافها لبعلها : أي بنيتي لم تبكين ؟ ليس زوجك أعز من أبيك ولا أخيك وما كانت قرابة زوجك أرقى من قرابتك ، قصي قوادمه لئلا يطير وشددي عليه في الطلب لئلا يستغني بالتوفير فإن تطاول عليك بضرب أو شتم فغادري داره واتركيها فدار أبيك أوسع من داره ومالنا أوفر من ماله وفي المحكمة الشرعية متسع .

خبروني بالله أيها الإخوان والأخوات أي فتاة تسمع مثل هذا من أمها ثم تقوم بحقوق الزوجية وتخلص لزوجها ؟ إنها تنغص عليه عيشه والنتيجة الفراق ثم الطلاق .

إن أفضل صفات المرأة طاعتها لزوجها ففيها الهناء والسعادة وليس المراد بطاعة الزوجة الزوج أنها تكون مسخرة أو ملكا يسومها الخسف والذل وينعم عليها بما تجود نفسه ويراه فضلاً لا واجباً وإنما هو خضوع أدبي يرفع من قيمتها وقدرها فالقرآن الكريم يحمل لكل من الزوجين حقاً على الآخر قال تعالى : **ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة** .

ذكرى الهجرة

إنه مما يسر المسلم ويثير غبطته وإعجابه ويحيي في نفسه ميت الأمل ويمده بالشعور الإسلامي أن نجتمع في هذا اليوم المبارك احتفاء بذكرى حادثة الهجرة التي أظهر الله بها الإسلام وأعز المسلمين ومكن بها لنبيه محمد ﷺ في الأرض وفتح له بها حواضر البلاد وقلوب العباد فحمداً لك يا رب إذ لا يزال في المسلمين تلك القلوب المؤمنة التي تخفق لذكرى الحوادث الإسلامية وتطرب لصداها وتحن لتقديسها وتقديرها بعد سبع وثمانين وثلاثمائة وألف سنة وإن الأمة لا تزال بخير ما نهض الأبناء على إثر الآباء متكئين على تاريخهم متخذين من مجدهم نوراً وهدى .

ولو كان في كل أمة من يقيس الأمور بمقياس الإنصاف والنظر الصحيح لكان لكل أمة أن تتخذ من يوم الهجرة عيداً تحتفي به كل عام وتقدم فيه خالص الشكر لله تبارك وتعالى على ما أنعم به على العالم من بعثة هذا الرسول الكريم الذي اتى بشريعة صالحة لكل زمان ومكان .

وليس في وسعي أن أصف لحضراتكم مظاهر الفساد الذي كان يسود العالم إذ ذاك فذلك ما تكفلت به كتب التاريخ وإنما يعنيني أن أقول لكم إن العالم بما وقع فيه من فساد واضطراب كان في مسيس الحاجة إلى من يقوده إلى الخير والفلاح ويكمل ما به من نقص شامل في كل جوانب الحياة فكان هذا القائد هو سيدنا محمد ﷺ الذي جاء لإصلاح العالم بعد أن عمه الفساد وتمكنت منه الأمراض وفتكت به الفرقة وغلبت عليه الجهالة فعمد إلى الفساد ينتزعه من أصله وإلى المرض يعالج مصدر الداء وأصل العلة وإلى الجهالة يبدد سحبها ويستأصل

شأفتها فيخلص الإنسان في عقيدته من إتخاذ أوثان من دون الله وجعله لا يدعو إلا الله في عبادته وخشوعه : « **أن ادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون** » كما أنه خلص الإنسان من الالتجاء لغير الله أو من اتخاذ واسطة بينه وبين ربه من أحبار ورهبان « **اتخذوا أحبارهم وبرهانهم أرباباً من دون الله** » ، جاء بهذه الدعوة المباركة والنور المبين فماذا لقي من قومه ؟ لقي من قومه كل عنت وعذاب مع أنه لم يدع أسلوباً من أساليب الدعوة والإقناع إلا سلكه ولم يترك وسيلة من وسائل الإقناع إلا أتاها وأتبعها ولكنه مع هذا كله لم يجد أذناً صاغية بل وجد قوماً غلاظ الأكباد قساة القلوب قد عميت منهم البصائر وماتت منهم الضمائر فنفروا منه وبادروه بالعداء وتفننوا في إيذائه فكان إذا مر عليهم يقولون سخرية هذا ابن أبي كبشة يكلم من السماء وعقبة ابن أبي معيط أخذ من فضلات الإبل وألقاها على ظهر رسول الله وهو في صلاته ساجد ولم يقدر أحد أن يرميها عنه حتى جاءت ابنته فاطمة فألقت الفضلات من على ظهره ولم تزازل هذه الشدائد من إيمانه ولم تزده إلا ثباتاً على دعوته ولم يتسرب اليأس إلى قلبه ولا إلى عزيمته حتى غلب الحق على الباطل وأصبحت كلمة الله هي العليا .

قام هذا النبيء يدعو إلى اللـــــه وفي الكفر نجدة وإبـــــاء
أمماً أشربت قلوبهم الكفـــــر فداء الضلال فيهم عيـــــاء
ورأينا آياتـــــه فاهتدينـــا وإذا الحق جاء زال المـــــراء
رب إن الهدى هداك وآيـــا تك نور تهدي من تشـــــاء

وما زالوا يبتلونه بضروب الكيد والمحن حتى ائتمروا على قتله فاجتمعوا في دار الندوة يتشاورون في أمره فقال قائل منهم نحبسوه في الحديد ونغلق عليه باباً حتى يأتيه الموت فقال شيخ فيهم ما هذا لكم برأي لئن حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب إلى أصحابه فيوشك أن يثبوا عليكم فينتزعونه من أيديكم وقال آخر ننفيه من بلادنا فقال أبو جهل شيطانهم ما هذا لكم برأي ألم تروا إلى حسن حديثه وحلاوة منطقه فلو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على

حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم في بلادكم فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد ولكن الرأي عندي أن نختار من كل قبيلة فتى قوياً ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح منه فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل فلم تقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم فرحبوا بهذا الرأي واتفقوا على تعيين الفتيان والليلة التي ينفذون فيها ما أرادوا وفي ذلك يقول الله تعالى : « **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** » وبيان الحكمة في أمر الرسول بالتذكر وذلك ليشكر الله على نعمة الإنجاء ويحمده على منة الخلاص .

ولم يعلم أحد بعقد هذه الندوة التي عقدوها إلا الله سبحانه وتعالى فأوحى الله إليه على لسان جبريل وأعلمه بجميع ما دار بين قريش في هذه الندوة وأمره ألا يبيت في مضجعه ولما علم الرسول بهذا الخبر توجه إلى صديقه أبي بكر وأخبره إن الله قد أذن له بالهجرة فسأله أبو بكر الصحبة فأجابه إليها . وفي تلك الليلة أمر رسول الله ابن عمه علي بن أبي طالب أن ينام مكانه فاستجاب لدعوته ثم خرج رسول الله ﷺ وقد أخذ الله على أبصارهم فلم يره أحد منهم ثم انصرف عليه الصلاة والسلام إلى دار أبي بكر رضي الله عنه واصطحبه معه إلى الغار . أما المترصدون أمام بابه فقد ظلوا يغطون في نومهم حتى آتاهم آت وقال لهم أي شيء تنتظرون ؟ قد خيبتم آمالنا وخرج محمد عليكم فكان عجبهم شديداً فدخلوا دار الرسول شاهرين أسلحتهم لتنفيذ ائتمارهم فوجدوا علياً فسألوه أين محمد ؟ فأجابهم بلا أدري فجدوا في طلبه واللحاق به وجعلوا لمن يأتيهم به حياً أو ميتاً مائة ناقة . ومروا بغار ثور يفتشون على النبي وعند مرورهم قال أبو بكر للنبيء يا رسول الله لو أنهم نظروا إلى أرجلهم لرأونا فقال له النبي : « لا تحزن إن الله معنا » فأنزل الله قوله : « **ألا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار**

إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم »
وقد حدث التاريخ أن الله القدير على كل شيء سخر جماعة العنكبوت فكانت تنسج على باب الغار فكان نسجها تضليلاً للكافرين لذلك عندما مروا بباب الغار قال بعضهم لبعض هذا الغار أقدم من ميلاد عيسى عليه السلام وفي ذلك يقول بعض الشعراء مفضلاً العنكبوت على دود الحرير .

ودود القز إن نسجت حريــــــزاً يجهــل لبســه في كل شــــيء
لإن العنكبوت أجــل منهــــا بما نسجت على غــــار النبــي

وأقام الرسول وصاحبه في الغار ثلاثة أيام وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بالطعام كل ليلة ولما علما أن قد سكن الطلب خرجا وسارا على راحلتين وافاهما بهما عبد الله بن أريقط ثم وليا وجهتهما نحو المدينة المنورة وبينما هما في الطريق ظهر فارس خافهما ذلك الفارس هو سراقة ابن مالك فخاف أبوبكر فرفع الرسول بصره إلى السماء يدعو ربه أن يحفظهما من الذي أتى فساخت أقدام الفرس وكادت الأرض تبتلع سراقة فاستغاث برسول الله فأغاثه وعاهده أن يعود إلى مكة ويضلل المشركين وقد وفى بعهده وأسلم وحسن إسلامه وقد وصلا إلى المدينة بفضل الله آمنين سالمين فاستقبلهما أهلهما مكبرين مهللين وساروا حولهما في موكب عظيم فرحين مستبشرين ونساؤهم وصبيانهم ينشدون . :

طلع البدر علينــــا من ثنيات الــــوداع
وجب الشكر علينــــا ما دعــــا لله داع
ايها المبعوث فينــــا جئت بالأمــــر المطــاع

وعلى إثر ذلك هاجر كثير من أصحابه إلى المدينة وكانت الهجرة إليها فرضاً في أول الإسلام على من أسلم لقلة المسلمين بالمدينة وقد أكد الله تعالى فرض الهجرة على المسلمين في آيات كثيرة حتى قطع العلاقة بين من هاجر وبين من لم يهاجر فقال تعالى : « **والذين آمنوا لم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا** » .

وبعد أن استقر الأمر للرسول ﷺ عبأ الجيوش وبعث البعوث، وأخذ من ذلك الحين يحمي الدعوة الإسلامية ويذود عنها ويقاتل من يصد عن سبيلها «**ألا تقاتلون قوماً نكثوا إيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أو مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين**» .

ومن ذلك الوقت قويت شوكة المسلمين وجعل الناس يدخلون في دين الله آمنين مطمئنين ونسي المهاجرون بلدهم مكة وأحبوا المدينة أكثر منها واتحدوا على حماية الدين وفداء الرسول عليه السلام بأنفسهم وأموالهم وأولادهم فأعز الله بهم الدين ونصر بهم رسوله .

العبرة من هذه الهجرة

إن هجرة النبي ﷺ تذكرنا بما أصاب رسول الله وصحبه في سبيل الاستمساك بالدين والثبات على هذا الحق المبين من الأذى والضر الذي لا يتحمله إلا من ثبته الله وربط على قلبه . وهل من السهل على النفس هجرة مسقط الرأس والرحيل عن البلد الذي درج المرء فيه أيام صغره وطابت له به الحياة أيام كبره إلى بلد ليس له بوطن فهذه الهجرة لم تكن هينة على النبي ﷺ ولا على أصحابه ولم يلجئهم إليها إلا المحافظة على ما هو أعز من النفس والمال وهو العقيدة والدين ولولا ذلك ما كانوا من مكة مهاجرين ولا عنها راحلين ولغيرها متحولين . فإذا أراد المسلمون أن يستردوا مجدهم ويستعيدوا عزهم فليقتدوا بنبيهم صلوات الله وسلامه عليه وسيرة سلفهم الصالح رضي الله عنهم أجمعين .

ماذا علمتنا الهجرة

تقدم لنا في الدرس السابق أنه لما كثر الأذى من المشركين لرسول الله ﷺ اضطر فراراً بدينه ودعوته أن يخرج من بلاده ومسقط رأسه. ومما فعله أهل الشرك والعناد أنهم ذهبوا إلى عمه أبي طالب يطلبون منه أن يكف

ابن أخيه عن سب آلهتهم وتسفيه أحلامهم وتضليل آبائهم أو يخلي بينهم وبينه فردهم رداً جميلاً ولكنهم أفهموه أنهم لا يصبرون على هذا الحال وقد أخبره عمه بما قالوا له فقال له النبي : والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه . ولما لم يجدهم ذلك حاربوه هو وقومه بسلاح المقاطعة وهي مقاطعة بني هشام فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم ولا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعون منهم شيئاً ولما أجمعوا أمرهم على ذلك كتبوا صحيفة وعلقوها على الكعبة وظلوا على ذلك سنتين كاملتين والرسول لم يزده إلا ثباتاً على دعوته ولما لم تنفعهم الحيل ولم تحقق أغراضهم ظلت كل قبيلة تعذب من أسلم منها بأنواع من العذاب يفزع لها قلب الحليم فمنهم من كان يعذب من أسلم بوضعه في الرمضاء المحرقة عارياً من الملابس وفوق بطنه حجر ضخم ومنهم من يمنع عنه الغذاء ومنهم من توضع في عنقه أغلال من الحديد ومن يربط في السلاسل ويضرب بالسياط حتى يغمى عليه إلى غير ذلك من أنواع التعذيب الشديد وما زادهم هذا التعذيب إلا إيماناً وتثبيتاً . ولما اشتد الأمر على المسلمين أمرهم الرسول بالهجرة إلى الحبشة فهاجروا إليها وكان المهاجرون أولاً عشرة رجال ثم تبعهم بعد ذلك جماعة آخرون حتى كان عددهم ثلاثة وثمانين رجلاً ومعهم من نسائهم سبع عشرة امرأة ولما بلغ ذلك قريشاً هاجوا وماجوا واضطربوا كالبحر الزاخر ثم اجتمعوا وتشاوروا فاتفقت كلمتهم أن يبعثوا برجلين إلى النجاشي ملك الحبشة ويطلبان منه ردهم إلى بلادهم وهذان الرجلان هما عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص فلما وصلا إلى بلاد الحبشة قدموا للنجاشي الهدايا وطلبوا منه أن يردهم إليهم فلم يرض النجاشي بتسليمهم حتى يسألهم ولما سألهم قال لهم لماذا فارقتم قومكم ؟ فكلمه جعفر بن أبي طالب وشرح له ما كانت عليه حالهم من السوء قبل بعثة محمد ﷺ وما أمره به الرسول من ترك عبادة الأوثان والرجوع إلى الله وما وصاهم به من مكارم الأخلاق ثم قال إن قومنا بغوا علينا وأرادوا

فتنتنا عن ديننا فخرجنا إلى ديارك ورغبنا في جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك فطمنهم وقال لهم اذهبوا فأنتم شيوم ومعنى هذه الكلمة في لغة الحبشة آمنون ورد على الرجلين هداياهما ولما رأت قريش أنهم لم ينالوا من بني هاشم ما أرادوا ولا من النبي ما أرادوا أغروا به سفهاءهم فكذبوه وآذوه ورموه بالسحر والشعر والكهانة والجنون وقد شاء الله الذي لا يحمد على الضراء سواه أن تموت خديجة زوجته وأبو طالب عمه في عام واحد فاشتد بذلك الكرب على رسول الله وسمي ذلك العام بعام الحزن ولما أراد الله إظهار دينه على الأديان كلها وفق رسوله إلى لقاء طائفة من سكان المدينة المنورة فحدثهم بشأنه وبما جاء به ففتح الله قلوبهم وشرح صدورهم للإسلام فأجاب منهم ستة ووعدوه خيراً ثم انصرفوا إلى بلادهم يحدثون عن محمد ونبوته ثم جاءت طائفة أخرى فكانوا كمن سبقهم وبايعوا الرسول على أن ينصروه ويطيعوه حتى لو أمرهم أن يخوضوا البحر لخاضوه .

ولما تمت هذه البيعة أمر الرسول وأصحابه أن يهاجروا إلى دار الإيمان «طيبة» فخرجوا مهاجرين وهم في فرح وسرور وأقام الرسول ينتظر أمر ربه بالإذن له بالهجرة وبهذا نعلم أن هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة لم تكن كما يظنه بعض الناس هروباً من الظلم ونجاة النفس من الاضطهاد ولكنها كانت تدبيراً موفقاً اقتضته إرادة الله لنصر دينه وإعلاء كلمته في بلد يجد فيه المسلمون أنصاراً وأعواناً يؤازرونهم في تحمل أعباء الدين الذي جعله الله إصلاحاً عاماً للناس أجمعين وتأملوا في قول الله عز وجل في المهاجرين « **للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون** » فهذه الآية تبين لنا أن المهاجرين ضحوا بكل شيء في سبيل الله وهاجروا من ديارهم ابتغاء مرضاة الله واحتملوا كل شدة في سبيل إعلاء كلمته وليس وراء ذلك من السمو غاية وكما استبان بالهجرة سمو نفوس المهاجرين كذلك اتضح بها سمو الأنصار الذين أووهم ونصروهم وآثروهم على أنفسهم وقاسموهم أموالهم وصدق

الله العظيم الذي يقول : « **والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** » .

ماذا كانت نتيجة الهجرة وماذا تعلمنا منها ؟

كانت نتيجتها هي النتيجة الباهرة التي ظهرت بعد ذلك إذ تمكن الرسول ﷺ من نشر الدين وحرب المشركين حتى دانت له العرب وأصبحت كلمة الله هي العليا .

فدرس الهجرة يعتبر درساً ناضجاً في تهذيب الإنسان ورقي المجتمع والحد الفاصل بين عهد عبوس الوجه وعهد مشرق باسم يتألق النور من جبينه فقد كانت فرقاً بين الحق والباطل والظلام والنور والشر والخير .

فيا شباب تونس هيا نأخذ بيد الإصلاح ونقرأ سيرة عظمائنا السالفين ونعتبر ما تعلمناه من هجرة الرسول الأعظم ﷺ فقد علمتنا فوائد لاتعد ولا تحصى .

أولاً : علمتنا هذه الهجرة أن الشباب إذا ربوا من الصغر على آستسهال الخطر كانوا أجلاء الأثر فهذا مثلاً علي رضي الله عنه يدعوه الرسول إلى أعظم تضحية وهو أن ينام في فراشه ليلة اتفق الكافرون على قتله فيقبل هذه التضحية راضياً مسروراً ويقوم بها كأنها عمل عادي أو جولة رياضية خفيفة وهو يعلم كل العلم أن سيوفاً طاغية باغية ستحيط به وأن نفوساً قد اشتعلت بالحقد والبغضاء ستحرص على إزهاق روحه ولكن علياً رضي الله عنه تعلم في مدرسة محمد ﷺ أن الحياة مهما طالت فإنها فانية وأن الدار الآخرة هي الحياة الباقية وأن طعم الموت في شيء عظيم كطعم الموت في شيء حقير فلم إذن لا يموت كريماً ما دام الموت واحداً والنهاية واحدة وإن تعددت الأسباب . وقد ثبت أن علياً قال شعراً يصف فيه فداء رسول الله ويصف مبيت النبي في غار ثور منه قوله :

وقيت بنفسي خير من وطيء الثرى ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر

عدو قريش خاف أن يمكروا بـــه فنجاه ذو الطول العظيم من المكـــر
وبات رسول الله في الغـار آمنــــاً موقى وفي حفظ الإله وفي ستـــــر
وبت أراعيهم ومـا يتهمـونـنـــــي وقد وطنت نفسي على القتل والأسـر

ثانياً : علمتنا الهجرة أن البنت المسلمة تستطيع عند الضرورة أن تقوم بواجبهـا نحو ربها لتعاون الرجال في جلائل الأعمال فهذه أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما كانت موضع السر في رحلة أبيها مع الرسول (وشد من النساء من يحفظ السر) أما هي فكانت تحفظه وتضع الخطة لتحمل الزاد من بيتها إلى الغار لينال منه الرسول مع أبيها والمسافة بين البيت والغار طويلة والأخطار متوقعة والطريق غير مأمون ومع ذلك كانت أسمــاء تستسهل كل هذه المتاعب والأخطار لإيمانها بأنها تؤدي واجبها لربها وفي سبيل الله يهون كل عسير . وهاهي تنزع نطاقها الذي تشد به خصرها وثيابها وتشقه نصفين لتربط به أمتعة المهاجرين العظيمين فتكسب بذلك اللقب العظيم « ذات النطاقين » .

ثالثاً : علمتنا الهجرة أن الله يضع سره أحياناً في أضعف خلقه فالرسول الذي ضاقت به مكة وعجزت دورها وحصونها عن حمايته قد حماه غار مكشوف ليس من ورائه جند ولا حوله كتائب اللهم إلا العنكبوت ونسجه والحمام وبيضه ولا عجب فالله يضع قوته في أضعف خلقه وهو على كل شيء قدير فقد أهلك عاداً بالرياح والريح هو الهواء اللين وأهلك دولة سبأ بالماء والماء لين سائل وأهلك نمرود الطاغية بناموسة صغيرة دخلت أنفه فقلبت كيانه وأوردته حتفه وهكذا يبعث الله على الباغين المتجبرين من خلقه الجرثومة الدقيقة أو الميكروب الذي لا تراه العين فيهلك به الملايين والملايين .

رابعاً : علمتنا الهجرة أن القادة إذا لحقهم الظلم في أوطانهم ولم يستطيعوا تأدية رسالتهم في قومهم هاجروا إلى بلاد يتهيأ لهم فيها العمل أحراراً ويتمكنون من إسماع صوتهم إلى مواطنيهم وبذلك يستطيعون بحيلتهم أن يجمعوا حولهم أنصاراً يساندونهم في بلوغ غايتهم ثم يرجعون إلى أوطانهم منتصرين فاتحين .

ما أحوجنا أيها الإخوان أن نتخذ من هذه الهجرة منهاجاً لنا في جهاد أعدائنا وجهاد أنفسنا في هجر كل ما نهى الله عنه من الذنوب فالله قد بين لنا في كتابه العزيز أن الأمم التي أهلكها ما فنيت لضعف قواها الحربية ولا لنقص مواردها المالية ولكنها فنيت بذنوبها «**وكم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين**» .

ما أحوجنا في هذه الأيام إلى العمل بسنة محمد وبأحكام دينه الذي ساد المسلمون العالم باتباعها .

وفي الختام أسأل الله أن يجعل هذا العيد السعيد عيد فلاح وخير على جميع المسلمين إنه سميع قريب مجيب الدعاء .

نسب النبي صلى الله عليه وسلم

الجد الأول عبد المطلب:

اسمه ونشأته

اسمه عامر بن هشام ولقبه شيبة الحمد لكثرة حمد الناس له والثناء عليه لأنه كان ملجأ لقريش في النوائب وكان سيدهم وشريفهم كمالاً وفعالاً ولد في يثرب وسمي عبد المطلب لأن عمه المطلب جاء به صغيراً من مسقط رأسه وأردفه خلفه فكان كل من يسأله عنه يجيب بأنه عبده ولما دخل به مكة أحسن من حاله وأظهر أنه ابن أخيه هشام .

منزلته في قومه

كان عبد المطلب من حكماء قريش فكانت الحكمة تؤخذ عنه وإليه يرجع الرأي ولما انتهت إليه رياسة مكة بعد عمه المطلب كان لا يدخر وسعاً ولا يستبقى مجهوداً في نصح قومه والقيام على ما يصلحهم ويرفع شأنهم فنهى عن الظلم والبغي وأمر بالوفاء بالنذر ومنع نكاح المحارم وقطع يد السارق والنهي عن الوأد الذي حرمته الشريعة الإسلامية وكان يقول : لن يخرج من الدنيا ظلوم بخير حتى ينتقم الله منه ويصيبه بعقوبة وكانت العرب قبل ذلك لا تعترف بالبعث فقال والله إن وراء هذه الدار داراً أخرى يجزى الله فيها المحسن بإحسانه ويعاقب المسيء بإساءته وقد رأى أن الخمر تفسد العقول وتحول بين المرء وبين درجة الكمال والتمييز فحرمها على نفسه وكانت رائحة المسك تضوع منه كما كان نور النبي ﷺ يضيء في غرفته وفي ذلك يقول القائل .

علا شيبة الحمد الذي كان وجهه يضيء ظلام الليل كالقمر البدر

وكان مجاب الدعوة حتى إن قريشاً كانت تستسقي به إذا أعوزهم المطر فيسقى لهم .

قصة أصحاب الفيل

لقد جمع عبدالمطلب إلى الشرف والحكمة وبعد النظر والصلاح والتقوى والقرب من الله فكان لا ترد له دعوة ولا يخيب له قصد وكانت حياته كلها مقدمات ناطقة وبراهين قاطعة لنبوه حفيده محمد .

ولقد حدث في أيامه قصة أصحاب الفيل وانتقام الله تعالى منهم ببركة دعائه . وسبب حادثة الفيل أن أبرهة الأشرم ملك اليمن اعتزم أن ينصر العرب ويصرفهم عن بيت الله الحرام ويهدم الكعبة ويسويها بالتراب ويبني كنيسة بصنعاء قاعدة ملكه وعقد نيته على ذلك فشرع في بناء هذه الكنيسة وفرشها بالرخام الأصفر والأحمر والأسود وزين حيطانها وجعل أبوابها مصفحة بالذهب فتم بناؤها على أكمل وجه وأدقه وسمعت العرب بقصد أبرهة وعزمه على صرف الحجيج إلى كنيسة صنعاء فغضبوا وعزموا على الكيد لهذه الكنيسة فذهب بعضهم إليها خلسة في يوم اشتد ريحه فتبرزوا فيها ولطخوا ببرازهم أبوابها ثم اججوا فيها ناراً فاحترقت الكنيسة ولم يبق فيها عود على عود وزال ذلك الشبح من عالم الوجود . عندئذ أرغى وأربد أبرهة وأخذ في تسيير جيش عرمرم ليهدم الكعبة ويذل قريشاً ذلاً لا عز بعده فسار الجيش الى مكة وإلى البيت المبارك ومعه الأفيال وهو لا يعلم بما أعده الله له من العذاب والنكال وسار « أبرهة » بنفسه مع الجيش المعتدي وهو يكتسح في طريقه كل من تعرض له من القبائل العربية ولكن الله تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه جعله عبرة في العالمين وقد ابتدأ بالإغارة على ماشية أهل مكة وكان فيها مائتان من الإبل لعبد المطلب جد النبي ﷺ وأرسل رجالا من رجاله إلى أشراف مكة يخبرهم أنه لم يجيء لقتالهم إلا إذا صدوه عن البيت ومنعوه فدله الناس على عبد المطلب فتحدث إليه بما قال الملك وطلب منه أن يذهب إلى الملك ويتحدث إليه فأجيب إلى ما طلب ولما دخل عبدالمطلب على الملك

ووقف بين يديه عظمه وأكرم وفادته وكان عبد المطلب حسن المنظر جميل الصورة ثم أمر بإحضار الترجمان فقال: له قل لعبد المطلب ما حاجتك إلى الملك؟ فقال: حاجتي أن ترد إلي وإلى الناس إبلهم وماشيتهم. فقال الملك: عجباً لك ولرأيك أتكلمني في مئتي بعير وتترك الكلام في بيت دينك ودين آبائك وقد جئت لأهدمه فقال عبد المطلب: أما الإبل فهي إبلي وأما البيت فله رب يحميه. فغضب الملك وقال: ما كان ليمنعه مني «يريد أنه لا يقدر على منعه» فقال عبد المطلب: افعل ما تشاء وسنرى ما يكون. فأمر الملك برد الإبل إلى أربابها فردت. ولما رجع عبد المطلب نصح الناس أن يتركوا البلد ويخرجوا إلى الجبال فيعتصموا بها صوناً لأنفسهم وأعراضهم ففعلوا ثم توجه عبدالمطلب وجماعة من أشراف مكة إلى الكعبة فأخذ بحلقة الباب وصار يدعو ويتضرع ويسأل الله الكريم أن يرد أعداءه وهم يؤمنون وكان مما قاله:

اللهم إن العبد يمـ ـنع رحله فامنع رحالك
وانصر على آل الصليـ ـب وعابديه اليوم آلك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبداً محالك
جاؤوا بجمع بلادهم والفيل كي يسبوا عيالك
قصدوا حماك بكيدهم جهلوا وما رقبوا جلالك
إن كنت تاركهم وكعـ ـبتنا فأمر ما بدالك

ولما تقدم الجيش نحو بيت الله برك الفيل فضربوه فلم يقم فوجهوه إلى غير البيت فقام ولما حولوا وجهه إلى البيت برك وامتنع عن السير وفي هذا يقول أمية بن أبي الصلت.

إن آيات ربنا بينات لا يماري فيهن إلا الكفور
حبس الفيل بالمغمس حتى ظل يحبو كأنه معقور

وبينما هم مع الفيل في مشادة مصممين على هدم البيت إذ أرسل الله عليهم طيراً أبابيل وهي من جنود الله التي لا يعلمها إلا هو فرمت القوم بسمها فهلك أكثرهم أما أبرهة فأصيب بداء تمعط منه جسده حتى صار

كالفرخ بلا ريش ففر هارباً إلى صنعاء ولكنه هالك عقب وصوله إليها ولم يذق نعمة الصحة والشفاء والشكر لله على النصر على الأعداء وقد حكى الله تعالى هذه القصة في القرآن الكريم لنبيه ﷺ في سورة الفيل فقال تعال : « **ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول** » .

يعني : ألم تعلم يا محمد بما وقع قبل ميلادك من قصة الفيل إن الله أبطل كيدهم ومكرهم فلم يصلوا إلى ما أرادوا وسلط عليهم بعض المخلوقات التي تسبح في الهواء فأصابهم بداء وأي داء إنه داء الفتك والهلاك فكانت ترميهم بسمتها فيذوق المصاب منها عذاباً كعذاب جهنم وكان خاتمة أمرهم أن هلكوا وبادوا وصاروا كأوراق الزرع الجافة والهشيم التي تأكلها الدواب وسبحان القاهر فوق عباده .

هذا مثل من أمثال التعصب المسيحي القديم وأمثاله لا تحصى ولا تعد وهو كاف في تنبيه العقول المسلمة والقلوب المؤمنة ليكونوا دائماً على حذر كما علمنا ديننا فالله جل وعلا يقول « **يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم** » ويقول : **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق** » .

هذا وفي مثل هذا الشهر « ربيع الأول من عام الفيل برز إلى الوجود خير مولود وسطع نوره في الخافين وأكرم الله به الثقلين وفي يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول في ذلك العام فاضت على المخلوقات بركاته وعمت خيراته ولم يكن أبوه عبد الله حياً لأنه مات عن خمس وعشرين سنة ومحمد في بطن أمه جنين وكان الكافل له بعد أبيه جده عبد المطلب سيد القريشيين ولما ولد محمد ﷺ فرح بولادته جده عبد المطلب وأعمامه لأنه خفف عنهم ألم الحزن على أبيه عبد الله ومن ذلك الفرح أن أبا لهب (عبد العزى) عم النبي ﷺ أعتق جاريته ثويبة لأنها بشرته بمولود جميل لأخيه عبدالله

وقد جاء في الأثر أن العباس عم النبي رأى أخاه أبا لهب في النوم بعد أن قتل في غزوة بدر الكبرى لأنه كان من ألد أعداء النبي ﷺ فسأله قائلاً : كيف حالك ؟ فقال عن نفسه إنه في النار لكن العذاب يخفف عنه يوم الإثنين من كل أسبوع ويقول لعل ذلك بعتقه ثوبية فرحاً بمولد محمد وفي ذلك يقول حافظ الشام :

إذا كان هذا كافراً جاء ذمه ... وتبت يداه في الجحيم مخلداً
أتى أنه في يوم الإثنين دائماً ... يخفف عنه للسرور بأحمد
فما الظن بالعبد الذي كان عمره ... بأحمد مسروراً ومات موحداً

وقد جاء في التاريخ أن جده عبد المطلب فرح بمولد النبي ﷺ فرحا بليغاً وقال : إني لأرجو أن يكون له شأن وفي اليوم السابع ذبح عنه وعق ودعا قريشاً فأكلوا وسماه محمداً . ولما بلغ ﷺ ست سنين توفيت أمه آمنة بنت وهب فكان محمد مع جده عبد المطلب ينبته الله نباتاً حسناً ولما حضرت عبدالمطلب الوفاة أوصى ابنه أباطالب به لأنه شقيق أبيه وكان عمر النبي ثمان سنين وكان أبو طالب يحب محمداً حباً شديداً أكثر من حبه لأولاده وكان لا ينام إلا إلى جنبه وإذا خرج خرج معه فالحمد لله رب العالمين والشكر له في كل وقت وحين على أن جعلنا من أمة هذا النبي الأمين الذي جاء بالصدق وأحب الصالحين ورحم الله من قال في مولد النبي فأفرح القلب الشجي :

تجلى مولد الهادي وعمت ... بشائره البوادي والقصابا (1)
وأسدت للبرية بنت وهب ... يداً بيضاء طوقت الرقابا
لقد ولدته وهاجاً منيراً ... كما تلد السماوات الشهابا

---

(1) القصابا : هي المدن

فقام على سماء البيت نـــوراً يضيء جبال مكة والنقـــابـــا (1)
وفاحت مكة الفيحـــاء مسكـــاً وفاح الجو أرجـــاء وطـــابـــا

الجد الثاني هاشم

اسمه عمرو وكان له إخوة ثلاثة هم : عبد شمس والمطلب ونوفل وكانوا معروفين بالوجاهة وحسن الجمال حتى كانوا يدعون بأقداح النضار « أي الذهب » ويقال لهم المجيرون لكرمهم ولقب عمرو « بالعلاء » لما كان له من المنزلة الرفيعة والمكانة السامية في قومه وكذلك لقب (بهاشم) لأن قريشاً قد أصابتها مجاعة آغبر لها الأفق واقشعرت منها الجلود وأيقن الناس بالهلاك ولزم كل واحد خاصة نفسه منهم وشغل عن غيره ولكن هاشما لم تؤثر فيه هذه الشدائد ولم تجعل بينه وبين كرمه فرأى أن يقوم بتخفيف بؤس الناس وتقديم ما في وسعه من المساعدة إزاء هذه الكارثة الكبرى فسافر إلى فلسطين واشترى منها قدراً عظيماً من الدقيق وحمله إلى مكة فخبزه وذبح الذبائح واتخذ ثريداً لأهل مكة وأطعمهم حتى أشبعهم ورفه عنهم فسمي هاشماً لذلك وفيه يقول الشاعر :

عمرو الذي هشم الثريد لقومـــه ورجال مكـــة مسنتـــون عجاف
« أي هزال بسبب المجاعة »

وقال آخر

عمرو العلاء والندى من لا يسابقـــه مر السحاب ولا ريح تجاريـــه
أجفانه (2) كالجوابي (3) للوفود إذا لبوا بمكة ناداهم مناديـــــه

يعني أن عمراً وهو (هاشم) بلغ من الجود شأواً كبيراً حتى كأنه كان يسبق في كرمه الرياح في هبوبها .

---

(1) النقابا هي الطرق في الجبال .
(2) الاجفان : هي اواني الطعام
(3) الجوابي : هي الحياض الراسعة

ومن كرمه أن أجفانه مثل الجوابي فليست أواني طعامه جفاناً صغيرة ولا صحافاً لا تكفي إلا عدداً قليلاً كآنية غيره ولكنها أوان واسعة ومع اتساعها فهي منصوبة يأكل منها الحاضر والبادي وقد مدحه بعض الشعراء فقال :

قل للذي طلب السماحة والندى، هلا مررت بآل عبد مناف
الرائشون (1) وليس يوجد رائش والقائلون هلم للأضياف

منزلته في قومه وصفاته

كان هاشم يبدو للناظرين كأنه قمر السماء يتلألأ في وجهه نور النبي ﷺ وكان يحمي ابن السبيل ويؤمن الخائف ويرد الحقوق إلى أصحابها وكان إذا هل هلال الحجة وهو الشهر الذي تفد فيه الوفود إلى مكة قام صبيحته وأسند ظهره إلى الكعبة وخطب قومه حاثاً إياهم على إكرام وفود الحجاج وتسهيل أسباب راحتهم مدة إقامتهم في مكة ومن خطبه :

« يا معشر قريش :

إنكم جيران بيت الله أكرمكم بولايته وخصكم بجواره وإنه سيأتيكم زوار بيت الله يعظمون بيته فهم أضيافه وأحق من تكرمون أضياف الله أسألكم بحرمة هذا البيت ألا يخرج رجل منكم من ماله لكرامة زوار بيت الله وإطعامهم إلا طيباً لم يؤخذ ظلماً ولم يقطع به رحم » فكانوا يجتهدون في ذلك ويخرجون من أموالهم فيضعونها في دار الندوة ولقد جمع هاشم إلى جلائل الأعمال ومكارم الأخلاق الكرم والجود ولما علا ذكره وشاع كرمه أراد أمية ابن أخيه عبد شمس أن يجاريه في هذا فعجز فعيرته العرب فطلب أن ينافر عمه يعني يفاخره فأبى هاشم أن ينافر ابن أخيه أمية لكبر سنه وعلو قدره ولكن قريشاً ألحت عليه واظطرته إلى قبول المنافرة فقبلها على شرطين .

---

(1) الرائشون : الشجعان الذين يرمون الاعداء بالنبال

أولاً : أن ينحر المغلوب بمكة خمسين ناقة سوداء للفقراء .
ثانياً : ان ينفى بمكة عشر سنين .

فرضي أمية بذلك واستعد كل منهما وخرج في رهطه إلى عسفان فتنافرا فغلب هاشم ابن أخيه . بعد ذلك رجع هاشم إلى مكة ونحر الإبل بها ، أما أمية فرحل إلى الشام وأقام بها العشر سنين المتفق عليها وهذه أول عداوة حصلت بينهما وتوارثها أبناؤهما من بعدهما .

ولقد كان هذا فراسة واستنتاجاً أخبر بهما العرب من قبل حينما ولد هاشم وأخوه عبد شمس وكانا توءمين فوجدت إصبع إحدى رجلي هاشم ملتصقة بجبهة عبد شمس ولم يكن فصلهما عنها إلا بسيلان دم فكان العرب يقولون : إنه سيكون بين الإثنين دم وعداوة وقد كذب الله تعالى زعمهم فلم يحصل بين الأخوين شيء وإن كان قد حصلت بين هاشم وبين ابن أخيه عداوة ومما يؤكد اختصاص هاشم بالثناء والمفاخر دون غيره ما ذكره بعض أصحاب رسول الله ﷺ كما رواه محمد بن إسحاق وغيره من أرباب السير والمغازى وهو أن النبي ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه وقفا على باب بني شيبة فمر عليهما رجل وهو يقول :

يا أيها الرجل المحول رحله هلا نزلت بآل عبد الدار
هبلتك أمك (1) لو نزلت برحلهم منعوك من عدم (2) ومن إقتار (3)

فلما سمع النبي ﷺ ذلك التفت إلى أبي بكر منكراً على الرجل تغييره في الشعر وإبداله عبد مناف بعبد الدار وقال أهكذا قال الشاعر ؟
قال أبو بكر : لا والذي بعثك بالحق لقد قال الشاعر : .
يا أيها الرجل المحول رحله هلا نزلت بآل عبد مناف

---

(1) هبلتك امك : يعني فقدتك
(2) العدم : الفقر الشديد
(3) الاقتار : ضيق المعيشة

هبلتك أمك لو نزلت برحلهم منعوك من عدم ومن إقراف (1)
الخالطين غنيهم بفقيرهم حتى يعود فقيرهم كالكافي (2)

فلما أنشد أبو بكر هذا الشعر على حقيقته وأسند المكرمات إلى أربابها وهم بنو عبد مناف تبسم النبي ﷺ وقال هكذا سمعت الرواة ينشدونه.

الجد الثالث عبد مناف

اسمه المغيرة وهو أول ولد لقصي وقد لقب بعبد مناف وكان يقال له قمر البطحاء لحسنه وجماله وكان في يده لواء نزار وقوس إسماعيل وإياه يعني الشاعر بقوله :

كانت قريش بيضة فتقسمت فالمح خالصة لعبد مناف

ولقد كان تقياً يعترف بالخالق ويؤمن به ويحث الناس على مراقبته وخشيته وقد وجد ما يدل على ذلك مكتوباً على بعض أحجار مكة « إنما المغيرة بن قصي أوصى قريشاً بتقوى الله جل وعلا وصلة الرحم » وقد طار ذكره وعلا قدره أما أعماله فلم نقف على أكثر مما ذكرناه من سيرته مع شدة بحثنا وكثرة تنقيبنا في بطون الكتب والأسفار وفي الختام أسأل الله جل وعلا أن يصلي ويسلم على نبيه وآله وأصحابه ويكتب لنا السلامة يوم العرض عليه ويحشرنا في زمرته ويتوفانا على ماته والسلام عليكم ورحمة الله .

(1) الاقراف : هو ما استفاده الانسان من المال

(2) الكافي : هو المستغني يعني حتى يصير الفقير منهم كالغني

ذكرى مولد الرسول في 12 ربيع الاول

قال الله تعالى في كتابه العزيز : « **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** » .

أيها الإخوان

نجتمع الليلة في مناسبة كريمة هي خير المناسبات وفي فرصة هي من أعز الفرص على نفوس المؤمنين تلكم هي مولد الرسول النبيء الهاشمي القريشي الذي طاب غرسه وزكا منبته وشرف نسبه فياله من نبي كريم ذي خلق عظيم جاهد في سبيل الله فصبر ، تحمل مالم يتحمله بشر : تأنيب وتعذيب واستهزاء وتغريب ، رمي بالحجارة وبالفرث والنجاسة ، كيد وائتمار على القتل، حرب بالمقاطعة والإيذاء والتعذيب بجميع الأنواع استمرت ثلاثة عشرة سنة ، وحرب بالسلاح استمرت عشر سنين وهو صابر لم تهن له عزيمة ولم تفتر له همة حتى انتصر النصر المبين .

أيها المسلمون

لئن احتفلت الأمم بذكرى ميلاد ملوكها وكبائرها فالقد حق على المسلمين أن يحتفلوا بذكرى مولد رسولهم ومنقذهم وهاديهم ومرشدهم أرسله الله متمماً لمكارم الأخلاق هادياً إلى خيري الدنيا والأخرى واضعاً أساس نهضة إصلاحية شاملة لا تقتصر على ناحية من نواحي الاجتماع دون أخرى فجاءت رسالته كاملة تامة فكانت خاتمة الرسالات التي تجعلها صالحة لكل زمان ومكان وللأمة التي بلغت قيمة الرقي أو التي لا تزال بعد في

أوج الحضارة . دعا الناس إلى إخلاص العبادة لله والخضوع له دون سواه وترك التعصب للجنس أو القبيلة وإلى إزالة الفوارق بين الطبقات « **لافضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى إن أكرمكم عند الله أتقاكم** »

أيها المسلمون

علينا أن نجعل هذا الرسول إمامنا وقدوتنا ونجعل حياته وذكرى ميلاده عظة لنا وهذا لا يكون إلا بإحياء سنته واتباع طريقته والعمل بشريعته وإعزاز دينه ونشر تعاليمه والاستمساك بكتاب الله الذي نزل عليه بإحلال حلاله وتحريم حرامه والوقوف عند حدوده وبذل النفس والمال والتضحية بالنفيس والغالي في تعليم آياته وآدابه وأخلاقه وبث ذلك في البيوت وفي الأندية وفي المجتمعات وفي معاهد التعليم حتى تتطهر العقائد وتتهذب النفوس مما ألم بها من أثرة ممقوتة وفساد كبير .

أيها المستمعـــون

إننا في وقت طغت فيه المادة على الروح وقويت شوكة الفساد ووئدت الفضيلة وصار للكذب سوق رائجة وولى الشرف الإنساني مدبراً مهزوماً محطماً هشيماً فانهار بنيان الأخلاق وضاعت مقاييس الآداب فغدا الفجور مدنية والفسق حضارة والإلحاد علماً وفلسفة والرياء لباقة والنفاق سياسة والتملق كياسة وفطنة والاختلاس مهارة والغدر شجاعة وسوء الأدب حرية والوقار تأخراً والتعفف بلادة فهل للمسلمين أن يعتبروا بذكرى مولد الرسول ﷺ واستعراض سيرته الطاهرة ودينه القويم وأخلاقه الكريمة فسيكون لهم من ذلك قدوة نافعة وأسوة حسنة وعظة بالغة وحكمة زاجرة ويتعاونوا على الحق ويتواصوا بالصبر ويسلكوا مناهج الخير والعدل ويرجعوا إلى ربهم فيطرحوا أضغانهم ويسلكوا سبيل التعاون والوفاق « **ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم** » .

أيها المؤمنـــون

إن العالم في حيرة واظطراب تتلقفه المحن وتطيح به الكوارث

وترديه شهوات النفوس. اغتر الإنسان بنفسه وهام بظاهر من علمه ولج به الغرور واستبد به الادعاء فظن في نفسه القدرة على كل شيء إلا على أهوائه ومطامعه « **قتل الإنسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره** » .

عشق الناس الحرية فنادوا بها من كل مكان ولما صارت بين أيديهم وتحت سلطانهم ظلموها وشوهوها واتخذوها ذريعة إلى هتك الأغراض وانتهاك الحرمات ومعاني الحياء والعفاف في النفوس وإفساد معالم الأخلاق الرفيعة فلا إيثار ولا تعاطف ولا تراحم . الأنانية قانونهم وحب الذات دينهم وسبيلهم .

أيهـــا المستمعون الكرام:

لا أراني في حاجة أن أصور لحضراتكم مبلغ هبوط الحس الخلقي الآن في البيئات التونسية فإن ما يجري أمامنا في كافة الأوساط من الحوادث والمآسي والخصومات والجرائم والجنايات التي اتسع مداها وتنوعت في شكلها وأسبابها ونتائجها فكان لها أبعد الأثر في تفكك الروابط العائلية فإن الذي يجري أمامنا يشير بأوضح بيان عن المستوى الخلقي الذي إليه وفيه انحدرنا حتى خيل للناس أننا نعيش في جو لا يسمح بالدفاع عن الفضيلة في حين أنك إذا جلست متحدثاً إلى شخص بعد آخر في خلوة رأيت إجماعاً يشير إلى استنكار هذا الخلق السائد وسمعت الشكوى تلو الشكوى من سوء الحالة الخلقية وكل واحد يسأل ما السر في تأخر الأمة في حسها الخلقي وأهم هذه العوامل في نظري هي : المنزل والبيئة .

فالتربية في المنزل كانت في مامضى قائمة على أساس القدوة الصالحة ومصبوغة بالروح الدينية التي كان لها بعض الأثر الطيب في التهذيب الخلقي وهكذا كانت البيئة التونسية جملتها تحمل في ثنايا بيوتها الخلق الصالح إلى درجة ما وكانت هذه الأخلاق من ثمرة الحياة الطبيعية الساذجة لامن ثمرة العلم والمعرفة فكنت ترى في الخلق التونسي الاعتماد على الله والتسليم بما

جاء به القضاء والكرم واللين والصدق والنزاهة والأمانة والعفة والصراحة والطهارة والمحافظة على حقوق الغير والمحبة التي قامت في ذلك الحين مقام القانون بين الناس .

حدثني صديق لي عن شيوع الخلق في ذلك الحين قال : إذا أراد أن يستدين من آخر استقراه الأخير الفاتحة على أن لا يذكر لأحد أنه استدان منه وإذا أحس أحد التجار بكساد تجارة زميل له أوصى زبائنه بأن يشتروا منه لرواج تجارته .

هذه صورة مصغرة للحياة الاجتماعية التي كانت عليها البيئة التونسية وهي تدل على انتشار التعاون الحقيقي بين الأفراد .

إخواني وأبنائي الأعزاء

تدارسوا سيرة رسول الله ﷺ فصلاً فصلاً وتمثلوا رسول الله ﷺ في أخلاقه خلقاً خلقاً وتدارسوا القرآن سورة سورة وآية آية فلن يفلح قوم جهلوا سنة الرسول ﷺ وتركوا كتاب الله تعالى وجهلوا شريعتهم .

أنا أعلم علماً ليس بالظن أن شباب اليوم فيهم حماسة للدين وتعصب له وفيهم أمل باسم للدفاع عن حرماته .

وإن لي في الختام كلمة رجاء أوجهها إلى جميع المحتفلين بعيد المولد النبوي الشريف المبارك هو أن يعملوا بما جاء به القرآن وبهدي الرسول عليه السلام واتباع سنة السلف الصالح وهذا هو الذي يعلي قيمتنا ويرفع من شأننا ويكسبنا احترام غيرنا ويربط بعضنا بعضاً برباط المحبة والمودة والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً والسلام عليكم ورحمة الله .

لماذا نحتفل بذكرى مولد الرسول صلى الله عليه وسلم

إذا كان حقاً على كل أمة أن تحتفل بعظمائها اعترافاً بفضلهم وتخليداً لذكراهم وتشجيعاً لمن يحذوهم فأولى بالمسلمين أن يحتفلوا بذكرى ميلاد رسولهم الذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور ومن الظلم والاستبداد إلى الرحمة والعدل .

فنحن إذا احتفلنا بهذا العيد فإنما نحتفل بعيد الحرية والنور والأخلاق الفاضلة لا حرية الفجور والإباحة والاستهتار والخروج عن طاعة الله ولسنا نحتفل بمولد المختار لنعلي ذكره أو لنرفع قدره فقد تكفل الله بذلك في القرآن الكريم بقوله : « **ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك** » لسنا نحتفل بمولد المصلح الأكبر لنزيد في عظمته فإن عشرات الألوف من المآذن تدوي في اليوم والليلة خمس مرات بصوت عذب وهو : « **أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله** » لسنا نحتفل بمولده لنبين أخلاقه الكريمة وسجاياه العظيمة فإن الله مدحه بقوله « **وإنك لعلى خلق عظيم** » ولكننا نحتفل بمولد المصطفى لنستعرض حالنا ولنعرف ما نحن عليه بالنسبة إلى ما جاء به من النور والهداية ولنقارن بين المسلمين الأول ومسلمي هذا الزمان الذي تغير فيه كل شيء ، نحتفل بمولده لنداوي أمراضنا التي أضعفتنا فنحن نتألم مما نحن فيه ونفكر في كيفية العلاج لأمراضنا التي لا حصر لها . المسلمون كثير عددهم قليلة عدتهم

قد أحيطت بهم جميع البلايا والهموم والأخطار ولو أنهم يعملون على دفعها لهان أمرها وييسر عسرها ولكنهم متباغضون متواكلون تصيبهم القوارع وتدهمهم الزوابع وكان واجبهم أن يتحدوا ويعتصموا بحبل الله جميعاً ولكنهم متخاذلون متفرقون شيعاً وأحزاباً حتى صاروا والألف منهم كواحد وكاد يجيء الوقت الذي وصفهم فيه النبي ﷺ أنهم غثاء كغثاء السيل فقد ورد في الحديث الذي أخرجه أبو داود أن الرسول الله ﷺ قال : توشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها فقال قائل : من قلة نحن يومئذ ؟ قال : لا ، بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ويقذفن في قلوبكم الوهن قيل وما الوهن يا رسول الله قال : حب الدنيا وكراهة الموت .

هذا الحديث معجزة من معجزات الرسول يؤيدها الواقع وينطق بها المشاهدة ويصدقها العيان وما بعد العيان بيان أو برهان . كان رسول الله ﷺ يعلم أن هذه الأمة سيصيبها من الفتن ما أصاب الأمم الأخرى قبلها فنبه المسلمين إلى ما يتهددهم من الأخطار ليكونوا على حذر منها فقال : « توشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها » أي يأتي عليكم زمان تكون فيه بلادكم مائدة المطامع الأجنبية تتخالف على اقتسام بلادكم ويدعو بعضها بعضاً إلى ذلك كما يدعو الآكلون بعضهم بعضاً إلى قصاع الطعام ونحن قد رأينا صدق هذا الحديث فقد استعبد الأجانب تونس والجزائر والمغرب وسوريا ولبنان ومصر والعراق وأما دولة الأندلس فقد محيت من الوجود وما أذل هذه الدول وذهب باستقلالها إلا تخاذلها وتغافلها عن السنن الاجتماعية التي قررها القرآن الكريم في قوله : « **وأعدوا لهم ما آستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** » وقال « **ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون** » . أي الصالحون لعمارتها سمع الصحابة الكرام تلك النبوءة من رسول الله فسألوه عن السبب فقالوا : من قلة نحن يا رسول الله قال : بل أنتم كثير ولكن كثرة

عددكم لا تفيدكم ولا تغني عنكم شيئاً وسيكون هذا العدد كغثاء السيل وهو ما يلقيه البحر والنهر من الحشائش والعيدان التي لا قيمة لها ولا فائدة فيها .

وليقذفن في قلوبكم الوهن أي الضعف والجبن قيل وما الوهن يا رسول الله ؟ أي ما هي الأسباب التي تحدث الجبن والضعف في نفوس المؤمنين قال : « حب الدنيا وكراهة الموت » هذا الحديث يبين لنا أن علة العلل في ضعف المسلمين هي إفراطهم في حب الاستمتاع بالدنيا وما فيها من متع زائلة وكراهتهم للموت في سبيل الله ، فضعف تمسك الكثيرين منهم بدينهم الذي أعز أسلافهم ففشت فيهم المنكرات التي قتلت رجولتهم ونسوا الله فأنساهم أنفسهم وغيروا فغير الله ما بهم من عزة إلى ذلة ومن قوة إلى ضعف وتلك هي العاقبة لكل سليم يتجنب النور ويسير في الظلام فلا يأمن غائلة الطريق وصدق الله العظيم الذي يقول : **« أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم »** .

على أننا لا نيأس من الإصلاح فالمسلمون وإن كانوا قد وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الذل والمسكنة فإن الحوادث العالمية قد نبهت البعض من غفلتهم ونهضوا يلتمسون مكانهم تحت الشمس ويبحثون عن موطن الداء الذي أفقدهم كثيراً من عزهم وكرامتهم . وها نحن نرى مناظر اليقظة قد عمت غالب الأقطار الإسلامية الذي حصلت على استقلالها وصارت تفكر من جديد في الأخذ بأسباب القوة ونرجوا أن يعقب هذة اليقظة عمل جدي يتكافل فيه المسلمون جميعاً على النهوض ببلادهم إلى الغاية العليا التي تليق بماضيهم المجيد .

فلنجعل مولد الرسول فرصة طيبة لتذكير المسلمين بالواجب عليهم إذا أرادوا سعادة الدارين وعرض صورة صحيحة من أخلاقه الكريمة ليقتدي بها المؤمنون ومحاسبة أنفسنا على ما فعلناه لنزداد في الإحسان ونتمسك بديننا الذي ساد به أسلافنا .

هذه كلمة أجيب بها عن السؤال الذي في طالع هذا المقال وهو لماذا نحتفل بمولد الرسول ﷺ فلعل قومي يتدبرون هذا السؤال ويعملون

على إعزاز دينهم حتى إذا احتفلنا بمولد الرسول في العام القابل نشعر أننا تقدمنا خطوة في سبيل الإصلاح .

أسأل الله التوفيق والسداد وأن يبعث للإسلام رجالاً مخلصين يحفظونه من كل كيد إنه سميع مجيب .

يوم من ايام حياة الرسول

صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى في كتابه العزيز : « **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم** » .

إخـــوانى

تعالوا أقص عليكم خبراً من أيام الرسول المباركة وما أنا بمحص ولا عاد إنما يدل على السيف أثره وينبىء عن الروض نشره ويحدث عن الغرس ثمره ونحن معشر المسلمين لا تصح لنا النسبة إلى النبيء الكريم حتى نتخذ الرسول أسوة لنا في القول والعمل قال تعالى : « **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** » وذلك لأن طريق الحق جل شأنه أشرف الطرق وأجلها وأعظم السبل وأكملها ولا جرم أنه لا يمكن السلوك إلى هذا الطريق والوصول إلى غايته إلا بمتابعة مرشد صادق وقائد حاذق هو الذي أمرنا باتباع هذا القائد لنسعد في الدنيا والآخرة قال تعالى : « **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم** »

وسيرة الرسول دستور في العبادات والحياة والمسلمون في كل زمان أحوج ما يكونون إلى طريق واحد يسلكونه ومنبع واحد يستقون منه فالمنبع هو القرآن الكريم الذي أتى بكليات المسائل التي تتصل بالناس في العقائد والمعاملات والأخلاق وجميع العلوم والطريق هو اتباع سنة الرسول فمن زعم غير ذلك فهو مفتون كيف لا والله يقول : « **فلا وربك لا يؤمنون حتى**

يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً »

فمحمد ﷺ هو المعلم الأكبر والإمام الأول للإنسانية فمن شاء أن يذوق حلاوة الإيمان ومناجاة الرحمان فليقتد به في جميع أقواله وأفعاله فهو قدوتنا إلى الله وبابه الذي نعرج منه إلى رضاه وكل أمة تهجر طريق رسولها وتؤثر هواها فمصيرها إلى الفشل وها أنا الخص لكم أشعة من شمس حياته الكريمة .

بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم

لندخل الآن بيت رسول الله وقد وصفها عمر بن الخطاب فقال : هي لا ضيقة ولا واسعة وسطاً بين ذلك وإذا بحصير في وسطها وعلى الحصير فراش نوم الرسول ووسادة حشوها ليف وغطاء يقيه البرد غير دافيء لئلا يبعث الكسل ولا ناعم يجلب الرقاد ولقد نظر عمر ثم نظر فما وجد إلا حفنات من الشعير وإناء للوضوء وما لا قيمة له من زاد وعندما رأى عمر ذلك بكى فقال الرسول : وما يبكيك يا ابن الخطاب ؟ فقال : أبكاني أنك صفوة خلق الله وهذه دارك وما فيها وهذا كسرى وهرقل يرفلان في الحرير والنعيم عند ذلك قال له الرسول : أما ترضى يا عمر أن تعجل لهم طيباتهم في الحياة الدنيا ولنا الآخرة ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . فاسترجع عمر واستغفر فاستغفر له الرسول فوجد الله تواباً رحيماً .

نومه صلى الله عليه وسلم

يريد الرسول لينام فإذا به يتوضأ وضوءه للصلاة ثم يصلي ركعتين ثم يأوي إلى فراشه فيقرأ آية الكرسي وتارة سورة الإخلاص ثم ينام على شقه الأيمن ويقول : اللهم أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت .

يقظته صلى الله عليه وسلم

« إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك » .

يجيء منتصف الليل فإذا بالرسول يقوم من مضجعه نشيطآدايب النفس فيقول : الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور ثم يقلب النظر في ملكوت السماوات والأرض ثم يتلو « **إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب** » (إلى آخر سورة عمران) .

ثم يتوضأ فإذا فرغ من ذلك لبث ملياً ثم جاءه بلال يستأذنه في الآذان ثم يلبس ثوب الصلاة ويخرج ليؤم الصحابة فإذا سار في طريقه إلى المسجد قال : « **اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي لساني نوراً واجعل في سمعي نوراً وفي بصري نوراً ومن خلفي نوراً ومن أمامي نوراً ومن فوقي نوراً ومن تحتي نوراً** » فإذا دخل المسجد قال : « **اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب نعمتك** » فإذا طلعت الشمس صلى صلاة الضحى ثم يرجع إلى داره فيسألهم إن كان لديهم طعام وإلا نوى الصيام وكان لا يأكل حتى يجوع وإذا أكل لا يشبع ثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس. وكان يحب تكثير الأيدي على الطعام ولا يأكل منفرداً وكان يجيد اللقمة ولا ينفخ في الطعام الحار وكان يتحدث أثناء الطعام تسلية لضيفانه فإذا فرغ غسل يديه ثم حمد الله وأثنى عليه .

وكان إذا شرب أمسك الكوب بيده اليمني ويقول باسم الله وكان يشرب ويتنفس يفعل ذلك ثلاث مرات فإذا فرغ قال : الحمد لله .

معاشرته لأهله صلى الله عليه وسلم

كان في بعض أوقاته يشترك مع أهله في المهنة أو يداعب الحسن والحسين أو يخيط ثوبه أو يمسح حذاءه أو يرقعه أو نحو ذلك تخفيفاً على أهل بيته .

إلى هنا نكتفي بهذا القدر وموعدنا إتمام هذا الموضوع في الدرس المقبل إن شاء الله .

يوم من ايام حياة الرسول

صلى الله عليه وسلم

آداب الاستمتاع .

صفة المؤمن الحياء ولكن لا حياء في تعلم الدين والله لا يستحي من الحق . فمن السنة أن لا يفجأ زوجته فيقع عليها من غير مقدمات كالبهيمة بل يمازح ويلاعب ثم يأتي بما أمره الله وهو القبلة والمعانقة ثم يسمي الله ويقول : « **اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا** » .

معاملته لضيفه

كان إذا زاره ضيف بش في وجهه ورحب به وخدمه بنفسه وأكرمه بما حضره من طعام ونصحه وأزال وحشته فيصير كأنه في داره وبين أهله .

عبادته لربه

كان يخاف من ربه ويراقبه في كل عمل يعمله فإذا توضأ أحسن الوضوء وإذا صلى أتم الركوع والسجود والخشوع والتضرع فكان يجد في الصلاة سروراً وانشراحاً حتى قال : وجعلت قرة عيني في الصلاة . ويقول : يا بلال أرحنا بالصلاة . وكان يخفف الصلاة لبكاء طفل وكان يصلي الضحى . وأخبر أن ركعتي الضحى تعدل ثلاثمائة وستين صدقة وكان يقرأ كل يوم جزءاً من القرآن مرتلاً خاشعاً ويتدبر معناه فكان خير العاملين وأتقى المتقين وأعرف الناس برب العالمين . ولقد زهد حتى آثر أن يجوع يوماً ويشبع يوماً وراودته الجبال على أن تكون له ذهباً فأبى وكان في قدرته

أن يعيش كما تعيش الملوك والأغنياء ولكنه اختار أن يعيش عيش القانعين فلم يتخذ لنفسه قصراً ولا فراشاً وثيراً وكان يفعل ذلك لتعليم أمته لتعمل مثله .

خلقه صلى الله عليه وسلم

كان ﷺ مثلاً أعلى في الأخلاق والآداب الاجتماعية فكان ينصت إلى المستنصح ويجيب الداعي ويكافىء على الجميل ويشكر المحسن ويزور أصحابه ويعود المرضى ويدعو لهم بالشفاء ويصلي على الميت ويشيع الجنازة ويزور القبور للاعتبار ويدعو للأموات وكان متواضعاً يسلم على الصغار ويبتسم لمن يلقاه ويبش في وجه جليسه قال تعالى : « **واخفض جناحك للمؤمنين** » وكان لا يعمل شيئاً إلا بعد أن يستشير أصحابه عملاً بقوله تعالى : « **ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر** »

وكان لا يريد أن يتميز على أصحابه، يدلنا على ذلك ما جاء في الأثر أنه عليه الصلاة والسلام كان مسافراً مع أصحابه فجاء وقت الغداء وكان معهم شاة قد أعدوها لغدائهم فقال أحدهم علي بذبحها وقال الثاني علي سلخها وقال الثالث علي طبخها فقال رسول الله ﷺ : وعلي جمع الحطب فقالوا له نحن نقوم بالعمل كله ولا نحب أن نشغلك يا رسول الله . فقال : إني أكره أن أتميز عليكم . يريد أن يقول : أنا واحد منكم فينبغي أن أعمل مثلكم . وكان في أفراحه يعد الوليمة للمعوزين والفقراء والمساكين وقصارى القول إنه ﷺ كان مثال الكمال والقدوة الحسنة لكل طائفة تسير على الصراط المستقيم فكان عمله قدوة للناس كافة وصراطه هدى للناس كافة « **وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** » .

وقد أدبه ربه فأحسن تهذيبه ورباه على خير ما يربى عليه مخلوق في حياته خير عامل على إصلاح بني الإنسان وسعادتهم وتخليصهم مما ورطتهم فيه الغوايات الشيطانية فجاهد وقاتل حتى دفع عن العالم الإسلامي الشرور والأذى وقد وفقه الله ففاز وانتصر وأدى الأمانة كما أمره ربه ولا تحسب

أن الدنيا من أولها إلى آخرها ظفرت أو تظفر بمخلوق نال فيها الحظ الأوفر من الأخلاق الكريمة كمحمد ﷺ فهو أكبر زعيم حرر الأمة العربية من العبودية للأكاسرة والقياصرة وخلصها من الظلم والطغيان فصارت أمة حرة مستقلة ليس لغيرها عليها من سلطان وقد خرج من الدنيا ولم يورث من حطامها ومتاعها كثيراً ولا قليلا كما نبه على ذلك في قوله « **نحن معشر الأنبياء لا نورث** » فكان بذلك أكبر اشتراكي معتدل أقام على ظهر الأرض وأعظم زاهد عرفته الأرض والسماء وقد آتاه الله تعالى علماً لم يؤته أحداً من العالمين. قال تعالى : « **وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً** » .

إخواني

يجب علينا أن نحب نبينا ونعمل بأوامره فمحبته مفروضة على كل مؤمن ومؤمنة فهو حبيبنا وشفيعنا وقدوتنا ونورنا .

جاء رجل إلى النبي ﷺ وقال له يا رسول الله : متى الساعة ؟ فقال : وما أعددت لها ؟ فقال له الرجل : ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة ولكن أحب الله ورسوله . فقال له الرسول : أنت مع من أحببت .

وهذا ثوبان مولى رسول الله كان محباً للنبي لا يصبر على فراقه فتغيب عنه الرسول ثم وجده متغيراً فقال : مالك يا ثوبان؟ فقال : يا رسول الله ما بي من وجع ولكن إذا غبت عني أصابتني وحشة وتذكرتها بعد الموت إن أدخلك الله الجنة فستكون في درجة النبيين بعيداً عني فلا أراك فأنزل الله قوله : **ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً** » .

ففرح ثوبان أشد الفرح بهذه الآية . فالواجب أن نحب الرسول محبة صادقة فنسعد في الدنيا والآخرة .

ماهي وظيفة الرسول وبماذا اختص

كانت وظيفة الرسول ﷺ التي كلف بها من قبل ربه وظيفة شاقة إذا تجلت للجبل جعلته دكاً تلك هي تغيير الأوضاع السقيمة التي اصطلح عليها الناس وأصبحت فيهم عقائد متمكنة في نفوسهم بأخرى مغايرة لها في الأشكال والرسوم .

قام الرسول ﷺ بشيء من ذلك في أمة متمردة عليه فكان كالطود لا تزعزعه العواصف ولا تهز جوانبه الرياح القواصف بعد أن قابلوا دعوته بالشك والارتياب والتكذيب والازدراء واتهموه بالسحر والجنون فأنزل الله تعالى قوله ليبين للناس وظيفة رسوله ﷺ ويحدد مهمته التي من أجلها أرسله « **يا أيها النبيء إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً** » .

فالوظيفة الأولى « **الشهادة** » أي كونه شاهداً على أمته يرقب أحوالها وينظر ما يصدر منها من الأعمال وشاهداً يوم القيامة للمؤمنين وعلى الكافرين وللأنبياء بالتبليغ وعلى الأمم بالتصديق والتكذيب قال تعالى : « **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً** » وقال : « **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً** » والثانية « **التبشير** » أي تبشيره كل من اتبعه بالجنة وما فيها من النعيم المقيم الذي لا ينقطع أبداً ولا يفنى سرمدا ووصف طرق السعادة وراحة البال واطمئنان النفس إذا هم عملوا بما أنزله الله تعالى من الهدى ودين الحق قال تعالى : « **وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً** » .

الثـالثـة : « **الإنـذار** » أي التخويف وتحـذير النـاس عـواقب الرذائل والمعـاصي التي تغضب الله تعـالى ومُخالفـة أمره ونواهيه قال تعـالى : « **فأنـذرتـكم ناراً تلظى لا يصلاهـا إلا الأشقى الذي كذب وتـولى وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى** » .

الرابعة : « **الدعوة إلى الله بأمر الله** » أي دعوة النـاس إلى طـاعة الله وامتثـال أوامره وذلك بالترغيب وتبيين طرق السعـادة وكشف النقـاب عمـا يترتب على سلوكها والسير فيها من حسن الحال وراحة البال حتى يشعر المتبع بهنـاء ليس بعده هناء ولذة دونها كل لذة قال تعالى : « **ففـروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين ولا تجعلوا مع الله آلهاً آخر إني لـكم منه نذير مبين** » .

الخامسة : « **السراج المنيـر** » أي الإرشاد والهداية فهو مثل السراج المنير في الاهتـداء بنـوره فيهتدى بعلمه الضالون كما يهتدي بنـور السراج السـائرون ويسيـر على ضوئـه الحائرون .

وقد أقام الرسول البراهين الصادقة على صدق دعوته وبلغ القرآن الذي أنزل إليه من ربـه ومـاترك بـاباً من أبواب الخيـر إلا فتحـه ولا مسلـكاً من مسـالك الشر إلا أوصـده .

هـذا وقد منحـه الله تعالى خصائص جعلتـه الفـرد العلم والواحد في الأمم نذكر منها بعضاً عسى أن يكون شعاعاً من نور شمسه الذي يكاد سنا برقـه يذهب بالأبصار فنقـول :

الخاصية الأولى : إن رسالته عامة للعالم كله وهـذا ثابت بالكتاب والسنة أما الكتاب فقد قال الله تعالى : « **ليكـون للعالمين نذيراً** » وقال تعالى : « **وإذ صرفنا إليك نفـرا من الجن يستمعون القـرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طـريق مستقيـم يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا بـه يغفر لكم من ذنـوبكم ويجركم من عذاب أليم** » .

وأما السنة فقد روى مسلم بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: فضلت على الأنبياء بست وذكر منها أنه أرسل إلى الخلق كافة

الخاصية الثانية : أن الله خاطب جميع الأنبياء بأسمائهم ولم يخاطب الرسول ﷺ إلا بيا أيها الرسول أو يا أيها النبي فقال تعالى : لنوح « **يا نوح اهبط بسلام** » ولآدم « **يـا آدم اسكـن أنـت وزوجك الجنـة** » ولإبراهيم « **يا إبراهيم أعرض عن هذا** » ولموسى « **وما تلك بيمينك يا موسى** » ولداود « **يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض** »وليحيى« **يا يحيى خذ الكتاب بقوة** ولزكرياء « **يا زكرياء إنا نبشرك بغلام** » أما محمد صلى ﷺ فلم يخاطبه إلا باللفظ المقرون بالتشريف والتعظيم مثل « **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك** » « **يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً** » « **يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا** » « **يا أيها المدثر قم فأنذر** » . ومن أجل ذلك نهيت الأمة عن ندائه باسمه الشريف مجرداً عن التوقير والتعظيم قال تعالى : « **لا تجعلوادعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً** » .

أي لا تجعلوا نداءكم إياه وتسميتكم له مثل نداء بعضكم بعضاً ولكن قولوا : يا رسول الله يا نبي الله مع الاحترام والتوقير والتواضع وخفض الصوت قال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض** »

الخاصية الثالثة : أنه أفضل المخلوقات جميعاً . فقد روى البخاري أن النبي ﷺ قال أنا سيد ولد آدم ولا فخر » قال ذلك إظهاراً لنعمة الله عليه قال تعالى: « **وأما بنعمة ربك فحدث** » .

الخاصية الرابعة : أن الله سبحانه أقسم بحياته وبلده وعصره وبإثبات رسالته ﷺ ولم يحصل شيء من ذلك لغيره من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أما قسمه بحياة محمد ففي قوله تعالى في شأن لوط « **لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون** » يعني وحياتك يا محمد وبقائك في الدنيا إن قوم لوط صاروا يترددون ويتحيرون . لعمى بصائرهم وانهماكهم في الشهوات

قال العلامة ابن القيم أكثر المفسرين من السلف والخلف على أن هذا قسم من الله بحياة رسوله ﷺ هذا من أعظم فضائله أن يقسم الرب بحياته بل هذه مزية لا تعرف لغيره وقال ابن عباس رضي الله عنهما ما سمعت أن الله أقسم بحياة أحد غير محمد ﷺ وهذا يدل على أنه أكرم خلق الله وأما قسمه ببلده ففي قوله تعالى : **لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد** » فقد أقسم تعالى بمكة أم القرى وهي بلده عليه الصلاة والسلام وأما قسمه تعالى بإثبات رسالته ﷺ ففي قوله تعالى : « **يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم** » فقد أقسم الله تعالى باسمه وبكتابه أنه من المرسلين وأنه على صراط مستقيم لا عوج فيه عن الحق ولم يقسم لأحد من الرسل بإثبات رسالته في كتابه إلا لمحمد ﷺ تعظيماً له وتشريفاً لقدره .

الخاصية الخامسة : أنه ﷺ أول من ينشق عنه القبر يوم القيامة فقد روى مسلم وأبو داود بسندهما إلى النبي ﷺ أنه قال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر » يعني هو أول من يعجل بإحيائه يوم القيامة مبالغة في الكرامة وتعجيل إنعامه وبيان فضله وشرفه وأنه رحمة للعالمين فهو رحمة للمؤمنين بهدايتهم إلى طرق الخير ورحمة للعالمين بالأمن من الخسف وعذاب الاستئصال فرحمته عمت المؤمن والكافر قال تعالى « **وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم** » وقال تعالى « **إنما بعثت رحمة ولم أبعث عذاباً** » .

« الخاصية السادسة : أنه ﷺ آخر النبيين وخاتم المرسلين قال تعالى : « **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين** » وروى البخاري أن النبي ﷺ قال : (مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وكمله إلا موضع لبنة في زاوية من زواياه « يعني موضع طوبة » فجعل الناس يدخلونه ويتعجبون ويقولون لصاحبه هلا وضعت هذه اللبنة فيتم بنيانك فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين .

« الخاصية السابعة » ﷺ أن الله سبحانه وتعالى أعطاه مفاتيح خزائن الأرض وهو كناية على استلائه ﷺ هو وأصحابه من بعده على البلاد والممالك والأمصار وعلى ما فيها من خيرات وثمرات وإعطاؤه مفاتيح تلك الخزائن إشارة إلى أن وعد الله إياه قولاً لا تخلف فيه وهو ما ذكره الله تعالى في كتابه العزيز بقوله « **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً** » وقد تحقق هذا الوعد فمكن الله للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وفتح لهم من المدن والأمصار ما وصل إلى أقصى بلاد الهند شرقاً وإلى جبال البيرني بفرنسا غرباً وهذا نصر مبين وفتح عظيم لكن خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وأساؤوا في هذا الميراث فاختلفوا وتفرقوا وتنازعوا فأراهم الله صدق قوله « **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** » .

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة *** فيها أمير المؤمنين ومنبر

الخاصية الثامنة : أن الله سبحانه وتعالى نصر رسوله بالرعب والخوف الذي يوقعه في قلوب أعدائه مسافة شهر فكانت القبائل تخشى بأسه وترهب قوته من أجل ذلك كان بعض الأمراء يؤمنون به بمجرد وصول كتبه إليهم كالنجاشي وملك البحرين وملك عمان والبعض كانوا يحسنون رد رسله مزودين بالتجلة والاحترام وحسن الضيافة كملك اليمامة وأمير دمشق وقيصر ملك الروم .

الخاصية التاسعة : أن الله سبحانه وتعالى أعطاه جوامع الكلم كما رواه البخاري يعني أنه أوتي من البلاغة والفصاحة مالم يعط الله مثله لغيره من الأنبياء فأدى الرسالة على وجهها وأقام الشريعة على منهاجها فكانت أحاديثه نوراً يشق غياهب الظلام وفرقاناً يقود الناس إلى الهدى والرشاد .

الخاصية العاشرة : أنه ﷺ كان يخص من أصحابه من شاء بما شاء من الأحكام وغيرها بإذن الله وذلك كجعل شهادة خزيمة بن ثابت الأنصاري بشهادة رجلين ولهذا لقب ذا الشهادتين فقد روي عن النعمان

ابن بشير أن رسول الله ﷺ اشترى من أعرابي فرساً فجحده الأعرابي فجاء خزيمة بن ثابت وقال : « أتجحد يا أعرابي ؟ أنا أشهد أنك بعته فقال النبي ﷺ يا خزيمة إنا لم نشهدك فكيف تشهد؟ فقال خزيمة : أنا أصدقك في خبر السماء والأرض أفلا أصدقك في شيء من متاع الدنيا فجعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين فلم يكن في الإسلام من تعدل شهادته بشهادة رجلين غير خزيمة وبقي ذلك حتى مات بصفين مع علي بن ابي طالب سنة سبع وثلاثين .

هذا ما تيسر لنا ذكره من خصائص المصطفى ﷺ والسلام على من اتبع الهدى .

الإسراء والمعراج في 27 رجب

الإسراء عبارة عن انتقال رسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس على البراق والمعراج صعوده إلى السموات العليا ورؤيته للملإ الأعلى وهما ثابتان بالقرآن الكريم والحديث الشريف قال الله تعالى : « **سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا أنه هو السميع البصير** » وقوله « **ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى** » وأما الحديث فقد روي عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لما كذبتني قريش قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه .

وعلماء المسلمين على اتفاقهم على أن رؤيا الأنبياء حق قد اختلفوا في إسراء النبي ومعراجه هل كانا بروحه الشريفة وجسده الطاهر أو كانا بالروح وحدها كما في رؤيا المنام فمن قال إنهما كانا منامين تمسك بقول الله عز وجل « « **وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس** » وبمقتضى حديث مروي عن السيدة عائشة رضي الله عنها التي قالت : إن الإسراء والمعراج كانا روحيا وإن جسدها لم يفارق جسده .

أما الآية الكريمة المتقدمة التي استشهد بها بعض العلماء على أن الإسراء والمعراج كانا بروحه فقط فالجواب على ذلك هو أن هذه الآية فسرها ابن عباس رضي الله عنهما فقال : رؤية عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به فعلى هذا المراد بالرؤيا الرؤية البصرية وحديث ابن عباس في صحيح البخاري ولا يخفى أن ابن عباس حبر الأمة وفقيهها وترجمان القرآن وهو عربي صميم يعرف أبنية المصادر بالفطرة والسليقة فقوله هذا له قيمته ومعناه فلم يبق القول بأنهما الإسراء والمعراج كانا بالجسد والروح سويا من أول القصة إلى آخرها زد على ذلك أن الإمام القسطلاني في المواهب بعد أن ذكر الخلاف قال : الحق إنه إسراء واحد بروحه وجسده يقظة في القصة كلها وإليه ذهب الجمهور من علماء المحدثين واختاره كثير من المفسرين وأما من قال إنها رؤيا منامية والمراد بها رؤياه في قصة الحديبية أو رؤياه مصارع القوم في غزوة بدر فيعارضه قوله تعالى «**إلا فتنة للناس**» فالرؤيا المنامية لا يحصل بها افتتان بخلاف الرؤية البصرية كما يعارضه أيضاً أن الآية مكية وسورتها مكية وكانت غزوة بدر والحديبية في المدينة بعد الهجرة .

إثبات الإسراء والمعراج بالنقل والعقل

أما إثبات الإسراء بالنقل ففي قوله تعالى : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا والعبد اسم لمجموع الجسد والروح وإلا لقال بروحه وقوله « سبحان » الدال على تنزيه الله تعالى عن صفة العجز عن هذا الأمر العجيب الخارق للعادة وهو إسراؤه من مكة إلى بيت المقدس ولو كان مناماً لما كان أمراً عجيباً خارقاً للعادة يناسبه مقام التنزيه .

وأما إثبات الإسراء بالعقل فالأدلة على ذلك كثيرة منها إنكار قريش واستغرابهم وتعجبهم من قصة الإسراء حينما أخبرهم بها ﷺ ولو كانت رؤيا منامية لما كان هناك معنى للإنكار والاستغراب لأنهم قوم يفهمون معاني الكلام وتراكيب الجمل فلو فهموا من كلامه أنها رؤيا منامية لقالوا

إنها أضغاث أحلام ولذات في المنام لكنهم فهموا أنها قصة واقعية ومعجزة وجودية ولهاذا أنكروا واستغربوا وقوعها وارتد أناس منهم وقالوا هذا سحر مبين ولكن أبا بكر رضي الله عنه بادر بالتصديق فسمي الصديق وقال إني أصدقه فيما يحدث به مما هو أعظم من الإسراء والمعراج وبعد أن كذبوه حاجوه وامتحنوه في شأن بيت المقدس فشق ذلك على رسول الله

ولكن الله اللطيف الخبير جلى له بيت المقدس وهو بالبيت الحرام وكشف عن بصره الغطاء فكان يخبرهم كما يسألونه وهو يراه رأي العين كما رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي فلو كان أخبرهم بأنه رأى في منامه أنه أسري به ما كذبه المشركون ولا ارتد من ارتد لأنهم يعرفون أن مثل هذا يحصل لمن هو أدنى منه منزلة وأخلاقاً من رسول الله .

ومنها المعجزات وخوارق العادات التي ظهرت على أيدى الرسل فقد أخبر الله في سورة سبأ أنه سخر الريح لسليمان فكان يقطع في رحيله فيما بين طلوع الشمس وزوالها ما يقطعه غيره من الناس بالقوافل في شهر ويقطع فيما بين الزوال والمغرب ما يقطعه أولئك في شهر كما قال تعالى : **ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر .**

وليس ببعيد أن يكون هذا التعبير كناية عن شيء كان يركبه سليمان ومن معه في ذلك الزمان وإذا كان هذا قد حصل لسليمان بن داود عليه السلام وصدقناه لأنه جاء به القرآن فلم لا نصدق حصول مثله لمحمد بن عبد الله وهو أفضل من سليمان .

كما جاء في القرآن أن سليمان عليه السلام سأل جنوده عن قوي يأتيه بعرش ملكة سبأ فقال له عفريت من الجن « **أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين** » قال سليمان أنا أريد أعجل من ذلك فقال رجل من الأنس عنده علم الكتاب « **أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك** » أي قبل أن يرجع إليك البصر إذا فتحت العين وحمل العرش من القصر من اليمن ووضعه بين يدي سليمان وهذا أبلغ من قطع المسافة التي بين المسجدين ومحمد ﷺ

أفضل من الذي عنده علم الكتاب ومن سليمان . فالخاصة أن الإسراء كان ليريه من آياته الكبرى وهذا لم يحصل مثله لسليمان ولا لغيره من الأنبياء .

ومنها أننا إذا نظرنا بعين الاعتبار إلى الاختراعات والاكتشافات التي نشاهدها في القرن العشرين من اختراع المذياع والتلفزيون الذي يصور الناس وأحاديثهم وحركاتهم وسكناتهم لا يعوقه جدران ولا يبطىء من سرعتها تقلبات الجو أو بعد المكان واختراع الصواريخ التي تحمل سفينة الفضاء ثم تنطلق تلف حول الأرض نحو العشرين مرة في اليوم واختراع الطائرات والمناطيد والقنابل الذرية التي لم تكن تخطر على بال من مضى وهذا كله من صنع الإنسان المخلوق من ماء مهين أيقنت أن الله الذي بيده كل شيء لا يعجزه أن يسري بجسد محمد ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ليلا ثم يرفعه إلى أعلى السماوات ليريه من آياته الكبرى الدالة على عظمته ثم يصبح بمكة « **إن الله على كل شيء قدير** » .

وأما الحديث الذي يروونه عن عائشة رضي الله عنها أنها أنكرت الإسراء والمعراج وأخبرت أن جسد رسول الله ﷺ لم يفارق جسدها في تلك الليلة فهو حديث مكذوب ومصنوع حيث وفق الله بعض العلماء العاملين فكشف عن هذا الأثر وبين أن عائشة أم المؤمنين لم تكن ليلة الإسراء زوجة لرسول الله ﷺ حتى تقول إن جسده لم يفارق جسدها لأن الإسراء كان بمكة قبل الهجرة بنحو عام ونصف ورسول الله لم يبن بعائشة ولم يدخل عليها إلا بعد الهجرة إلى المدينة فما كانت عائشة في تلك الليلة زوجة مدخولا بها حتى يصبح في هذا الشأن خبرها .

وإذا بطل هذا ظهر أن الحديث الذي أسند إليها موضوع عليها بعد هذا نذكر السر في صعود سيدنا محمد ﷺ إلى عالم السماء ونبين الحكمة في معجزة الإسراء والمعراج فنقول وبالله التوفيق :

إن أوضح حكمة في هذا الموضوع هي تشريف النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم والتنويه بما من الله عليه من عظيم المنزلة

ورفيع المكانة وقد جاءه جبريل عليه السلام فأيقظه من نومه وأتاه بالبراق وهو دابة بيضاء فوق الحمار ودون البغل فركبه حتى وصل إلى بيت المقدس فربط الدابة ودخل مصحوباً بجبريل فوجد جميع الأنبياء قد حضروا ثم أقيمت الصلاة فقدم جبريل عليه السلام سيدنا محمد ﷺ فصلى بالحاضرين إماماً وبذلك ظهر فضل نبينا عليهم ثم أثنى كل من الرسل على ربه بما خصه به وأسداه إليه وأثنى رسول الله جل ثناؤه بما أنعم به عليه فكان مما بلغنا من ثنائه قوله ﷺ : « الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين وكافة للناس بشيراً ونذيراً وأنزل علي القرآن فيه تبيان كل شيء وجعل أمتي خير أمة أخرجت للناس وشرح لي صدري ووضع عني وزري ورفع لي ذكري وجعلني فاتحاً وخاتماً » وعند ذلك قال الخليل إبراهيم للحضور جميعاً بهذا فضلكم محمد فسجل فضله ﷺ في مجلس هو أفضل المجالس ولما أخذه ﷺ ما أخذه من العطش قدم له إناء من خمر وكانت الخمر حلالاً لم ينزل في شأنها حضر من الله تعالى فاختار رسول الله إناء اللبن فشرب منه فكان اختياره هذا برهنا على بعد نظره وثقوب فكره واختياره النافع واجتنابه الضار ولو كان مباحاً ثم نصب له المعراج وهو سلم يرقى عليه ليسمو حسا كما سما معنى وليرتفع بجسده وروحه إلى السماوات العلى وقد صعد معه جبريل عليه السلام فلما وصل إلى السماء الدنيا وجد بابها مغلقاً فاستفتح جبريل فقيل من هذا ؟ قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد ﷺ قيل أوقد أرسل إليه ؟ قال : نعم فكأن أمر الإرسال إليه كان معروفاً عند أهل السماء مشتهراً بين الملائكة ففتح باب السماء ورحبت الملائكة برسول الله ﷺ فاستقبله في السماء الدنيا آدم أبو البشر عليه السلام فسلم عليه رسول الله فرد السلام وقال مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح واستقبله في السماء الثانية يحيى وعيسى فرحبا به وفي السماء الثالثة يوسف وقد أعطى شطر الحسن وفي الرابعة إدريس وفي الخامسة هرون وفي السادسة موسى وفي السابعة إبراهيم الخليل وكان كل منهم يرحب به ويشهد له بالنبوة ويثني عليه خيراً ثم رفع ﷺ إلى سدرة

المنتهى فغشيها من أمر الله ما غشيها فما أحد يستطيع أن ينعتها من حسنها وجمالها وكأنها قد فرحت وازينت بقدوم المصطفى إليها ومروره من عندها وبعد ذلك رفع ﷺ إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام ثم إلى مكان تشرف فيه برؤية الملك العلام وحظي بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

تلك خلاصة الحكمة الأولى في قصة الإسراء والمعراج وهي تتجمع في الإشادة بمركزه العظيم وتكريم شخصه الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم .

وأما الحكمة الثانية فهي تلك الإشادة بفضيلة الصلوات وبيان عظيم قدر المكتوبات وإن كل فريضة شرعت نزل بها جبريل الأمين على أشرف العالمين أما فريضة الصلاة فقد ارتفع النبي إليها لتفرض عليه وعلى أمته وتلقاها من ربه بلا وساطة جبريل ودار في أمرها أخذ ورد بينه وبين ربه وموسى عليه السلام حيث أنه لما نزل والتقى بموسى سأله ما فرض عليه وعلى أمته فقال له خمسين صلاة فطلب منه أن يرجع إلى ربه ويسأله التخفيف حيث إنه جرب بني إسرائيل وإن أمته لا تطيق ذلك فرجع فحط عنه عشراً وهكذا في كل مرة يرجع إلى ربه بإشارة من موسى حتى كانت نتيجة هذا الأخذ والرد التخفيف والتيسير وهذا من أعظم البراهين على عظيم أمر الصلاة وخطورة شأنها ومزيد ثوابها واهتمام رب العزة بها حتى شرعها في ذلك المكان الأعلى وأمر بها حبيبه في هذا المقام الأسمى مما تجعلنا نجزم بأنها أعظم ركن من أركان الإسلام الخمس إذا استثنينا الشهادة .

فحافظوا عليها أيها الإخوان وأدوها في أوقاتها فإذا احتفل المسلمون بهذه الذكرى الطيبة فإنما يحتفلون بتكريم الله لرسولهم عليه الصلاة والسلام وبذكرى فريضة الصلاة التي هي عماد الدين « **إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً** » «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » .

فالصلاة فيها الحمد والشكر والثناء والذكر والاستعانة بالله وهي نعم العون على نوب الزمان وتصاريف الحدثان « **يا أيها الذين آمنوا آستعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين** » .

استقبال شهر رمضان

قال الله تعالى : في كتابه العزيز «**شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون**» .

ما أبرك هذا اليوم وما أسعده فقد هبت علينا فيه نسمات رمضان الزكية وأشرقت علينا أنوار أيامه ولياليه الزاهرة البهية فأهلاً وسهلاً بشهر رمضان أهلاً وسهلاً بشهر الأمة وموسم الغفران أهلاً بطلعتك الميمونة أيها الشهر الكريم ومرحباً بطالعك السعيد أيها الضيف العظيم وهنيئاً لنا بزيارتك المباركة أيها الطبيب الحكيم فأنت يا رمضان شهر الربح وزمن العفو والصفح فيا ليت شعري من لم يربح في رمضان ففي أي وقت يربح ومن لم يسعد في أيامه ففي أي وقت يسعد فهو زمن البركات وشهر الطاعات من رحم فيه فهو المرحوم ومن حرم خيره فهو المحروم فهو موسم التجار من اتجر فيه بالأعمال الصالحة كان جزاؤه من الله عتق رقبة من النار فالواجب أن نستقبله بالفرح والسرور وعمل الطاعات ونتزود فيه بالأعمال الصالحة حيث جعل الله الحسنة فيه بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما لا يعلم له مقدار وجعله مكفراً لذنوبنا وما لنا من سابق الأوزار فالحمد لله على هذه الرحمة الغالية والخيرات الجزيلة التي أنعم الله بها علينا فقد كان أسلافنا يفرحون بقدوم رمضان ويشكرون الله أن أمد في أنفاسهم ويعدون ذلك فضلاً من الله ونعمة وقد كان رسول الله ﷺ يفرح بقدوم رمضان ويقول : قد

جاءكم شهر مبارك كتب الله عليكم صيامه فيه تفتح أبواب الجنان وتغلق فيه أبواب الجحيم فيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر وكان يحرض أصحابه على العبادة فيه ويرغبهم في تلاوة القرآن ويرحم الله القائل :

أتى رمضان مزرعة العباد ... لتطهير القلوب من الفساد
فأد حقه قولا وفعلا ... وزادك فاتخذه للميعاد
فمن زرع الحبوب وما سقاها ... تأوه نادماً يوم الحصاد

ورحم الله غيره حيث يقول :

يا ذا الذى ما كفاه الذنب في رجب ... حتى عصا ربه في شهر شعبان
لقد أضلك شهر الصوم بعدهما ... فلا تجعله أيضاً شهر عصيان
واقرأ القرآن وسبح فيه مجتهداً ... فهو شهر تسبيح وقرآن
كم كنت تعرف ممن صام في سلف ... من بين أهل وجيران وإخوان
أفناهم الدهر واستبقاك بعدهم ... حياً فما أقرب القاصي من الداني

فلننتهز الفرصة أيام رمضان المباركة ونقبل على الأعمال الصالحة فالله لم يفرض علينا الصوم لنتعذب بل ليقوي من إرادتنا ويشد من عزيمتنا ويرفع من همتنا فإذا تمرنت نفوسنا على الصوم سهل علينا ترك الشهوات والمعاصي وهي ليست من ضروريات وجودنا على أن الصوم تعويد للناس على النظام في الأكل والشرب وتطهير الأمعاء من الرواسب السامة التي تثبت طبياً أنه لا يحللها إلا الجوع وفي الحكمة « المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء » ويجب على الصائم أن يبتعد عن السب والشتم في رمضان فإن امرؤ خاصمه أو شتمه لا يرد عليه بل يصبر ويصفح فقد جاء في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال : الصيام جنة فإذا كان صوم يوم أحدكم فلا يرفث ولا يفسق فإن سابه أحد أو خاصمه فليقل إني صائم والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي : « **الصيام لي وأنا أجزي به والحسنة بعشر أمثالها** » .

ومعنى الصيام جنة يعني وقاية من النار وتهذيب لا جوع وتعذيب وإن امرؤ خاصمه أو شاتمه فليقل إني صائم أي لا يقابل السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح ويذكر نفسه أنه في ضيافة الرحمان وقوله لخلوف فم الصائم «بالفتح» وهو تغيير رائحة فم الصائم فتلك الرائحة التي تكرهها من الصائم هي أطيب عند الله من ريح المسك وقوله يترك طعامه أي أن هذا جهاد يستحق عليه عظيم الأجر وقوله الصوم ... إلخ :أي أن الذي يتولى مكافأة الصائم هو الله تعالى ومعلوم أن الكريم إذا تولى العطاء بنفسه أعطى من غير عدد مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر « **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** » .

رمضان موسم ربح وعبادة وجهاد

لا يخفى أن التجار ينتظرون المواسم لعظيم الرواج فيها فإذا جاءت تلك المواسم شمروا عن ساعد الكد في عمل التجارة يسوقهم رجاء الربح فهذه ميسرة الزيتون قد أقبلت علينا منذ زمن قصير وقد رأيتم جميع الناس قد تهيأوا لها سواء في ذلك الملاك أو التاجر أو العامل فالملاك قد أعد العدة لجلب رزقه والتاجر اكترى معملا لطحن الزيتون والعامل قد طرق الأبواب لنيل مرغوبه فالكل يواصلون الليل بالنهار لينافسوا ويعملوا ويتاجروا يسوقهم إلى هذا رجاء الربح وقد يحملهم شدة الحرص عليه إلى تضحية راحتهم ومفارقة أهليهم وبلادهم غير مبالين بما ينالهم من مشقة وعناء ولا عجب في ذلك لأن من ذاق لذة الربح هانت عليه جميع الشدائد وسهلت عليه جميع المتاعب هذا حال تجار الدنيا الذين يطلبون ربحاً غير مضمون فقد يكون وقد لا يكون وعلى فرض أنهم ربحوا الدنيا بأسرها فالفناء مآلهم والزوال مصير ما يربحون وكما أن للدنيا تجاراً مكذين فكذلك للآخرة تجاراً أوفياء صادقين وصدق الله العظيم الذي يقول « **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب** » .

ونحن الآن في موسم ربح عظيم لا يتيسر لتجار الآخرة في العام إلا مرة واحدة وهذا الموسم هو شهر رمضان المعظم فمن اتجر فيه بالأعمال الصالحة وكان ربحه أن يعتق رقبته من النار فمن أفطر فيه

صائماً كان مغفرة لذنبه وعتقاً لرقبته فهو شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار لأجل ذلك يجب على كل واحد منا أن يحافظ على حرمة هذا الشهر ليفوز بالحسنات والدرجات وقد تفضل الله جلت قدرته فوعد الصائم وعداً كريماً حيث جعل جزاء الصوم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر يشهد لذلك الحديث القدسي « **كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به** » فمن اغتاب أحداً أو نم أو هجا مسلماً أو ذم فقد فوت على نفسه ثواب الصيام ومن قال زوراً أو باطلا فقد عرض نفسه لغضب الله وتلك خسارة لا تعوضها عبادة أخرى من الصلاة أو القيام وكذلك علمنا نبينا ألا نجازي في رمضان من أساء إلينا فإذا سبنا أحد أو شتمنا أعرضنا عنه وقلنا إننا صائمون لأننا إذا جاريناه في قوله كنا خاطئين ولثواب الصيام مضيعين وقد قال الرسول الكريم « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » فكم من صائم لا حظ له من صيامه إلا الجوع والعطش هذا وإن الفطر في نهار رمضان لا يرخص فيه الشرع العزيز إلا لصاحب العذر الشديد فمن أفطر في نهار رمضان بدون عذر فهو ممن طبع الله على قلبه ومن طبع الله على قلبه جعله في أسفل درك جهنم وإن اليوم الذي أفطره لم يقضه صوم الدهر كله . إن الذي يؤلم النفس ويضيق به صدر المسلم أن يرى مسلماً يفطر في رمضان نهاراً في الشوارع والنوادي ولم يرتدع بأمر الدين فلو علم هذا المسلم ما في صيام رمضان وقيامه من الثواب لرجع إلى الله وتاب على ما فرط في جنب الله نعوذ بالله من فتنة الدنيا ونعوذ به أن نضل والقرآن فينا يتلى وعلى كل حال فباب التوبة مفتوح لمن أراد أن يتوب . جاء في الخبر عن النبي ﷺ أنه قال : « من أدرك رمضان فأفطر فيه متعمداً ولم يتب ولم يستغفر أبعده الله عن رحمته وقد قضى الشرع على أن من أفطر في رمضان بغير عذر عليه أن يصوم شهرين متتابعين وأمره في الآخرة إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه . فقد جعل الله لنا الصوم إصلاحاً لأبداننا

وطهراً لأنفسنا وتزكية لأرواحنا فلا ينقضي رمضان إلا والمسلم قد صار أهلاً لمغفرة الله ورضوانه ومحطاً لنفحاته وتزكية لأرواحنا ففي الحديث « **من صام رمضان إيماناً وإحتساباً غفر الله له ما تقدم من ذنبه** » .

الصوم لا رياء فيه

لا يخفى أن الله سبحانه وتعالى لم يفرض علينا الصوم لكي يؤذينا أو يعذبنا في أنفسنا وأبداننا ولكن ليهذبنا ويقوي من إرادتنا ويشد من عزيمتنا ويكمل من رجولتنا فنصير مسلمين بقوة الإرادة والصبر فإذا تمرنا على ذلك سهل علينا ترك الشهوات والمعاصي وانتصرنا على المنغصات والمتاعب والأهوال وهذه هي الحكمة في تشريع الصوم وزيادة على ذلك فرمضان مصحح للجسم مهذب للنفس وهو طريق إلى الجنة ودليل على صحة الإيمان ووسيلة لرضاء الله تعالى فقد أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : كل عمل ابن آدم له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . قال الله عز وجل إلا الصيام فإنه لي أجزي به . إنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك . للصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح بفطره وإذا لقي ربه فرح بصومه .

معنى الحديث

إن كل عبادة قد يدخلها الرياء قد تصلي ليقول الناس فلان رجل طيب محافظ على صلاته قد تزكي ليقول الناس فلان كريم قد تحج لتظفر بلقب الحاج أما أن تصوم طمعاً في أن يقول الناس إنك صائم فهذا لا يكون لأن الصوم لا رياء فيه فلا يعرفك أحد هل أنت صائم أو فاطر فلا يعلم إلا الله الواحد القهار لهذا يقول الله إلا الصوم فإنه لي أي سر بيني وبين عبدي لهذا أجازيه لأنه ترك شهوته خوفاً من الله وكان ذلك دليلاً على صحة إيمان العبد لأن الصائم يعلم أن له رباً يطلع عليه في بيته وقد

حرم عليه أن يتناول شهواته المجبول على الميل إليها فأطاعه بتركها خوفاً من عقابه ورغبة في ثوابه وهذا هو الإيمان الصحيح ولهذا يجازيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فهو على حد قوله تعالى : « **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** » ثم قال « **والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف** » يعني أن الذي يتولى مكافأة الصائم هو الله تعالى ومعلوم أن الكريم إذا تولى العطاء بنفسه أجزل وإذا أعطى من غير عدد أكثر وأفضل وما ذلك بعجيب فإن الصوم نوع جليل من أنواع الصبر والله تعالى يقول : « **إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** » ثم قال « **لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك** » . يعني أن الريق المتغير الذي ينبعث من فم الصائم بعد الزوال وتلك الرائحة التي تكرهها أنت من فم الصائم هي أطيب عند الله من ريح المسك وذلك لشرف الصائم .

وقوله للصائم فرحتان إلخ . يعني ليس المراد بفرحة الصائم عند فطره فرحه بأكله وشربه وإنما المراد فرحه بإتمام صومه وتوفير أجره من غير أن يغتاب أحدا ولم يشتم أحداً ولم يسبه ولم يسرق ولم يكذب ولم يدخل في بطنه حراماً لذلك تراه يفرح لأنه قهر نفسه ومنعها من الغفلة والشرور واشتغل بعمله وطاعة ربه وأما فرحته عند لقاء ربه عندما يعلم أن الله كتبه في عداد الصائمين وتقبل صيامه وقيامه وحط خطاياه ومنحه رضوانه .

أيها الإخـــوان

إن جميع هذه الفضائل والمزايا التي ذكرناها والتي تكرم الله بها وحباها هذا الشهر الجليل قد منحها الصائمون وحرمها المفطرون والمتهتكون وقد قال رسول الله ﷺ : من أفطر يوماً في رمضان من غير رخصة ولا مرض لم يقضه صوم الدهر كله وإن صامه فالسعيد من سعد في رمضان والشقي من حرم خيره وبركته فهو زمن المنح الربانية زمن الرحمة وغفران

الذنوب زمن العتق من النيران لمن صامه إيماناً واحتساباً ففيه تفتح أبواب الجنان وتغلق فيه أبواب النيران وتغل فيه الشياطين وقد ورد أن جبريل عليه السلام أتى إلى سيدنا محمد ﷺ فقال من أدرك شهر رمضان ولم يصم فأبعده الله قل آمين فقلت آمين .

فلنتسابق أيها الإخوان إلى العمل الصالح في أيامه ولنكثر من أعمال البر والخير فيه ولنتذكر أن سيدنا محمداً كان أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل وكان يلقاه كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة.

أسأل الله أن يجعلنا في صيامنا من المقبولين وأن يكتبنا مع الصائمين المخلصين وأن يطهر قلوبنا من الحقد والحسد والبغض ويلطف بنا في بعثنا ونشورنا بجاه سيد الأولين والآخرين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

رمضان شهر الذكريات

(ذكرى غزوة بدر الكبرى في 17 رمضان)

للأمم الحية الرشيدة أعياد ومواسم تعقدها كل عام لتتذكر فيها أيام عزها ومقومات مجدها وأسباب سيادتها فتتخذ من هذه الذكريات موقظاً لهمتها ومجدداً لنشاطها وإذا كان واجباً على غير المسلمين أن يذكروا سالف مجدهم وقديم عزهم فأحرى بالمسلمين أن يذكروا أياماً خلت كانوا فيها سادة الدنيا وقادة الشرق والمغرب .

من هذه الذكريات الإسلامية المجيدة الخالدة ذكرى غزوة بدر التي كانت أول مرحلة من مراحل انتصار الإسلام وأعز يوم اقتص الله فيه للمستضعفين من الطغاة المستكبرين وهذه الغزوة المباركة التي انتصر فيها الإسلام حصلت في 17 رمضان وقد سماها الله بيوم الفرقان يوم التقى الجمعان لأن الله عز وجل فرق فيها بين الحق والباطل والنور والظلام لأنها التقت فيها فئتان فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت وتتلخص حوادث هذه الغزوة هو أن رسول الله ﷺ كان قد بلغه أن تجارة لقريش أقبلت من الشام مارة بالمدينة في طريقها إلى مكة فطلب النبي من أصحابه أن يخرجوا إليها ويفكوها لتكون لهم غنيمة وفي نية النبي أن هذا العمل يحرج كفار قريش لأنهم كانوا يحبون المال كثيراً ولما سمع المشركون خرجوا من مكة غاضبين لتجارتهم ثائرين على النبي وصحبه ولحكمة بالغة أرادها الله نجت هذه التجارة لأنها سلكت طريقاً آخر غير الطريق المعهود ولما سمع أبو جهل بأمر تعرض المسلمين للقافلة وقف

على باب الكعبة وأخذ يحرض، قريشاً على القتال وهو يقول : يا أهل مكة السرعة السرعة عيركم أموالكم إن أصابها محمد فان تفلحوا أبداً وخرج في ألف رجل كاملي العَدَدِ والعُدَدِ ومعهم الطبول والخمور والمغنيات والراقصات وهم يصيحون ويقولون : لا بد من قتل محمد وأصحابه لنستريح منهم وعند ذلك نسر ونفرح ونشرب الخمور وننحر الجزور ونتمتع بالمغنيات والراقصات ولما سمع النبي بقدوم أبي جهل وجيشه استشار أصحابه فقال لهم: ما تقولون أنقدم على محاربة هذه الجموع الكثيرة أم نرجع إلى المدينة ؟ وما أقوى إيمان الصحابة وما أعظم شجاعتهم عندما أجابوا رسول الله بقولهم : امض يا رسول الله لما أمرك الله فإنا معك لا نقول كما قال بنوا إسرائيل لموسى عليه السلام : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكن نقول اذهب أنت وربك إننا معكما مقاتلون وما أقوى ما أجاب به سعد بن معاد رضي الله عنه فقال : يا رسول الله قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض لما أردت فنحن معك والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر وخضته لخضناه معك ما يتخلف منا رجل واحد وإنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك ما تقر به عيناك فسر بنا على بركة الله فنحن سنقاتل عن يمينك وعن شمالك ومن بين يديك ومن خلفك . ولما سمع الرسول من سعد بن معاد هذا العزم الصادق فرح فرحاً شديداً وقال ابشروا فإن الله قد وعدني بالنصر والله كأني أنظر إلى مصارع القوم . وبدأ القتال فخرج حمزة بن عبد المطلب عم الرسول عليه السلام وكان من الأبطال ناهيكم أن الرسول سماه (حمزة أسد الله) وأنشأ يقول :

حمدت الله حين هدى فـؤادي ... إلى الإسلام والدين الحنيـف
فدين جـاء من رب عزيـز ... خبير بالعباد بهم لطيـف
إذا تليت رسـالته علينـا ... تحدر دمـع ذي اللب الحصيـف
رسائل جاء أحمد من هدانـا ... بآيـات مبنيـة الحروف

فأجهز حمزة على عتبة فقتله ولما رأى أبو جهل ما فعله حمزة اشتد غضبه وقال لعنه الله واللاتي والعزى لا نرجع حتى نقرن محمداً بالحبال ثم التقى الجمعان وحمي الوطيس وصارت المعركة هولاً وهجم المسلمون على المشركين وهم يرددون الله مولانا ولا مولى لكم قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار . وكان رسول الله ﷺ واقفاً على عريشة يحرض المسلمين على القتال ويعدهم بالجنة ويرفع يديه إلى السماء داعياً اللهم ارعب قلوبهم وزلزل أقدامهم ثم ينشد ويقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزل سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لقينا

إن الأعادي قد بغوا علينا

ثم يتضرع إلى الله ويقول اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض اللهم أنجز ما وعدتني فأنجز الله وعده واستجاب دعاءه وفي ذلك يقول الله : « **إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم** » وانتصف النهار وتحققت المعجزة عن انتصار المسلمين وكان عدد جنودهم ثلاثمائة وثلاثة عشر جندياً في رقة من العيش وليس معهم عدة ولا عدد وكان عدد المشركين ألفاً وثلاثمائة جندي مدججين بالسلاح والعتاد الحربي وصدق الله العظيم إذ يقول « **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين** » وقد قتل من قريش سبعون وقتل أبو جهل ثم بعد ذلك ارتحل النبي إلى المدينة مؤيداً منصوراً وقد فرح المسلمون بهذا النصر ودخلوا في دين الله أفواجاً وصدق الله العظيم إذ يقول : « **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون** » .

هذه أيها الإخوان لمحة خاطفة عن ذكرى غزوة بدر الكبرى وما كان فيها للمسلمين من جهاد بالنفس والمال وقد يتولاكم العجب وتعروكم الدهشة عندما تفكرون في سرعة انقلاب قوم نشؤوا وتربوا على مبادي وثنية ونزعات

جاهلية وطباع همجية أميين لا عهد لهم بمطالعة كتاب ولا جمعتهم مدرسة انقلبوا دفعة واحدة إلى العلم والأدب والصدق والإخلاص والوفاء والنجدة والشهامة والثبات والعفة أي والله قد يتولاكم ذلك ولكنكم حينما تعلمون أنهم كانوا تلاميذ للنبي الأمي الأمين الذي لقنهم الحكمة شفهياً فأصبحوا أساتذة العالم يذهب ذلك العجب وتتسرى تلك الدهشة من نفوسكم فما رأت الدنيا مثلهم تلاميذ ولا شهد العالم مثل معلمهم مرشداً.

وفقنا الله لأن نسير على منهجهم إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير

ماذا استفدنا من رمضان

المؤمن من أخذ من دنياه لآخرته وقدم الزاد لنفسه لأن السفر الذي لا بد منه للإنسان سفر لا رجوع بعده إلى هذه الدار وخطير لأن مآله نعيم أو عذاب أليم « **يوم ينظر المرء ما قدمت يداه** » يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً. ما أكثر الذين اعتذروا إليك يا رمضان بمشاغلهم ومتاعبهم وما أكثر الذين تعللوا لك بضعفهم ومرضهم وما كان بهم والله من مرض الأبدان ولكنه مرض القلوب وصفر النفوس. لقد خانتهم رجولتهم ففروا من الصيام فدعهم الآن يقاسون مرارة الألم ويتجرعون مرارة الندم وها هو قد انقضى شهر رمضان وانقضى معه كل ما كنا نتحمله من جوع وعطش وقد خرجنا من صيامنا والحمد لله أصح جسماً وأكثر نشاطاً وأعظم همة وأصدق عزيمة ولم ينقص منا شيئاً بل زادنا الصيام إيماناً على إيماننا وقوة على قوتنا وتبين لنا أن تلك المخاوف إنما كانت وهماً من الأوهام وخدعة من خدع الشيطان « **استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون** » ونحن لو أردنا أن نعدد ما استفدنا من رمضان لأعجزنا الحصر وأعيانا الإحصاء.

فأكتفي بالقول عن الكل وما يدرك كله لا يترك قله فمن ذلك:

1 ـــ الصبر: فقد اعتاد الصائم الصبر على الجوع والعطش والتعفف ثلاثين يوماً

فيستطيع بعدها احتمال المكاره ومقابلة الشدائد دون يأس فيسعد في دنياه وأخراه .

2 ــ الجود : وقد كان رسول الله ﷺ كثير الجود وأجود ما يكون في رمضان فإن الإنسان عندما يشعر بالجوع يعرف ما يعانيه الفقراء والمساكين من الألم فيعطف عليهم ويمد يد المعونة إليهم وقد جاء في الحديث : من فطر صائماً كان له مثل أجره غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيئاً .

3 ــ النظام : الصائم يعتاد تناول الفطور والسحور في وقت خاص وفي ساعة معينة وهذا العمل يعلمه النظام حتى يصبح من خصاله وليس أحب إلى الله من المؤمن المنظم المتقن فإن من انتظمت معيشته رغد عيشه وصلح حاله وقد كان رسول الله ﷺ يقسم وقته فيجعل منها وقتاً للعمل ووقتا لمصالح أمته ووقتاً لعبادة ربه ووقتاً لراحته .

4 ــ التواضع : فمن أذل نفسه بالجوع ونهاها عن هواها تحلى بالتواضع وكان من عباد الرحمان الذين يمشون على الأرض هونا .

5 ــ الحلم : والحلم من أعظم صفات المؤمنين وفي الحديث الشريف : إذا أصبح أحدكم يوماً صائماً فلا يرفث ولا يجهل فإن امرؤ شتمه فليقل إني صائم وفي الحديث : من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه . وفي الحديث أيضاً : رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر .

6 ــ تلاوة القرآن : كثير من المسلمين يقضون معظم أيام الصيام وقد اتخذوا القرآن مهجوراً أو يتلونه إلا قليلاً فإذا جاء رمضان تنبه الغافل وتذكر الناس إلى كتاب الله يتلونه حق تلاوته وهذا مظهر جميل لا تراه إلا إذا حل رمضان شهر العبادة والتقوى .

7 ــ القيام : وأقصد به قيام الليل وما يسمى في رمضان بصلاة التراويح وفي

الحديث : من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه . والقيام سنة تكاد تكون متروكة إلا في هذا الشهر المبارك مع أن قيام الليل من صفات عباد الرحمان كما في قوله تعالى : « **والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً** » ومن صفات أهل الجنة كما في قوله تعالى : « **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** »

8 ــ الأمانة : إنه يربي فينا ملكة الأمانة وعدم التفريط فيها فإن الإنسان مدة الصوم كثيراً ما يخلو بنفسه فكان يمكنه أن يفطر حيث لا رقيب له ولكن يمنعه من ذلك شعوره بقبح الخيانة ووجود الأمانة بتتميم ما عقد على نفسه .

9 ــ صحة البدن : ذلك أن المعدة كالآلة البخارية لابد لها من هدنة فبالصيام يقل عملها فتسترد قوتها وتجدد نشاطها وقديماً قال الأطباء : البطنة أصل الداء والحمية رأس الدواء . ومن أراد التثبيت من ذلك فما عليه إلا أن يلقي نظرة على سكان المدن وأخرى على سكان القرى فإنه يجد سكان المدن يشكون المعدة أما الآخرون فيندر أن يكون من بينهم ممعود والسبب في ذلك كثرة ألوان الطعام عند أولئك وقلتها عند هؤلاء ولقد صدق الله تعالى في قوله : « **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا** .

هذه الحكم السامية هي التي من أجلها نصوم وقد أوردنا منها ما استطاع الفكر إدراكه وإنني لأرجو أن يصادف من النفوس قبولاً يلازمه العمل النافع والخوف والرجاء فبالعمل الصالح يجني المرء عن الطاعة ويدرك نعيم الحياتين « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

رمضان شهر الذكريات

نزول القرآن في 27 رمضان

ما أسرع ما تمر الأيام والليالي وخاصة الأيام الفاضلة والليالي الطاهرة ففي الأمس القريب احتفلنا بانتصار المسلمين في غزوة بدر الكبرى التي حصلت في 17 رمضان المبارك وفي هذا اليوم نحتفل بالذكرى الثانية هي نعمة القرآن الذي أنزله الله على رسوله في الليلة السابعة والعشرين من هذا الشهر المبارك وهي ليلة القدر التي هي خير من ألف شهرفيالها من ليلة ما أنورها وما أكثر خيرها تفتح فيها أبواب السماوات بالبشارات والرحمات لكل من أحياها بالعبادة وأقل إحيائها يكون بصلاة العشاء جماعة وصلاة التراويح والصبح وفي هذه الليلة كان النبي ﷺ يتعبد في غار حراء وهو على بعد ثلاثة أميال من مكة فجاءه الملك جبريل عليه السلام وقال له : اقرأ. فقال ما أنا بقاريء. قال النبي : ثم أخذني فضمني إليه ثم أرسلني فقال لي : اقرأ. فقلت ما أنا بقاريء وكذلك فعل معه الثالثة فقال : « **آقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق آقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم** » فرجع الرسول يرجف فؤاده فدخل على خديجة زوجته وقال : زملوني زملوني أي غطوني. فزملوه حتى ذهب عنه الورع فقال لخديجة: يا خديجة لقد خشيت اليوم على نفسي. وحدثها بما جرى فقالت له: كلا والله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الدهر ثم إن خديجة ذهبت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل

وكان مشهوراً في مكة بسعة العلم فأخبرته بما حصل للرسول فقال لها : لقد جاء الناموس الذي كان ينزل على موسى وإنه نبي هذه الأمة فرجعت خديجة وأخبرت النبي بذلك فاطمأن قلبه . ومن ذلك اليوم كان جبريل عليه السلام ينزل على النبي ﷺ ويحفظه القرآن فيقرأ ما قرأه وفي أثناء قراءة جبريل كان النبي يحرك لسانه ويقرأ مع جبريل غير صابر على تلاوته لما يجد في القرآن من الحلاوة فنهاه الله عن تحريك لسانه وتعجله الحفظ. ووعده بأنه سيحفظه ولا ينساه وفي ذلك يقول له : « **لا تحرك به لسانك لتعجل به** » إلى قوله ثم: «**إن علينا بيانه**» فكان بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع منه فإذا انتهى قرأه النبي كما قرأه جبريل وحفظه. فلنجعل القرآن أيها الإخوان وردنا فهو أنيسنا في الدنيا والآخرة وشفيعنا يوم القيامة وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ القرآن يشفع لصاحبه يوم القيامة يقول القرآن يا رب إن عبدك كان يرتلني ويعمل بأوامري فشفعني فيه فيشفعه الله فيه . ولقد كان المشركون يتأثرون عندما يسمعون كلام الله يتلى من ذلك أن الوليد بن المغيرة سمع النبي ﷺ يقرأ القرآن فتأثر قلبه ولما اجتمع بقريش وهم جالسون في النادي قال لهم : إني سمعت آنفاً كلاماً من محمد ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لثمر وإنه يعلو ولا يعلى عليه وما يقوله بشر فدهش الحاضرون وقالوا لقد صبا الوليد يعني كفر وعندما سمع الوليد هذا القول غضب وخرج من النادي فحزنت قريش فقال لهم أبو جهل لا تحزنوا فسأرجع به وذهب إلى داره وجلس عنده حزيناً فقال له الوليد مالي أراك حزيناً ؟ قال أبو جهل: وكيف لا أحزن وهذه قريش زينت لهم كلام محمد. وما زال يلح عليه حتى عاد به إلى النادي ففرحت قريش. وبعد ذلك وقف أبو جهل وقال : يا معشر قريش إنكم تقولون إن محمداً مجنون فهل رأيتموه يجن ؟ قالوا : لا. وتقولون: إنه كذاب، فهل جربتم عليه كذباً؟ قالوا: لا. وتقولون : إنه كاهن. وفي كل مرة يقولون لا. فقالوا ماذا نقول ففكر ثم تهيأ ما دبره وقال:

قولوا ساحراً ما رأيتموه يفرق بين الابن وأبيه والأخ وأخيه فصاح كل من في النادي وقالوا: مرحى مرحى يا أبا عبد شمس. وقد أغتم النبي ﷺ لما يقولون عنه كذباً فخفف الله عنه هذا الضيق وفي الحين أنزل عليه سورة المدثر تلك الآيات وهي «**إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر سأصليه سقر وما أدراك ما سقر لا تبقي ولا تذر لواحة للبشر عليها تسعة عشر.**

هذه أيها الإخوان الذكرى الثانية وهي نزول القرآن في هذا الشهر المبارك شهر الرحمة والغفران والذكريات .

الرياضة البدنية والاسلام

العقل السليم في الجسم السليم

قال رسول الله ﷺ : « إن لبدنك عليك حقاً وإن لربك عليك حقاً وإن لأهلك عليك حقاً فأعط كل ذي حق حقه » ما كان للإسلام أن يهمل رياضة الأبدان بعد أن صورها الله بقدرته وأبدعها بحكمته وخلقها في أحسن تقويم فالرياضة البدنية تمد الجسم بالقوة والصلابة وتمد النفس بالمروءة والشهامة وتعد المرء للصبر والاحتمال وتحبب إليه العمل والانتاج والمجاهدة فيصير نافعاً لنفسه وأهله ووطنه قال عليه الصلاة والسلام : علموا أولادكم الكتابة والسباحة والرماية . وقد جاءت الحوادث ناطقة ببعد نظر الرسول وفائدة تعاليمه وأصبحت الرياضة فنا ترصد له الأموال وتؤلف له الفرق في كل معهد ومدرسة وهذه روح الإسلام وسنة الله في إسعاد الأمم وإنعاش الشعوب وإعدادها للقيام بواجباتها الوطنية فالرياضة تكسب الشباب قوة ومتانة والشيوخ صحة ونشاطاً والهيئات عزة وعزيمة والأمة اتحاداً وتعاوناً وإن الرجل القوي خير من الرجل الضعيف قال الله تعالى في كتابه العزيز في قصة موسى وشعيب عليهما السلام : « **يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين** »

والرجل الذي لا يعنى بالرياضة مثله كمثل الماء الراكد فكما أن الماء الراكد تتولد فيه المكروبات الفتاكة ويصبح غير صالح للاستعمال بل خطراً على الصحة العامة كذلك الرجل الضعيف فانه يكون عرضة للأمراض المختلفة ولا يستطيع أن يؤدي واجبه نحو بلاده ونحو نفسه

فهو عبء على وطنه : أينما توجه لا يأتي بخير . ولقد اهتمت الأمم السالفة كما أنبأنا التاريخ بالرياضة البدنية اهتماماً كبيراً كان له الأثر في فتوحاتها وانتصاراتها كدولتي اليونان والرومان ولم تقل عناية العرب في هذا المضمار عن سائر الدول الأخرى فهذا شاعرهم يصف متانة أجسام الشيوخ منهم وسرعة حركاتهم ونظامهم وطاعتهم لأمر رئيسهم حيث يقول :

سأطلب حقي بالقنا ومشائخ كأنهم من طول ما التثموا مرد
ثقال إذا لاقوا خفاف إذا دعوا كثير اذا شدوا قليل إذا عدوا

أما الإسلام فقد حض عليها ودعا إليها فقد أمر رسول الله ﷺ بتعلم السباحة والرماية وركوب الخيل ناهيك أن الله أقسم بالخيل إظهاراً لقدرها وحثاً على إتقان ركوبها وتعلم الكر والفر بها وبين في قسمه هذا أثر الجياد المغيرة ونتائج استخدامها فقال : « **والعاديات ضبحاً فالموريات قدحاً فالمغيرات صبحاً فأثرن به نقعاً فوسطن به جمعاً** » وكان النبي يعرف كرائم الخيل الأصيلة ويجاهد عليها ويسابق بها . وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : مروا أولادكم فليثبوا على الخيل وثبا. ولما تحققت للأمم الحديثة فائدة الرياضة البدنية ونتائجها الفعالة في حياة الشعوب اهتمت بها اهتماماً فاق حد الوصف فعمت الروح الرياضية جميع طبقات الشعب وكل هيئاته على اختلاف درجاتها حتى أوشكت أن تنقلب الحركات الرياضية إلى نظم حربية وأغدقت عليها الحكومات الأموال الطائلة تشجيعاً لها وتحقيقاً لأغراضها.

وقد انتعشت الروح الرياضية في تونس وازدادت العناية بها في عهد رئيسنا المحبوب المجاهد الأكبر الحبيب بورقيبة حرسه الله فقد عطف عليها وشجعها فخطت خطوات واسعة تبشر بنتائج جديدة . وفي مقدمة أنواع الرياضة البدنية لعبة المصارعة حيث يستفيد منها الجسم فتكسبه مرونة وتعوده على الصبر والجلد وهي لعبة قديمة كان العرب يعنون بها عناية خاصة فقد ورد أن الرسول ﷺ صارع ركانة بن زيد وكان من أقوى شجعان الجاهلية وأشدهم بأساً جاء لرسول الله فقال له : يا محمد أنت تزعم أنك رسول الله

فإذا صرعتني أقررت لك بالرسالة فصرعه رسول الله ﷺ فقال له عد يا محمد لعلك سحرتني هذه المرة فعاد له رسول الله فصرعه ثانية . ولما علم أبوبكر وعمر رضي الله عنهما بذلك قالا يا رسول الله أصرعت ركانة فلا والذي بعثك بالحق ما نعلم أنه وضع جنبه إنسان قط . وكان السيدان الحسن والحسين يصطرعان بين يدي رسول الله ﷺ وكان عليه الصلاة والسلام يحرض الحسن ويقول هي يا حسن خذ حسينا . هذا وبعض شباننا يظنون أن الدين الإسلامي ما كان ليعرف الرياضة وأنها دخيلة في أبنائه اقتبسوها من الغرب ولكن الحق والتاريخ يحدثنا أن الدين الإسلامي الحنيف كان المجلى في هذه الحلبة والحائز قصب السبق في ميدانها قبل أن يعرفها أولئك الغربيون الذين نحتذي الآن حذوهم وننسى أننا كنا فيها سادتهم .

ولعل الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي عقد لها باباً في كتبه الدينية أسماه « باب الرمي والمسابقة » ووضع لها شروطاً ونظماً لا تنقص بحال عن تلك النظم الحالية إن لم تزد عليها في العمل على رفعة شأنها وإدراك الغاية منها :

فهذا الرسول العظيم يريكم فيما أحدثكم عنه أنه إمام الرياضة كما أنه إمام الخلق وأنه كان يضرب للحاضرين المثل الجليلة على قوة العزيمة ويهيء الأمة للعمل وعدم المهابة في سبيل الشرف والرفعة ففي غزواته لم ينكص ولم يدبر حتى قال سيدنا علي وهو زعيم الأبطال : كنا نحتمي بالرسول إذا اشتدت المعركة وفي غزوة أحد جرح وجهه وكسرت رباعيته ودمغ رأسه وأقبل عليه أبي ابن خلف يريد قتله فتعرض له الصحابة يمنعونه عن الرسول ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام : دعوه ثم استل سيفه وقتله :

وقد سابق الرسول أبا بكر وعمر وكان هو السابق وسابق عائشة فسبقها ثم سبقته « تطييباً لخاطرها » .

ولم تكن هذه التربية الرياضية لنفسه وصحابته فقط بل اقتدى بها

من أتى بعده من المسلمين وكان لها أكبر الأثر والمنفعة لأخلاق الشبان فهي تعودهم الإقدام والترفع عن الآثام والإيثار على النفس في سبيل خدمة الشعب ورفعته والصبر على تحمل أوزار الحياة فيقابل الرياضي سراءها وضراءها بهدوء وسكينة .

تحية الإسلام خير تحية

اختار الله لعباده اسماً من أسمائه ليكون لهم في الدارين تحية مباركة طيبة وهو السلام ومعناه الأمان والاطمئنان لمن يقابلك أو تمر به أو تفد عليه إذ يكون متوقعاً منك شراً فتفشيها عليه فتقع على قلبه برداً وسلاماً وكان العرب إذا لقي بعضهم بعضاً يقولون حياك الله ثم استعملها الشرع في السلام الذي هو تحية الإسلام قال تعالى : « **فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة** » وقال « **تحيتهم يوم يلقونه سلام** »

وتاريخ هذه التحية يمتد إلى أول عهد الإنسان بالوجود فإن الله تعالى لما خلق آدم قال اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة فاستمع ما يحيونك به فإنها تحيتك وتحية ذريتك فقال آدم السلام عليكم فقالوا السلام عليك ورحمة الله فزادوه ورحمة الله ـ متفق عليه ـ والسلام تحية الله في الحياتين لأنبيائه وعباده الخالصين فقد حيى رسله بقوله « **وسلام على المرسلين** » كما خص بعضهم بالذكر فقال « **سلام على نوح في العالمين سلام على إبراهيم سلام على موسى وهارون** » وأكرم المتقين فحياهم في الدنيا بقوله «**وسلام على عباده الذين اصطفى**» وسيخصهم بها في الدار الآخرة عند اللقاء « **تحيتهم يوم يلقونه سلام** » وقد حيت الملائكة الإنسان بهذه التحية تكريماً له بما أكرمه الله فحيوا بها سيدنا إبراهيم « **إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام** » وحيى بها جبريل السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : « قال لي رسول الله ﷺ : هذا جبريل يقرأ عليك السلام . قالت : قلت عليه السلام . رواه الشيخان وستحيي الملائكة عباد الله المخلصين بهذه التحية في الدار الآخرة حين يساقون إلى الجنة

زمراً « حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » وهؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم لما شرعت لهم هذه التحية فرحوا بها واستعملوها في الجلوس في الصلاة فكانوا يقولون « السلام على الله قبل عباده السلام على جبريل السلام على ميكائيل السلام على فلان » رواه البخاري فأقرهم على ما فعلوا إلا على الله لأن الله هو السلام فجعل بذلك تعديل في الصورة كما في التشهد الآن حيث جاء التسليم عليه ﷺ وعلى المصلي نفسه وعلى عباد الله الصالحين في الأرض وفي السماء وختم بالتسليم على من حضر على يمين المصلي وشماله ولجلالة قدر التسليم وعظمه في النفوس لم يكن خاصاً بمن يقابلك أو تمر عليه من عباد الله المؤمنين ولا بقراءته في التشهد بل يقرؤه أيضاً زائر القبور على ساكنيها من الموتى كما يبدأ به الكاتب كتابه الذي يرسله إلى أي إنسان شاء فقد كان النبي ﷺ في كتبه يسلم على المرسلين بتحية الإسلام وعلى غيرهم بالسلام على من اتبع الهدى .

والسلام رسول المحبة وباب المودة ومفتاح تأليف القلوب وآية الإخاء كما قال الصادق الأمين : « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم » رواه مسلم وجعله الرسول ﷺ من خصال الخير حين سئل أي الإسلام خير قال « تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » رواه البخاري .

وإذا صار السلام مبدأ إسلامياً عاماً تستبشر به النفوس وتفتح به المخاطبات لتزول الوحشة بين المتخاصمين كان من حق المسلم على المسلم أن يسلم عليه إذا لقيه كذلك يسلم الصغير على الكبير والمار على القاعد والراكب على الماشي وداخل البيت على من فيه من أهل وأصدقاء ولا يحقرن أحد شأن الصبي فليسلم عليه إذا مر به وقد حدثنا أنس أن النبي ﷺ كان يفعل ذلك وهو إنما فعله ليدخل السكينة في قلوب الصبيان ولينظروا إليه نظرهم إلى أب يبرهم فيعطف عليهم ويدعوهم

إلى التشبيه بالرجال فيشبوا متعودين ذلك . ولما كان السلام داعية المحبة وآية الوئام والائتلاف كان من المستحسن أن يسلم كل من المتخاصمين على الآخر قبل أن تزيد مدة الخصام على ثلاثة أيام ولما كان ذلك ثقيل على النفس في الظاهر كان البادىء بالسلام منهما أفضل وثوابه أعظم وبما أن البدء بالسلام سنة والبادىء متفضل كان على من قرىء عليه السلام أن يرده وجوباً وإن شاء فعل كصاحبه فحياه بأحسن منها أو ردها . قال تعالى : « **وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها** » فدلت الآية على أن الإنسان عليه أن يرد التحية إما بأحسن منها أو بمثلها فإذا قال لك المسلم: السلام عليكم . قل له: وعليك السلام ورحمة الله . وإذا ذكر السلام والرحمة في الابتداء زيدت البركة . وإن ذكر الثلاثة في الابتداء أعادها في الجواب .

هذا وبما أن الجلوس على الطرقات يسترعي الأنظار كان للطريق حقوق يجب رعايتها ومن هذه الحقوق رد السلام على من يقرؤه عليك . وهذه هي التحية المباركة الطيبة التي جاء بها الإسلام فهي نور من نوره تكشف للقلوب عن طريق المحبة والوئام فعلينا أن نتمسك بها ولا نعدل عنها إلى ألفاظ أخرى رغبة في تقليد الغربيين والتشبه بهم . ولا أدري ذلك إلا داخلاً في عموم قوله تعالى : « **وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله** » وسبب نزول هذه الآية الكريمة هو أن اليهود كانوا يبدؤون النبي بكلمة السام ومعناها الموت وبهذه المناسبة أقول اننا لا نبدأ اليهود والنصارى وغيرهم ممن على شاكلتهم بالسلام لأنه شعار المسلمين فإن بدؤونا به أجبناهم ففي حديث أنس في الصحيحين « إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم » والسلام على من اتبع الهدى .

ما هي الاغراض السامية التي اراده الله من الايمان به

للأيمان بالله التي وردت في القرآن الكريم أغراض شتى يضيق المقام عن حصرها ولكن أكتفي بذكر القليل منها .

فهنالك طائفة من الأيمان يريد بها الله سبحانه وتعالى أن يوجه نظر الإنسان إلى بعض مخلوقاته وما أودع فيها من أسرار وما اختصها به من منافع وفوائد جليلة وذلك لكي يتخذها الإنسان مثلاً يحتذى به ونبراسا يهتدي بهديه ومن أمثلة ذلك الأيمان الآتية :

1) ـــ والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها والسماء وما بناها والأرض وما طحاها ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها »

2) ـــ والسماء ذات البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد »

3) ـــ والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب إن كل نفس لما عليها حافظ »

في الآية الأولى أقسم الله بالشمس والقمر «(1)»

فالشمس هي مصدر الضوء والحرارة

على الأرض فإذا انقطع ضوء الشمس تموت النباتات والحيوانات بتأثير البرودة الشديدة وفي كلتا الحالتين تصبح الأرض مقبرة من الجليد ويريد الله من الإنسان أن يكون كالشمس مصدر خير وبركة لقومه وبني جلدته أو يكون كالقمر يستمد نور العلم من المصدر الإلهي عن طريق الإلهام أو بواسطة البحث والتنقيب ثم يشعه على العالم أو يكون كالليل ملجأ للمستجير وأمناً للخائف وراحة للضعيف .

وفي الآية الثانية أقسم الله بالسماء وما فيها من البروج وهي منازل الشمس والقمر كما أقسم باليوم الموعود وما به من بعث وحساب وجزاء ثم أقسم ثالثاً بالشاهد الذي هو محمد ﷺ وبالمشهود الأنبياء والأمم على أن كفار قريش لملعونون كما لعن أصحاب الأخدود وهم قوم كافرون حفروا حفرة عميقة في الأرض وملؤوها بالوقود من حطب وغيره حتى كانت ناراً عظيمة فألقوا فيها المؤمنين وقعدوا يرمقونهم بعيونهم ويشفون غيظهم ولم يعاقبوهم إلا لأجل إيمانهم الذي لا يجوز العقاب عليه بل ينبغي لكل أحد أن يكون عليه ويدعو غيره إليه .

وأقسم الله في الآية الثالثة بالسماء والنجم على أنه لم يتركنا سدى نعمل ما يظهر لنا من غير رقيب بل أقام على كل واحد منا حافظاً يحفظ أعمالنا من خير وشر .

وهناك طائفة ثانية من الأيمان يشير فيها الخالق سبحانه وتعالى إلى بعض الظواهر الطبيعية ليتأملها الإنسان ويعرف أسبابها فيستزيد من العلم ويتحقق من أن هذا العالم يسير وفقاً لنظام ثابت لا يتعداه ومن أمثلة ذلك .

1) ـ والنازعات غرقاً والناشطات نشطاً والسابحات سبحاً فالسابقات سبقاً فالمدبرات أمراً يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة أبصارها خاشعة يقولون أءنا لمردودون في الحافرة

2) ـ والمرسلات عرفاً فالعاصفات عصفاً والناشرات نشراً فالفارقات فرقاً فالملقيات ذكراً عذراً أو نذرا إنما توعدون لواقع .

3) ــ **والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل إذا يسر هل في ذلك قسم لذي حجر .**

في الآية الأولى إشارة إلى ظواهر طبيعية خاصة ببعض الأجرام السماوية فالنازعات المراد بها النجوم والغرق هو الإغراق في السير والناشطات المراد أنها تخرج من برج إلى برج والسابحات النجوم والشمس تسبح في أفلاكها يعني تسير فيها سيراً هادئاً لااضطراب فيه والسابقات السرعة أي أن بعض الكواكب أسرع سيراً من بعض والمدبرات من دبر الأمر إذا فكر فيه والراجفة هي الأرض لأنها تهتز بحركتين إحداهما حول نفسها والأخرى حول الشمس والرادفة التابعة وتابعة الأرض هي القمر .

وفي الآية الثانية إشارة إلى بعض الظواهر الخاصة بالرياح والعاصفات الرياح التي تعصف بشدة والناشرات هي الرياح التي تنشر حبوب اللقاح فتنمو النباتات وتثمر والفارقات هي الرياح التي تفرق بين السحب فيتوزع المطر على بقاع كثيرة والملقيات هي الرياح التي تسبب نزول المطر .

وفي الآية الثالثة أقسم الله بالفجر وليال عشر المراد العشر الأواخر من رمضان والشفع العدد الزوجي والوتر العدد الفردي والحجر العقل وقد أقسم الله بهذه الأشياء لنغتنم الفرصة في هذه الأوقات ولا نضيعها سدى فنستقبل النهار بصلاة الصبح باكراً ثم ننتشر في الأرض متوكلين على الله في تحصيل قوتنا مجتهدين في طاعة ربنا .

هذا وقد ضرب الله تعالى لنا أمثلة كثيرة من الأيمان في القرآن الكريم نذكر منها قصة إبراهيم عليه السلام الذي وفى بعهد العبودية وضرب المثل العالي للتضحية في أروع مظاهرها فضحى بنفسه وماله وولده في سبيل مرضاة الله تعالى وتنفيذاً لأوامره غير مدخر وسعاً في ذلك .

والله تعالى شهد له بذلك على سبيل الإجمال تارة وعلى سبيل التفصيل أخرى أما الإجمال ففي آيتين إحداهما قوله تعالى : « **وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن** (سورة البقرة) وهذه شهادة من الله بأنه تمم عهد العبودية الثانية قوله تعالى « **إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين** » (سورة البقرة)

وأما التفصيل فهو أنه عليه السلام ناظر في إثبات التوحيد وإبطال القول بالشركاء والأنداد في مقامات كثيرة .

فالمقام الأول في هذا الباب مناظرته مع قومه في قوله تعالى : « **فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل (غاب واختفى) قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السموات** والأرض حنيفا وما أنا من المشركين وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا **أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون وتلك حجتنا ءاتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم** » (سورة الانعام)

ليس المقصود من إراءة الله تعالى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وهو أن يرى إبراهيم هذا الملكوت بل المقصود أن يراها فيتوصل بها إلى معرفة جلال الله تعالى وعلوه وعظمته لذلك لما تمم الاستدلال بالنجم والقمر والشمس قال بعده إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض فحكم على السموات والأرض بكونها مخلوقة لأجل الدليل الذي ذكره والمراد من إراءة الملكوت تعريف كيفية دلالتها بحسب تغيرها وامكانها وحدوثها على وجود الإله العالم القادر وأن جميع مخلوقات الله تعالى دالة على وجود الصانع وقدرته باعتبار واحد وهو أنها محدثة ممكنة وكل محدث محتاج إلى الصانع .

وبعد هذا البيان وإقامة الدليل على وحدانية الله تعالى أبان سبحانه أن الأمن في الحياة الدنيا والآخرة لا يكون للذين وحدوا الله ولم يشركوا به شيئاً من وسطاء وشفعاء ودليل الإيمان بالله اتباع أوامره واجتناب نواهيه فهؤلاء كتب الله لهم السلامة والعافية في الدنيا والآخرة .

والمقام الثاني مناظرته مع أبيه ونصحه له بعبادة الله وترك عبادة الأوثان حيث قال له : « **يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً** »

المقام الثالث مناظرته مع الملك نمرود وكان صريحاً معه لا يخشى في الحق لومة لائم جريئاً لا يهاب ولا يحفل بما يحيط به من مظاهر القوة والبطش فاسمعوا ما ذكره الله عنه : « **ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين** » (سورة البقرة)

ومعنى هذا هل انتهى إلى علمك يا محمد خبر الذي خاصم إبراهيم في ربه وجادله ؟ وهو نمرود فقال : أنا أحيي بالعفو وأميت بالقتل فقال له إبراهيم : هل تقدر على قلب نظام الشمس في سيرها فصار الذي كفر مبهوتاً وانتهى من المحادثة مقهوراً .

والقرآن يبين لنا مدى حرية الفكر والمناقشة وأن الاقناع لا يقوم إلا على الدليل ومع كل هذه الدلائل طلب إبراهيم من ربه أن يرى كيف يحيي الموتى زيادة في التأكيد والاطمئنان قال تعالى : « **وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم** » (سورة البقزة)

ومعنى هذا أن الله أمر إبراهيم أن يأخذ أربعة من الطير ويذبحها ويفرق أجزاءها على الجبال ثم يدعوها فإنه سيجدها آتية إليه صحيحة كأنها لم تذق للموت طعماً هذا وإن الإيمان يزداد وينقص ويقوى ويضعف وعلى مقدار العلم والفهم ودراسة آيات الله يزداد إيمان الإنسان وكلما

ازداد الإنسان علماً ازداد إيماناً بوجود الله تعالى وحكمته البالغة وعلمه الذي لا تحيط به العقول والأفهام .

وإبراهيم هو المثل العالي للإيمان الذي أقام البرهان على صحة إيمانه مع قومه وجاهد في سبيل عقيدته وعادى قومه في سبيل نصرة دينه وآثر مرضاة الله على غيرها .

اسمعوا مناظرته مع الكفار عندما عجزوا عن مجادلته في الحقفعملوا على حرقه بالنار قال الله تعالى : « **ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين قلنا يا ناركوني برداً وسلاماً على إبراهيم وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين** »

واسمعوا مجادلة أخرى مع أبيه وقومه حين سألهم أي شيء تعبدون؟ قال تعالى :

« **واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين واجعل لي**

لسان صدق في الآخرين واجعلني من ورثة جنة النعيم واغفر لأبي إنه كان من الضالين ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ».

انظروا أيها الإخوان والأخوات كيف استدل إبراهيم عليه السلام بالبرهان المحسوس على الإيمان بالله من آثار محسوسة فذكر أن الله هو الذي اسبغ علي نعمه في الدنيا بإيجادي من العدم ومنحني الهداية وأعطاني الرزق وإذا مرضت هو وحده الذي يمن علي بالشفاء وهو القادر على إماتتي ثم إحيائي لمحاسبتي على ما قدمت يداي وعندئذ يكون لي الرجاء في غفران خطيئتي وإبراهيم لم يكن له خطيئة إنما قالها تواضعاً أو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين ثم تضرع إلى الله بأن يلحقه بالصالحين حتى يكون للناس مثلاً طيباً يقتدى به ويهتدى بهديه ثم طلب الصفح والمغفرة لأبيه لأنه كان من الضالين كما طلب لنفسه ألا يذله يوم البعث والنشور الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله وقلبه سليم من الشرك مخلص في العبادة .

ونحن أيها الإخوان والأخوات نفعل كما فعل إبراهيم عليه السلام فنطلب من الله العلي القدير أن يوفقنا لصالح الأعمال والطيب من الأقوال وأن ينور قلوبنا بالإيمان ويكتبنا عنده من المؤمنين العاملين الهادين المهديين غير ضالين ولا مضلين ولا فاتنين ولا مفتونين وأن يذكرنا بسيئاتنا لنبتعد منها ويزين لنا حسناتنا لنزداد منها وأعوذ بك يا رب من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ودعاء لا يسمع وأسألك رضاك يا أرحم الراحمين وأصلح يا رب الحاكمين والمحكومين وبارك جهود المصلحين وثبت أقدام الفدائيين وانصرهم على الصهيونيين أعدائك وأعداء الدين واغفر لنا ذنوبنا واجعلنا في صيامنا وقيامنا من المقبولين .

فيا من خلقت الحب والنوى اجعل لنا من القرآن شفاء مما حل بنا من أدواء وما انتابنا من أمراض وما أصاب أخلاقنا من تحلل فإنك على كل شيء قدير وإنك نعم المولى ونعم النصير وصل وبارك على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين والحمد لله رب العالمين .

القرآن الكريم يحث على حرية الفكر والبحث والدليل

إن مما امتاز به القرآن الكريم على سائر الكتب أنه جعل حرية الفكر والقول والعمل أساساً لإثبات دعوته للحق والإذعان له وأنه يبسط قضاياه ويستعرضها ثم يناقشها ويدلل بالحجة والبرهان ثم يطالب المعارض له بأن يدلي بحجته ويأتي ببرهانه إن كان صادقاً ثم بعد ذلك يفرغ إلى الغاية أو الحق الذي يدعو إليه ونجد هذا كله في الدعوة إلى الله تعالى وإثبات وحدانيته والرسالة والدليل على صحتها والقرآن وأنه من عند الله واليوم الآخر فإذا أثبت صحة ما دعا إليه بالأدلة القاطعة ترك للإنسان حرية العمل أي حرية الاختيار وأنه تعالى سيجازي الإنسان بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

ومن القرآن يعلم الإنسان كيف يناقش وكيف يقيم الحجة وكيف يطالب بالدليل عما إذا كان هناك إله آخر يستطيع أن يغير في أوضاع النظم التي وضعها الله سبحانه وتعالى وبذلك يتبين الحق من الباطل قال تعالى : « **أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا فيها من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون وجعلنا السماء سقفاً محفوظا وهم عن آياتها معرضون وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون** » سورة الأنبياء .

وقال تعالى يطالب الجاحدين بوجوده بإقامة البرهان « **أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن**

تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون » سورة النمل وقال تعالى « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه افلا تبصرون ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانو يفترون » سورة القصص .

ولما تحدث العرب عن القرآن وقالوا إنه من عند محمد طالبهم الله بالدليل ولم يرغمهم عن الإذعان له والتصديق به . قال تعالى : « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه (لا شك فيه) من رب العالمين أم يقولون ٱفتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من ٱستطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » سورة يونس .

ولما عجزت العرب عن الإتيان بسورة كالقرآن ترك الله لهم حرية العمل به فقال : « « وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون » سورة يونس .

وقال تعالى : « لا إكراه في الدين (على الدخول فيه) قد تبين الرشد من الغي (يعني ظهر بالآيات البينات أن الإيمان رشد والكفر غي) فمن يكفر بالطاغوت(الاصنام) ويؤمن بالله فقد ٱستمسك (تمسك) بالعروة الوثقى لا ٱنفصام لها (لا انقطاع لها) والله سميع عليم سورة البقرة .

قال بعض المفسرين يتضح لنا من هذه الآية أن الإيمان بني على الاختيار وليس على الإجبار والقهر ومما يؤكد هذا القول أنه قال تعالى في مثل ذلك عدة آيات كقوله تعالى « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » إن

توحيد المسلمين الأولين لله القائم على حرية الفكر والبحث والدليل كان سبباً لتمكين معرفتهم بالله وحبهم له وتوكلهم عليه وهذا هو الذي زكى أنفسهم وأعلى هممهم وكملهم بعزة النفس وسياسة الأمم وإقامة العدل ومكنهم من فتح البلاد وسياسه العباد وتحريرهم من ظلم الملوك واستبدادهم ومن الأحبار والرهبان وإقامة دعائم الحضارة وإحياء العلوم وقد تم لهم ذلك في زمن يسير لم يتيسر لغيرهم من الأمم التى سبقتهم .

وقد تجلت حرية الفكر والتمول والعمل في صدر الإسلام ولم تعم المسلمين فحسب ولكن غير المسلمين الذين كانوا تحت حكمهم ولا يزال قول عمر بن الخطاب باقياً حينما أنصف ابن القبطي من ابن عمرو بن العاص والي مصر حين ضرب ابنه ابن القبطي لما سبقه وقال لوالده : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً .

وقال تعالى : « **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن** » ولا شك أن المراد بقوله (بالحكمة) والبرهان والحجة وقوله (وجادلهم بالتي هي أحسن) فليس المراد منه المجادلة في فروع الشرع لأن من أنكر نبوته فلا فائدة في الخوض معه في تصاريح الشرع ثم إنا مأمورون باتباعه عليه السلام لقوله تعالى : « **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** » ولقوله : **لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة** » .

وقوله تعالى : « **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم** » وذلك يقتضي أن المجادلة بالعلم القائم على حرية الفكر والقول المدعم بالحكمة لا يكون مذموماً بل ممدوحاً .

ولما كانت حرية الفكر والقول والعمل هي وسيلة إلى الإقناع بالحق واتباعه دعا القرآن الكريم إلى النظر والاعتبار والاستبصار في كثير من آياته فقال تعالى : « **أفلا يتدبرون القرآن** » « **قل انظروا ماذا في السموات والأرض** » « **أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض** » .

وقد ذم الله تعالى التقليد فقال حكاية عن الكفار : « **إنا وجدنا آباءنا**

على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » وقال « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباء نا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون » سورة المائدة .

وقال تعالى : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » سورة البقرة. فالله سبحانه وتعالى حينما يذكر آياته للإنسان يدعوه إلى التفكير فيها والنظر إليها ويفهمه أنه ما خلق شيئاً إلا عن تقدير وعلم صحيح وأنه تعالى يطالب الإنسان بالبرهان إن شك في قوله أو فعله أما التكذيب المبني على العاطفة أو الشعور أو التقليد فلا قيمة له ولا وزن .

اقرؤوا قول الله تعالى : « ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فانى تؤفكون (تكذبون) فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون وهو الذي أنشاكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيءٌ فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » سورة الانعام .

إذا نظرنا إلى تنسيق هذه الآيات نجد أن ذكر الآيات لم يأت إلا بعد البحث والتفكير وذكر العلم حتى تتوطد دعائمه وتثبت أركانه ولما احتج المشركون بالقدر على شركهم وأنه لو شاء الله ما أشركوا طالبهم الله بالحجة وإن كان عندهم علم بما قدره الله فليبرزوه قال تعالى : « سيقول الذين أشركوا لوشاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيءٌ كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » (تكذبون) سورة الانعام

كل ذلك يدل على وجوب النظر والاستدلال والتفكير وذم التقاليد لأن التفكير والبحث والعمل من أسس العلم والإيمان .

أثر هذه التعاليم في الحضارة والتقدم .

بهذه التعاليم القيمة افتتحت أذهان المسلمين في الصدر الأول لطلب العلوم والمعارف وبلغوا فيها مبلغاً كبيراً فاقوا فيها غيرهم من الأمم المتحضرة ووجد العلم في ملوك المسلمين وأمرائه أقوى نصير كل ذلك بفضل دعوة القرآن لفهم سنن الله الكونية حتى يعرف الإنسان فضل الله العظيم وقدرته البالغة وعلمه الواسع وبذلك أسسوا المدارس وترجموا الكتب الفلسفية إلى العربية ودعوا العلماء غير المسلمين ليسمعوا منهم ويستفيدوا من معارفهم وكان أمراء المسلمين في الأقاليم يناظرون الملوك في مسائل العلم وكان من نتيجة تنشيطهم هذا للعلماء أن انتشر الذوق العلمي في كل مكان ويروى عن الخليفة الكبير المأمون أنه تبرع بمائتي ألف دينار لتأسيس كلية علمية ببغداد وكان عدد الطلبة فيها عشرة آلاف لا فرق بين فقير وغني فكان فيها السيد العظيم وابن الصانع الفقير على السواء وكانوا يكفون التلاميذ الفقراء مؤنة دفع أجر التعليم ويعطون الأساتذة مرتبهاتم بكرم وسماحة وقد فاه الخليفة المأمون عند زيارته لهذه المدرسة فقال : « إن صفوة خليفة الله وأفضل عباده وأنفعهم هم الذين يقفون حياتهم على تربية مواهبهم الطبيعية وإن الذين يعلمون العلم والحكمة للناس هم مصابيح العالم ولولاهم لارتكس الخلق في عماية الجهالة وغياهب البربرية .

وقد أسس العرب مدارس أخرى طبية مثل مدرسة الطب في القاهرة ومدرسة أخرى في أوروبا هي مدرسة في (سالرن) من إيطاليا وأول مرصد أقيم فيها هو ما أقامه المسلمون واهتموا بتحسين آلات الإرصاد وتهذيبها وبحساب الساعات المختلفة الأشكال والساعات المائية وهم أول من استعمل (الرقاص) لهذا الغرض .

كما استخدم العرب علم الكيمياء في الطب كما برعوا في فنون الزراعة

والري والتمسيد وتربية الحيوانات وإدخال زراعة الأرز والسكر وقد انتشرت المعامل لكل نوع من أنواع المنسوجات كالصوف والحرير والقطن وغير ذلك وكان لديهم مؤلفات عالية جداً في تقلب الأحوال الإنسانية وعلى نتائج عدم التدين وعلى زوال النعم وعلى أصل العالم وبقائه وآخرته وإنا ندهش أحياناً حينما نرى في مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم في هذا العصر .

أفبعد هذا توجه تهمة تأخر المسلمين الآن إلى الدين أم أن التهمة توجه إلى المسلمين بأن تأخرهم لم ينشأ إلا لأنهم لم يعملوا بأوامر دينهم وهجروا حرية التفكير والبحث إلى الجدل السقيم والتقليد الذميم .

من دروس رمضان

سياسة النجاح

إذا كانت السياسة معناها تدبير الأمور وتسييرها إلى هدف معين يكون فيه الخير والإسعاد فليس هذا معناه أن تتخذ الوسائل غير المشروعة وتسلك الطرق المعوجة لتحقيق غرض ذاتي أو قومي تكون عاقبته فيما بعد الهلاك والدمار .

ليست السياسة معناها الخديعة أو الوقيعة أو الدس للفوز بالمطلوب وتحقيق المرغوب إنما السياسة هي الاستقامة والأخذ بأقوى الأسباب وأحسن الأساليب وأيسرها لتحقيق الغاية المنشودة .

فسياسة الفرد لتدبير معاشة إن لم تكن قائمة على الخلق القويم وناهجة الصراط المستقيم فلا شك أن عاقبتها الخسران مهما لاقت في طريقها من نجاح مؤقت وارتفاع مزيف وإقبال مخدوع .

وكذلك في سياسة الأمم إن لم تكن هذه السياسة قائمة على دعائم قوية من طهارة الذمة وحسن الخلق ونبالة المقصد يقودها الحزم والرشاد ونور البصيرة فإن مصيرها الخسران مهما طال بها الزمن وبرقت في أفقها بروق المطامع الكاذبة ولمعت في أفقها الوعود البراقة .

وأساس سياسة الأمم سياسة الفرد فإن حسنت سياسته حسنت به سياسة أمته وإن ساءت ساءت بها .

اعتصم المسلمون في صدر الإسلام بكتاب الله وهدايته فسادوا العالم

لأنهم كانوا نصراء للحق والفضيلة وأخلصوا لله ولمبادئهم فكان لهم السلطان والغلبة على غيرهم من الأمم .

ولنذكر لكم بعض المثل على صحة ما ذكرنا :

كان عمر بن الخطاب(الفاروق) رضي الله عنه حريصاً على اتباع الكتاب والسنة في كل قول أو عمل وقد كان حريصاً كل الحرص على أن يأخذ عماله بسيرته ويؤدبهم بآدابه رعاية للرعية وتحقيقاً لحسن ملكة الإسلام وسماحة الدين وعدله وكان شديد المراقبة لعماله كثير السؤال عن سيرتهم وأخبارهم يقيم عليهم العيون يوافونه بأخبارهم .

ولقد أحضر عمر كثيراً من عماله الذين لهم فضل عظيم في الفتوح وأثر كبير في نصرة الإسلام فهذا سعد بن أبي وقاص من أخوال رسول الله ﷺ وهو فاتح القادسية والمدائن والعراق ومدوخ الفرس وممصر الأمصار اشتكى منه بعض رعيته فأرسل محمد بن مسلمه المفتش العام يحقق الشكاية وجاء بسعد وخصومه إلى عمر فوجده بريئاً من كل ما اتهم به ولكنه عزله احتياطاً وأوصى عند وفاته أن يولى لأنه لم يعزله لجناية أو خيانة وروي أن عمر استعمل عتبة ابن أبي سفيان على كنانة فقدم المدينة بمال فقال له : ما هذا يا عتبة ؟ قال : مال خرجت به واتجرت فيه قال له : إني أرسلتك عاملاً خادماً للمسلمين ومصالحهم ولم أرسلك لتكون تاجراً تشتغل بالتجارة عن خدمة الصالح العام وكان عقابه أن صادر ما زاد عن رأس ماله وأدخله في بيت المسلمين .

ومن ذلك أيضاً أن خالد بن الوليد أقام وليمة للأشعث بن قيس ووصله بعشرة الآف درهم وقد بلغ عمر بن الخطاب خبر هذه الصلة فدعا رسوله وكتب معه إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح أن يحاسب خالداً و يسأله من أين أجاز الأشعث أمن ماله أم من إصابة أصابها ؟ (يعني المغنم) فإن لم يجبك فاعقله بعمامته وأنزع قلنسوته فإن زعم من إصابة أصابها فقد أقر بخيانة وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف واعزله على كل حال واضمم إليك

عمله. فكتب أبو عبيدة إلى خالد فقدم عليه ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر فقام الرسول الذي أرسله عمر بن الخطاب فقال لخالد : أمن مالك أجزت الأشعث أم من إصابة ؟ فلم يجبه حتى أكثر عليه وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئاً فقام بلال (مؤذن النبي ﷺ) فقال : إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ثم تناول قلنسوته فعقله بعمامته فقال ما تقول : أمن مالك أم من إصابة ؟ فقال لا بل من مالي فأطلقه وأعاد قلنسوته وعممه بيده وقال نسمع ونطيع لأمير المؤمنين. وأقام خالد لا يدري أمعزول هو أم غير معزول ؟ وأبو عبيدة لم يخبره بشيء كرامة له وكان عمر لما أبطأ عليه علم بالذي كان فكتب إلى خالد بالقدوم عليه وعندما قدم إلى المدينة على عمر عتب على أبي عبيدة لأنه لم يعلمه بأمر أمير المؤمنين وقال لعمر لقد شكوتك يا أمير المؤمنين للمسلمين لأن عملك معي كان غير محمد .

فقال عمر : من أين لك هذا الثرى ؟ فقال من الأنفال (يعني من الغنائم) فقوم عمر عروضه فكانت ثمانين ألفاً أدخل منها بيت المال عشرين ألفاً ثم قال يا خالد إنك علي لكريم وإنك الي لحبيب ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء وكتب عمر إلى الأمصار إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه وأن يبتلوا به فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وأن لا يكونوا بعرض فتنة .

يا للعجب عمر بن الخطاب يحاكم أكبر قواد المسلمين الذي لم يرو عنه التاريخ أنه هزم قط في أي موقعة نزل فيها ويصادر بعض ماله في سبيل نفع المسلمين ويعزله لأنه أسرف في العطاء ولا يحب أن يكون الحاكم مسرفاً بل يجب أن يكون مقتصداً حتى يقتدي به غيره من الولاة والحكام والمحكومين ، لأنه كان يرى رضي الله عنه أن الولاة والحكام هم خدام الأمة ورعاة العدل فيها ولا يجب أن يثروا على حسابها أو يتخذوا وظائفهم مرتعاً ومنغماً لاستزادة ثرواتهم واستثمار أموالهم لأن هذا لا يكون إلا بإجحاف حقوق الشعب الذين هم أمناء على صيانته وحراسته من طمع الطامعين والحكام أولى أن يكونوا بعيدين على أن ينتهزوا ضعف الرعية أو غفلتها ليغتنوا .

فرضي الله عنك يا عمر لقد فهمت الإسلام واستفدت من نور النبوة ما جعلك زعيم المسلمين بحق فلعل الملوك والأمراء والرؤساء يتخذونك قدوة ولو أنهم استرشدوا بسيرتك العطرة لما أصابنا ذل ولا ظلم ولكنهم فرطوا في هذا التراث العظيم فحلت بنا الكوارث المتتابعة وضاع نفوذنا فهل للمسلمين أن يفكروا في الرجوع إلى ربهم ويستلهموا الصواب من سيرة أسلافهم .

كما روي عن حبيب بن أبي وائل قال كان عمر يكتب للولاة والحكام يقول لهم : الولاة والحكام من الأمة بمثابة الرأس من الجسد فإن صلحوا صلحت وإن فسدوا فسدت والناس على دين ملوكهم وقد كان عمر كثير التذكير لولاته شديد المراقبة عليهم .

كتب إلى أبي موسى الأشعري أحد عماله : أما بعد فإن أسعد الرعاة عند الله من سعدت به رعيته وإن أشقى الرعاة عند الله من شقيت به رعيته إياك أن تزيغ فيزيغ عمالك فيكون مثلك مثل البهيمة نظرت إلى خضرة الأرض فرعت فيها تبغي بذلك السمن وإنما كان حتفها في سمنها والسلام عليك .

وكان عمر بن الخطاب يتحرى في انتخاب الحكام والولاة متانة الأخلاق والزهد والورع ونفاذ البصيرة وحسن السياسة وكان يحاسبهم على الكبيرة والصغيرة لا فرق بينهم وبين آحاد الناس فمن استقام أمره أبقاه ومن اعوج سيره أو تبين ظلمه عزله في غير هوادة .

كان عامله على حمص سعيد بن خديم فشكاه أهل حمص إلى عمر وطلبوا عزله وكان عمر يعتقد أنهم ظالمون له فقال : اللهم لا تقل فراستي فيهم وجمع بينهم وبينه فقال : ما تنقمون منه ؟ قالوا لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار فقال ما تقول يا سعيد ؟ فقال يا أمير المؤمنين إنه ليس لأهلي خادم فأعجن عجيني ثم أجلس حتى يختمر ثم أخبز خبزي ثم أتوضأ وأخرج إليهم قال وما تنقمون منه ؟ قالوا لا يجيب بليل قال : يا أمير المؤمنين إني جعلت الليل كله لربي وجعلت النهار لهم . قال : ماذا تنقمون منه ؟ قالوا يوم في الشهر لا يخرج إلينا ؟ قال نعم ليس لي خادم فأغسل ثوبي

ثم أجففه فأمسي. فقال عمر: الحمد لله لم يقل فراستي فيكم يا أهل حمص فاستوصوا بواليكم خيراً وبعث إليه بألف دينار ليستعين بها فأبقى يسيراً وفرق سائرها في اليتامى والمساكين ولم يغير عادته .

بلغ عمر بن الخطاب أن النعمان بن نضلة عامله على (ميسان) من بلاد فارس يقول الشعر ويتغزل فقال :

ألا هل أتى الحسناء أن حليلها بميسان يسقى في زجاج وحنتم
إذا شئت غنتني دهاقين قرية وصناجة تشدو على كل ميسم
لعل أمير المؤمنين يسوءه تنادمنا بالجوسق المنهدم

فقال عمر : أي والله إنه ليسوءني ذلك وعزله فقدم على عمر وقال والله يا أمير المؤمنين ما أحب شيئاً مما قلت ولكني كنت امرءاً شاعراً وجدت فضلاً من القول فقلت فيه الشعر فقال له عمر : والله لا تعمل لي على عمل ما بقيت . من هذا يتبين لنا حرص عمر على أن يكون الولاة مثلاً أعلى للرعية فلا يعرف عنها المجون والخلاعة أو شيء من ضعف الأخلاق فتسري العدوى كالنار في الهشيم .

روي أن معاوية بن أبي سفيان قال لصعصعة بن صوحان : صف لي عمر بن الخطاب قال : «كان عالماً برعيته عادلاً في قضيته عارياً من الكبر قابلاً للعذر سهل الحجاب مصون الباب متحرياً الصواب رفيقاً بالضعيف غير صاحب للقريب ولا جاف للغريب» هذه الصفات يجب أن يتصف بها كل حاكم ولي أمراً من شؤون الأمة .

ولو راعى حكام المسلمين هذه المبادىء القويمة لما لحقهم ما هم فيه من الذل والصغار وفقد حريتهم وهوانهم .

فالرجل إذا أراد أن يسوس أهل بيته من زوجة وولد فعليه قبل كل شيء أن يروض نفسه على الأخذ بأسباب الفضيلة وأن لا يأمرهم بشيء لا يفعله أو ينهاهم عن شيء ويفعله .

وإذا كان عمر بن الخطاب نجح في سياسته وازدهر الإسلام في

عهده فذلك لأنه كان المثل العالي في تأديب نفسه وما أمر أمراً إلا وكان أول عامل به وما نهى نهياً إلا وكان أول من نهي عنه وكان لا يقول إلا ما يفعل ولا يفعل إلا ما يقول وبهذه السياسة الرشيدة التي سلكها عمر رضي الله عنه استطاع أن يجعل من أمة مبعثرة ذليلة لا شأن لها أمة عظيمة بل امبراطورية إسلامية كبيرة لها العز والسلطان و الكلمة العليا في أنحاء العالم وجعل عدلها وعلمها يخفق على العراق كله والبصرة وفارس والشام كلها (ما خلا أجنادين فإنها فتحت في خلافة أبي بكر) ومصر والموصل والإسكندرية وغير ذلك . ويمكننا أن نقول بإيجاز أن عمر بن الخطاب هو أول من وضع نظام الحكومة في الإسلام حسب مقتضيات حاجتها .

ولقد حقق الله في عهد عمر ما جاء في القرآن الكريم من أن من آمن وأصلح في هذه الحياة لا بد من أن يسود ويكون خليفة الله في أرضه فقال وهو أصدق القائلين : « **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما آستخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي آرتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** » .

فإذا أردنا أيها الإخوان والأخوات أن نثوب إلى رشدنا ونرد الطمأنينة إلى نفوسنا والسلام إلى وطننا فعلينا أن نبتعد عن الطمع والكذب والغش والتمويه لأن هذه الأساليب ليس لها إلا غاية واحدة محتومة وهي الشقاء والاظطراب والفوضى وأن نعين الهدف الذي نسعى إليه وهو إحقاق الحق وإزهاق الباطل وأن تكون الوسيلة لإحقاق الحق هي الفضيلة والصراحة وأخذ الأمور بأيسر الأسباب لا تقوم للمسلمين قائمة إلا بالرجوع إلى ربهم والاستمساك بما جاء به قرآنهم وإن في سيرة عمر بن الخطاب البراهين الساطعة والحجج الناطقة على أن المسلم الصحيح الإيمان القوي العزيمة قادر على تحقيق ما جاء به القرآن وهو أن العزة والسلطان لا يكونان إلا بصالح الأعمال وسلامة الوجدان « **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** » .

من دروس رمضان لسنة 1969

السخاء والبخل وأثرهما

السخاء بذل المال إلى من يحتاجه أو لا يحتاجه وإذا ما كثر الأسخياء في الأمة وآزداد أفرادها كان ذلك دليلاً على سمو أخلاقها وسيرها في سبيل التقدم والفلاح إذ حيثما كثر البذل في المشاريع الهامة الصالحة درجت الأمة في معارج الرقي وكلما اتصفت الأفراد بالسخاء هانت عليهم أنفسهم وأموالهم في صرفها في المنافع والمفيد لخير الأمة وسعادتها .

والسخاء من الفضائل التي يمكن أن يكسبها الإنسان وبالمران وتدريب إرادته على بذل المال في سبيل الواجب والإنسان متى تعلم القيام بالواجب صار ذلك عادة له يسهل عليه العمل بها .

فالإنسان الصالح المتصف بفضيلة السخاء هو الذي أدب نفسه بتدريب إرادته حتى صار الخير عادته .

والسخاء من أقوى العوامل الخلقية في فض النزاع بين الأفراد ومنع البغضاء والشحناء وإيجاد المحبة والتضامن بين الناس وإذا قلنا المحبة والتضامن قلنا العزة والقوة والرفعة والسيادة والغلبة والسلطان فما سادت أمة من الأمم في بدء حياتها إلا بفضيلة السخاء والإيثار للمصلحة العامة على المصلحة الخاصة وهاهي الأمة العربية بعد تفككها وانحلالها في زمن الجاهلية وقبل الإسلام لما أخذت بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف وتمسكت بفضائله دانت لها أمم الأرض وهي أقوى منها عدة وأكثر عدداً ولكن فاقهم المسلمون بالأخلاق الكريمة وفي مقدمة هذه الأخلاق السخاء والإيثار .

قال عمر رضي الله عنه : أهدي إلى رجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة فقال إن أخي أحوج مني إليه فبعث به إليه فلم يزل كل واحد يبعث به إلى الآخر حتى تداوله سبعة أبيات ورجع إلى الأول وقد أثنى الله على الصحابة رضي الله عنهم فقال : « **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** » ونزل عند رسول الله ﷺ ضيف فلم يجد عند أهله شيئاً فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب بالضيف إلى أهله ثم وضع بين يديه الطعام وأمر امرأته بإطفاء السراج وجعل يمد يده إلى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل حتى أكل الضيف الطعام فلما أصبح قال رسول الله ﷺ لقد عجب الله من صنيعكم الليلة إلى ضيفكم ونزلت الآية « **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** » .

روي أن عبد الله بن جعفر خرج إلى ضيعة له فنزل على نخيل قوم وفيه غلام أسود يعمل فيه إذ أتى الغلام بقوته فدخل عليه كلب ودنا من الغلام فرمى إليه الغلام بقرص فأكله ثم رمى إليه بالثاني والثالث فأكله وعبدالله ينظر إليه فقال يا غلام كم قوتك كل يوم قال ما رأيت . فلم آثرت به هذا الكلب؟ قال ما هي بأرض كلاب إنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهت أن أشبع وهو جائع . قال فما أنت صانع اليوم ؟ قال أطوي يومي هذا فقال عبدالله بن جعفر أألام على هذا السخاء ؟ إن هذا الغلام لأسخى مني فاشترى الغلام وما في الضيعة من آلات فأعتق الغلام ووهبه له .

أما البخل فهو قبض اليد عن البذل بالمال في أداء الواجب ونقيضه الإسراف وهو صرف المال في غير وجهه وكلاهما من الصفات المذمومة التي تعوق النفس عن السلوك في مدارج الرقي وكلاهما وسيلة لهم الإنسان ونكده في الحياة فنفس البخيل متنازعة بين إمساك المال وبين بذله في وجهه فهي مشدودة بين الحرص على بقاء ما في يدها وبين أداء الواجب الذي يدعو إلى الإنفاق مما عنده وكذلك نفس المسرف متنازعة بين هم الواجب الذي يتخطاه وبين مذمة الهوى الداعي للاتفاق وكلاهما من شر الصفات

وقد ذمهما الله في كثير من آياته فقال تعالى : « **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً** »

البخيل والمسرف مآلهما الفقر والحزن وإن اختلفا في الطريق فالبخيل الذي لا ينفق المال في وجهه يصبح هو والفقير الذي ليس عنده ما يسد به حاجاته سواء وكلاهما يعيش عيشة المحرومين بل البخيل أشقى من الفقير لأنه يعاني مع ألم الحرمان ألم الخوف على ضياع المال فهو معذب قال تعالى : « **ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة** » وقال ﷺ : (إياكم والشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم ودعاهم فقطعوا أرحامهم)

يدعو البخل إلى إنكار الواجبات القومية والإنسانية والبخيل عدو نفسه بما أمسك عليها عدو نفسه بما قعد عن البذل في أداء واجباته والبخيل من ناحية أخرى ضعيف الإيمان بالله عز وجل لأنه لو صح إيمانه لبذل غير هياب للفقر فالمعطي وهو الله الذي أعطاه من قبل يعطيه من بعد إذا ما أنفق .

وإذا ما كثر البخلاء في الأمة وقبضوا أيديهم عن مساعدتها بالمال في المشاريع الحيوية الهامة كان ذلك نذير سوء وعلامة تقهقر واضمحلال قال محمد بن المنكور « إذا أراد الله بقوم شراً أمر عليهم شرارهم وجعل أرزاقهم بأيدي بخلائهم » .

وورد على أنوشروان حكيم الهند وفيلسوف الروم فقال للهندي تكلم فقال : خير الناس من ألفى سخياً وعند الغضب وفوراً وفي القول متأنيا وفي الرفعة متواضعاً وعلى كل ذي رحم مشفقاً . وقال حكيم : « من كان بخيلاً ورث عدوه ماله ومن قل شكره لم ينل النجح وأهل الكذب مذمومون وأهل النميمة يموتون فقراء ومن لا يرحم سلط الله عليه من لا يرحمه » .

مدحت امرأة عند النبي ﷺ فقالوا صوامة قوامة إلا أن فيها بخلا

قال فما خيرها إذاً ؟ وقال بشر : النظر إلى البخيل يقسي القلب ولقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين . يروى أن يحيى بن زكرياء عليهما السلام لقي إبليس في صورته فقال : « يا إبليس أخبرني بأحب الناس إليك وأبغض الناس إليك ؟ قال أحب الناس إلي المؤمن البخيل وأبغض الناس إلي الفاسق السخي قال له لم ؟ قال : لأن البخيل قد كفاني بخله والفاسق السخي أتخوف أن يطلع الله عليه في سخائه فيقبله ثم ولى وهو يقول : لولا أنك يحيى لما أخبرتك وقال ﷺ : « لا ينبغي لمؤمن أن يكون بخيلاً ولا جباناً » .

ليس البخيل من بخل بماله فقط وإنما البخيل أيضاً من بخل بما عنده في سبيل المنفعة العامة من علم وصحة وجاه فالعالم الذي يضن بعلمه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو بخيل والمتعلم بخيل إذا ما قدر على نصح غيره ولم يفعل ومن قدر أن ينقذ إنساناً من ورطة أو يدفع أذى عن غيره ولم يفعل فهو بخيل .

ومن استطاع أن يخدم الناس بجاهه وسلطانه ولم يفعل فهو بخيل :

وبالاختصار من لم يستعمل مواهبه فيما أعدها الله في سبيل الخير والنفع للناس فهو بخيل وإذا ما بخلت الأفراد على أن تسلك سبيل الله وما أمروا أن يعملوا به عرضت الأمة نفسها للدمار والهلاك وأن تحل محلها أمة تعرف نعم الله وتسير حسب أوامره فقال تعالى : « **ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** » .

من دروس رمضان سنة 1389 ـ 1969

الحظ والبخت واثرهما

هل الحظ أو البخت الوصول إلى تحقيق الرغبة في غير عناء ؟ أم الحظ أن يحصل الإنسان على ما لا ينتظر وفيما لا يفكر من خير ؟ قد يكون الحظ أو البخت كل ذلك أو بعضه .

كان لأثر حظ بعض الناس تأثير كبير على عقول الضعفاء والجهال حتى أن الكثير منهم أطلق لنفسه العنان في ميدان الأوهام والأحلام يعللها بتحقيق أماني طائشة عن طريق الحظ أو البخت وتركوا العمل فكان نصيبهم الفشل والخسران ومحالفة الهموم والأحزان .

ليس كل ما يناله الإنسان من ثروة أو جاه أو منصب أو زواج بمن يحب ويهوى يسمى حظاً أو بختاً إذ قد يكون الشر والوبال فيما يحب الإنسان ألم نر ونسمع عن كثير من الناس قد كان شقاؤهم في مال وفير وثروة أو جاه حصلوا عليه من غير عناء أو زواج ظهر فيه اختلاف الأخلاق وتباين الطباع فحمل معه الشقاق والألم .

إن طريق الحظ الطبيعي هو العمل إذ قد يرى الإنسان مكافأة عمله بقدر ما ضحى من جهود وتحمل من عناء لذلك لا ينبغي للإنسان أن يفرط في سبيل أداء واجباته انتظاراً للحظ أو البخت أو النصيب فالحياة هي امتحان دائم وما الحظ إلا موضوع من موضوعات هذا الامتحان يأتي على غير انتظار ومن الناس من يسعد بهذا الامتحان ومنهم من يشقى ولله عاقبة الأمور .

قص الله علينا في القرآن الكريم قصة قارون وكان أكبر أغنياء

زمانه وظن أن غناه سيكون لنعيمه وبقاء عزه وسلطانه غير أنه لم يرع شكر نعمة ربه فيما رزقه وقد حسده على نعمه من حوله من قومه فلما طغى وبخل بماله ولم ينفقه في وجوهه كما أمره به تعالى خسف الله به وبداره الأرض فكان حظه في الدنيا سبباً لخسرانه وعذابه في الآخرة فقال تعالى وهو أصدق القائلين :

« إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعَصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين قال إنما أوتيته على علم من عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لو لا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون » يؤكد الله أن قارون من بني إسرائيل وأنه طغى وبغى وتكبر وتجبر واستبد وظلم وقد وسع الله عليه في رزقه ومنحه مالاً كثيراً فنصحه جماعة من عقلاء قومه ونهوه عما هو فيه من غرور فلم يستمع لهم وقال إن هذا المال الذي أعطيته إنما حصلت عليه بعلمي وجهدي وتدبيري ولا شك أنه في هذ االقول لمخطيء وضال لأنه لو فكر لعلم أنه قد سبقه ناس كثيرون وكانوا أكثر منه مالاً وقوة ولما لم يعترفوا بفضل الله عليهم أهلكهم وأبادهم .

من هـذا يتضح لنا أن صاحب الحظوظ في هذا العالم ليس من أوتي المال الوفير أو حصل على ما يطمع من عرض الدنيا فقد يكون هذا الحظ سبباً لتعبه بل صاحب الحظ من استطاع أن يتغلب على شهواته فيقوم بالواجب نحو الله فيأتمر بأوامره وينتهي بنواهيه وإذا ما قدر الإنسان أن يلزم نفسه هذه الفضيلة فضيلة الواجب وأدائه والوقوف عند حدود ربه يتساوى عنده بعد ذلك إقبال الدنيا وإدبارها فالسعادة حينئذ ليست في الثروة ولا في القوة ولا في النفوذ والسلطان وإنما السعادة في القناعة والطمأنينة وطهارة النفس من الشهوات وأن لا ترى عليك سلطاناً لغير الله عز وجل فلا يحزنك فقد المال ولا يبكيك فوات المحبوبات بل يجب أن تفوض أمرك إلى الله وإذا كنت كذلك ترى الله معك والنصر حليفك أينما توجهت . روى حذيفة المرعشي وقد كان خدم إبراهيم بن أدهم فقيل له ما أعجب ما رأيت منه فقال بقينا في طريق مكة أياماً لم نجد طعاماً ثم دخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خراب فنظر إلي إبراهيم وقال يا حذيفة أرى بك الجوع فقلت هو ما رأى الشيخ فقال علي بدواة وقرطاس فجئت بهما فكتب بسم الله الرحمان الرحيم أنت المقصود إليه بكل حال والمشار إليه بكل معنى وكتب شعراً :

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر   أنا جائع أنا ضائع أنا عاري
هي ستة وأنا الضمين لنصفها   فكن الضمين لنصفها يا باري
مدحي لغيرك لهب نار خضتها   فأجر عبيدك من دخول النار

، ثم دفع إلي الرقعة فقال اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك فخرجت فأول من لقيني كان رجلاً على بغلة فناولته الرقعة فأخذها فلما وقف عليها بكى وقال ما فعل صاحب هذه الرقعة قلت هو في المسجد الفلاني فدفع إلي صرة فيها ستمائة دينار ثم لقيت رجلاً آخر فسألته عن راكب البغلة فقال هذا نصراني فجئت إلى إبراهيم وأخبرته بالقصة فقال لا تمسها فإنه يجيء الساعة فلما كان بعد ساعة دخل النصراني وأكب على رأس إبراهيم يقبله وأسلم .

نأخذ من هذه القصة أن من كان همه العمل الصالح ابتغاء وجه الله هانت عليه الدنيا وقلت همومه وأحزانه وسعدت نفسه برضوان الله

روي عن بعض الصحابة أنه قال : قلنا يا رسول الله أي الناس خير قال : كل مؤمن محموم القلب صدوق اللسان . قلنا يا رسول الله وما محموم القلب؟ قال : التقي النقي الذي لا غل فيه ولا غش و لا بغي ولا حسد . قلنا يا رسول الله فمن على إثره ؟ قال : الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة .

قال حارثة لرسول الله ﷺ أنا مؤمن حقاً . قال وما حقيقة إيمانك ؟ قال : عرضت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها وكأني بالجنة والنار وكأني بعرش ربي بارزاً فقال ﷺ : عرفت فألزم عبد نورالله قلبه بالإيمان . كان رسول الله ﷺ مثلاً أعلى في الحرص على أداء الواجب في جميع نواحيه سواء نحو الله فهو قائم بالليل صائم بالنهار دائم الذكر والمراقبة له أو نحو أمته فهو عاكف على هدايتها وإرشادها طول رسالته ومع كل ذلك كان زاهداً في الدنيا لا ينظر إليها وزخرفها وإنما كان همه رضاء الله عز وجل والصبر على المكاره .

روى مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت يا رسول الله ألا تستطعم الله فيطعمك ؟ قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع فقال : يا عائشة والذي نفسي بيده لو سألت أن يجري معي جبال الدنيا ذهباً لأجراها حيث شئت من الأرض ولكني اخترت جوع الدنيا على شبعها وفقر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها يا عائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولآل محمد يا عائشة إن الله لم يرض لأولي العزم من الرسل إلا الصبر على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها فقال : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » والله مالي بد من طاعته وإني والله لأصبرن كما صبروا ولا قوة إلا بالله وإن رسول الله كان أكثر الناس حظاً في الدنيا بهدايته للخلق حتى أصبحت تعد مئات الملايين من البشر وأكثر الناس حظاً في الآخرة

إذ وعده الله تعالى وهو لا يخلف وعده بأن له عنده ما يشاء فقال في كتابه العزيز « **ولسوف يعطيك ربك فترضى** » .

فإذا أردنا أيها الإخوان حظ الدنيا والآخرة فعلينا باتباع كتاب الله والاقتداء بسيرة رسول الله على ما كان عليه من آداب وأخلاق وأعمال « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً .

ماهي العلل والاسباب التي ادت الى انحطاط المسلمين في اخلاقهم

موضوع درسنا اليوم في بيان العلل والأسباب التي أدت إلى إنحطاط المسلمين في أخلاقهم وأحوالهم الاجتماعية وأفضت إلى انتشار الفساد فيما بينهم حتى أصبحوا بفساد أحوالهم كحجة على الإسلام وإنا لنأسف أشد الأسف على هذه المأساة المحزنة والنكبة العظيمة التي أصبنا بها في أخلاقنا فهوت بنا من سماء العزة والمجد إلى حضيض الضعة والمسكنة وأصبحت بسببها تلك الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس والتي كانت قناتها لا تلين لغامز مفرقة الأوصال مشتتة الشمل وضعيفة الجناح ولكنا مع ذلك أمام أمر واقع لا بد لنا من درسه وفحصه لتعرف أسباب الفساد وكيف تسرب إلى قلوب المسلمين فإن الداء إذا لم يعرف أصله ومنشؤه عسر علاجه وأعيا الطبيب مداواته .

لو ذهبنا نستقصي العلل والأسباب في هذا الفساد المنتشر لوجدنا أن منشأها الوحيد هو جهل الناس بأصول دينهم وما يرمي إليه من مقاصد سامية وعدم إذعانهم لعقائده وأحكامه عن دليل صحيح يملك زمام النفس وعدم فهم أسرار التشريع وما اشتمل عليه من طرق الإصلاح وانحلال العقائد في قلوب كثير من الناس حتى لقد أصبح الدين عند كثير من الناس كالعادات الوراثية التي يأخذونها بالتلقين عن آبائهم وصار كثير من المنتمين إلى الإسلام مسلمين تبعاً للبيئة التي نشؤوا فيها .

فلم يكن لعقائده سلطان على نفوسهم ولا لأحكامه وشرائعه هيبة في

قلوبهم وترون هذا الأثر ظاهراً جد الظهور في طبقة العامة من الأمة وهم السواد الأعظم من الشعب بل وفي كثير من الطبقات الأخرى تسأل أحدهم عن دينه فلا يجيبك بأكثر من أنه نشأ مسلماً بين قوم مسلمين فهو لا يعرف من الإسلام إلا الصورة التي شاهد آباءه عليها ومثل هذا لا يؤثر فيه تعليم الإسلام.

كان من نتائج زوال سلطان الدين عن قلوبهم وعدم استيلائه على حواسهم ومشاعرهم أن مات فيهم الوجدان الظاهر والإحساس الشريف، وأصبحت نفوسهم عرضة للآفات النفسية وهذه الآفات أو إن شئت قلت هذه العيوب هي: الإلحاد – الحرية الكاذبة – تقليد الغربيين تقليداً أعمى في مفاسد مدنيتهم وترك ما نهضوا به من العلوم والأعمال النافعة سواء الحالة الاقتصادية أو الاجتماعية.

وسنتكلم على ما لكل آفة من الأثر في انتشار الفساد.

أما الأهواء والشهوات فهي من أكبر الآفات التي أدت إلى انتشار الفساد في بلادنا وللشهوات سلطان كبير على النفوس المريضة فإذا استولى هذا السلطان على قلب الإنسان حال بينه وبين الانتفاع بمواهبه وقد صور الله هذا المعنى في كتابه العزيز بقوله: «**أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل أضل سبيلا** » وأنتم تعلمون أيها الإخوان الكرام أن الشهوات لا حد لها تقف عنده و لا غاية لها تنتهي إليها وهي تتصل بالنفوس اتصالا مباشراً وترتبط بها ارتباطاً وثيقاً محكماً فكان الخطر لذلك عظيماً والبلاء أليماً والرزء جسيماً. لماذا؟ لأن النفس البشرية أشد تأثراً بهذه الأمراض. والقاعدة العامة: متى فسدت النفوس البشرية فسدت الأمزجة ولؤمت الطباع وخبثت العادات وانحلت الأخلاق وبذلك تنحط الأمة.

هكذا استولت الشهوات على نفوس الناس فكان من نتائجها أن دفعتهم إلى ارتكاب المنكرات وسولت لهم أن الخير والسعادة في هذه الأمور الخبيثة التي تنفر منها الفطر السليمة وتمجها العقول الناضجة فاندفع الناس تحت هذا التأثير الشديد إلى فعل الجرائم والمنكرات إلا أنهم افترقوا في فعالها إلى فريقين:

فريق يفعل الجريمة ثم يأخذ في تعليلها بالعلل السخيفة الباطلة ليدفع عنه لوم اللائمين وليلبس الجريمة صورة من صور الحق فهو يغالط نفسه في الحقائق ويظن أنه يغالط الناس أيضاً . وأكثر ما يكون هذا في المتعلمين : يشرب أحدهم الخمر إجابة لداعي الشهوة فإذا لامه أحد على شربها قال أنا لا أريد السكر وإنما أستعين بها على الهضم وتقوية البنية ويزني ويعلل ذلك بأنه إجابة لداعي الطبيعة وبأنه شر لا بد منه إلى غير ذلك وهؤلاء يودون الظهور بمظهر الفضلاء ويظنون أنهم بهذا التعليل السخيف وبتلك المغالطة قد خرجوا من حمأة الرذيلة ولقد أخطؤوا في هذا الظن وجنوا على أنفسهم جنايتين : أولا تدنيسها بفعل المنكر ، ثانيا خداعها وغشها ومغالطتها في الحقيقة .

والفريق الثاني يفعل الجريمة بدافع الشهوة الخبيثة ولا يبالي أن يكون في نظر الناس مجرماً . وهؤلاء هم الذين فقدوا وازع الحياء واتخذوا الجرائم وسيلة للرزق كاللصوص والنشالين والمحتالين وكلا الفريقين ضال عن صراط الاعتدال .

وقد زين لهم سوء عملهم كما قال الله تعالى في وصف أمثالهم : **« كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون »** وقال : **« وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون »**.

كان من نتائج انتشار هذه الموبقات أضرار اجتماعية وأضرار أخرى شخصية . فأما الأضرار الاجتماعية فأعظمها إفساد البيئات وانتشار كثير من الأمراض التي سببها الزنا وتخريب البيوت العامرة وتفريق قلوب الناس وإحداث الشغب .

وأما الأضرار الشخصية فأنكاها أثراً قتل الوجدان الطاهر والإحساس الشريف وتدنيس النفس وانحرافها عن أصل الفطرة الطاهرة الزكية التي فطر الله الناس عليها .

الإلحاد : هو من الآفات التي لها أسوأ الأثر في انتشار الجرائم والمفاسد الخلقية فإن الملحد لا يعتقد بوجود إله مطلع على جميع أفعاله ولا يعتقد بعثاً ولا

حساباً ولا جنة ولا ناراً بل يرى لذته محصورة في هذه الحياة الدنيا فهو يسعى لتحصيلها بكل الطرق الممكنة ولا يبالي بارتكاب أي منكر في سبيلها وقد جعل الملحدون اللذة والألم معياراً للفضائل والرذائل فالفضيلة عندهم كل ما حصل لهم من لذة والرذيلة كل ما سبب لهم ألماً بذلك هدموا الحدود الفارقة بين الفضيلة والرذيلة وأصبحت الفضيلة والرذيلة تبعاً لاعتبارهم وتقديرهم ولا يخفى أنه متى طمست المعالم الفارقة بينهما فعلى الأخلاق العفاء . ومن عجيب شأن هذه الفئة أنها لا تكتفي بأن تكون ملحدة في نفسها بل تنفث السم الزعاف في غيرها من أبناء الأمة وشبابها طلباً للعصبية وتكثيراً للتبع كما يفعل أهل المشارب وعبيد المسكر إذ يطلبون الندماء تخفيفاً لعار الفضيحة الذي يلحقهم منه كثير إذا انفردوا والذي جرأ هؤلاء الأغرار على الإلحاد ، وتعليمه وإذاعته ، هو الغرور . والغرور بخور الكبر ، والكبر أساس الشر ، فما أخرج إبليس من دار الكرامة ، وما جعله رجيماً إلا كبره .

حقاً إن بعض هؤلاء الدعاة إلى الإلحاد مغرورين بأنفسهم لأنهم يحسبون أنهم على شيء كبير من العلم وقد غاب عنهم أن العلم وحده بدون الأخلاق الفاضلة لا ينفع صاحبه بل كثير من العلماء أضله الله على علم كما قال الله تعالى : «**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة** » أما الذي نخشاه من هؤلاء الملحدين هو سريان سمومهم في عقول الشبان والشابات ضعفاء العقول مثلهم بنشر إلحادهم وأي مسلم يرضى أن يضل شبابنا وشاباتنا بهذا الضلال الذي يفسد العقل ويدعو إلى الفتنة ومن فتن المؤمنين والمؤمنات يستحق العذاب السرمدي حتى يتوب ويندم على ما قدم وصدق الله العظيم الذي يقول : « **إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق** »

نعوذ بالله من الضلال بعد الهدى ومن الزيغ بعد الاستقامة ومن الكفر بعد الإيمان .

إذا كنت من فرط السفاه معطلا فياجاحد أشهد أنني غير جاحد

أخاف من الله العقوبة آجلا وأعرف أن الأمر في يد واحد
فإني رأيت الملحدين تعودهم ندامتهم عند الأكف الاواحد

وصلى الله على نبينا محمد الذي أخبر عن هؤلاء الملحدين في حديث حذيفة بن اليمان الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه قال رضي الله عنه : كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت : يا رسول الله ، كنا في جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ . قال : نعم. قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال : نعم وفيه دخن (أي فساد). قلت : وما دخنه ؟ . قال : قوم يستنون بسنتي ويهتدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر . فقلت : هل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها . فقلت : يا رسول الله صفهم لنا . قال : قوم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا . قلت : يا رسول الله ، فما ترى إن أدركني ذلك ؟ قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم . فقلت : فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك .

التقليد الأعمى في الحرية الكاذبة : هي من أسباب الفساد الفعالة والمراد بها الحرية الشخصية ولقد كانت هذه الحرية من أكبر دعائم العمران لو أن الناس فهموا معناها على وجهه وآحسنوا استعمالها لكنهم أخطؤوا في الأمرين فاتخذوا الحرية الشخصية سبباً في فعل المنكر ودرعاً يتقون به سهام اللوم فعادت شراً مستطيراً . ولو ذهبنا إلى احترام كل حرية شخصية لكان لنا أن نترك الفاسق يفسق جهاراً على قارعة الطريق والسارق يسرق ما يشاء والقاتل يقتل ما يشاء لأن لهم حرية شخصية وهكذا . ولو أن الناس اتخذوا هذا المبدأ في الحدود المعقولة لكان له أكبر الأثر في إنهاض الأمة ولكنهم اتخذوه سبباً لفعل المنكرات فعاد شراً مستطيراً وبلاء خطيراً .

إنه ليحزن المسلم الغيور أن يرى الكثير من مسلمي هذا العصر اكتفوا بشهوة الجسد والجري وراء المدنية الحديثة الكاذبة التي نسجتها أنوال المستعمرين على خيوط

حريرية ناعمة براقة ذات بهرج ولمعان إذا رأيتها أعجبك منظرها حتى إذا دخلت في حظيرتها كانت الداء الدفين والعدو المبين كالحية الرقطاء الناعمة الملمس ذات الثوب المزركش إذا مددت يدك إليها أعطتك السم الزعاف فكانت القاضية والعياذ بالله .

ومما جعل هذه المدنية الكاذبة تتغلغل في نفوس الشباب على اختلاف بيئاتهم ودرجاتهم أنهم وجدوا فيها هوى نفوسهم وإشباع شهواتهم فأحبوها وتراموا في أحضانها واستهزأ الكثير منهم بالدين ورموه بالجمود والرجعية ونبذوا الأخلاق الكريمة وصار لاهم لهم إلا مخادنة الأجنبيات والجري وراء النسوة الساقطات وأماكن الرقص والحانات ومجالس الأنس والطرب ولعب الميسر واستنباط ضروب الحيل وغير ذلك من الموبقات .

كما افتتنت الفتاة بمظاهر هذه المدنية الغربية وساعدها على طيشها فئة من الشبان المتهوسين المستهترين الذين يريدون أن يلهوا بكرامتها وطهرها خاصة وهم يرونها قد خرجت للطريق بوجه مصبوغ غير مطبوع لابسة من الثياب ما ينم عما تحته ويلفت النظر إلى استطلاع ما وراءه كاشفة عن فخذيها حاسرة عن ذراعيها مشمرة تختال في مشيتها ذاهبة آيبة عادية رائحة متمايلة تقطع النهار في الشوارع والمنتزهات والمغازات والمنتديات حتى إذا جن عليها الليل تأبطت ذراع بعض المفتونين من شباب اليوم وسارا معاً إلى الملهى أو المراقص أو السينما وما يجري هناك تتلقنه وتعتاده.

إننا نعلم انه يوجد كثير من الفتيات الشريفات لا يشاطرن أخواتهن الفتيات الخارجات عن حدود اللياقة والحشمة ولكن ما العمل والإنسان يحكم على الغائب بالحاضر . والبضاعة المعروضة : تكون في بعض الأحيان عنواناً للبضاعة المخبوءة وقد قيل إن الرحمة تخص والبلاء يعم

نحن حينئذ بين خطرين داهمين الأول امرأة جاهلة تنفث في نفوس الأبناء كثيراً من النقائص كالجبن والخوف والاشتغال بالحقير وضياع الوقت فيما لا يجدي نفعاً .

والثاني فتاة نصف متعلمة لا تعرف حقها وقد ضلت الطريق فأصبحت عنواناً للإسراف والتبذير في كل ما تفعل مسرفة في ملبسها مسرفة في زينتها وتقليدها هازئة بعوائد قومها ووطنها لا تميز بين ما تعمل وبين ما تحب أن تكون عليه. تلك هي الأسباب التي أدت إلى هذا الشلل في حياتنا الأخلاقية فما الذي يجب علينا الآن أن نفعله لمكافحة هذه العلل.

طرق الإصلاح

لقد استعرضنا آراء الباحثين في طرق الإصلاح فرأينا فريقاً من الناس تغافلوا عن كون آفات الفساد طارئة على فطرة الإنسان واعتبروا الميل إلى الشر أمراً فطرياً فطر عليه الإنسان ورأوا أن خير وسيلة لمكافحة الشرور هي سن العقوبات الصارمة لتأديب المجرمين ولعمري لقد أخطؤوا في كلا الأمرين فلقد تبين لكم أنه ليس الميل إلى الشر والإجرام طبيعيا في الإنسان وإنما ينشأ من الأسباب التي ذكرناها وأما العقوبات فما رأيناها ربت أمة على الفضيلة أو انتزعت منها أصول الرذيلة.

إزاء هذا الرأي صار في أمريكا من عهد قريب رأي آخر يرى أن الجرائم منشؤها الآفات النفسية التي تلم بنفس المجرم وأنه لا سبيل إلى درء الجرائم إلا بمعالجة نفس المجرم فاقترح أصحاب هذا الرأي إنشاء المسارح والصور المتحركة والمراقص في السجون لعلاج تلك النفوس المريضة ومن الأسف أنهم مع كونهم أصابوا في اعتبار الجريمة مرضاً نفسياً أخطؤوا في كيفية علاجه ولم يمض على ظهور هذا الرأي إلى حيز الوجود زمن وجيز حتى انتشر الإجرام إلى ضعف ما كان عليه وقد نددت صحفهم بهذا الرأي تنديداً كثيراً.

وذهب فريق آخر إلى أن العلم متى انتشر هذب النفوس. وفساد هذا الرأي واضح وأكبر دليل على فساد هذا الرأي انتشار الجرائم بكثرة في أعظم مدن العالم علماً ومدنية.

إذن ليس هناك وسيلة لمكافحة هذه الآفات سوى الدين فلننظر ماذا صنع الدين في تهذيب الإنسان.

بين لنا الدين أن الإنسان خلق على فطرة سليمة محباً للخير وأن الفساد طارىء على فطرة الإنسان فقال عز من قائل : « **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله** » . وقال رسول الله ﷺ : كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » (رواه الإمام مسلم) فرأى الدين أن خير وسيلة لإصلاحه هي رجوعه إلى أصل الفطرة وإحياء وجدانه ليكون حاكماً على جميع أفعاله فدعاه إلى توحيد الله تعالى واعتقاد البعث والحساب حتى إذا اعتقد الإنسان أن الله مطلع عليه (**يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور**) وأنه سبحانه سيحاسبه على جميع ما يصدر منه (**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**) بعد عن المنكر وفر من كل معصية .

وهذه العقائد التي دعا إليها الإسلام هي الأساس الذي تركز عليه دعائم الفضيلة لأن الإنسان إذا أحس بصوت الفطرة من أعماق قلبه توجهت فيه داعية الخير إلى فعل الفضيلة غير أن الإنسان لما كان مضطراً إلى الاجتماع بأبناء جنسه لأن ضرورة الحياة تلجئه إلى ذلك وهو لا يستطيع أن يعيش منفرداً كان عرضة للغفلة عن هذا الشعور الذي تحدثه في نفسه وهدفاً لسهام الآفات الخلقية لذلك شرع له الله من العبادات ما يوقظ فيه هذا الشعور إذا رانت على نفسه الغفلة وما ينمي فيه تلك العقيدة ويكسر من حدة شهوته ويكبح جماح أهوائه فشرع له الصلاة التي يخشع فيها القلب لعظمة الله وبين أنها من أكبر الوسائل لتهذيب النفس قال تعالى : « **أتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** »

وليس ببعيد أن تكون الصلاة التي يخشع فيها القلب كل يوم خمس مرات سبباً في كف الإنسان عن الفحشاء والمنكر لأنها تبدد ضباب الغفلات التي تعتري النفس وتكون سبباً في ارتكاب الجرائم وشرع له الصوم ليلطف من حدة الشهوة التي هي سبب كثير من المنكرات كما تقدم لنا وشرع له الزكاة لتنظيم الأحوال الاقتصادية حتى ينزع الأحقاد من قلوب الفقراء على الأغنياء

ويزيل أكبر سبب لانتشار القتل والسرقة ثم حدد للإنسان أصول الفضائل التي ينتظم بها أمر الاجتماع وبين له كيف يعامل أسرته وأهله وإخوانه وحيوانه وسائر الناس وحضه على التعاون على البر والتقوى ونهاه عن أصول الرذائل وحددها تحديداً وافياً ولم يتركها لفلسفة طائشة ولم يقتصر على ذلك بل حض الإنسان على العمل بما شرعه لتنمو الفضيلة في نفسه.

تلك هي طريقة الدين في إصلاح النفوس ومرجعها إلى حفظ صفاء الفطرة الإنسانية ثم أحاطه بضروب من الإرشاد فأخذه بالترغيب والترهيب ليلين قسوة فؤاده وبين له سنته في سعادة الأمم وشقاوتها وتلك السنة هي أن لا تسعد أمة إلا بالصلاح والسير على الطريق المستقيم ولا يهلكها إلا الفسوق عن أمره واتباع الشهوات فقال « **وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون** » وقال : « **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً** » ويقول في أمة كانت تنعم بأنواع الخير وكان ريفها في غاية الخصب فلما عتت عن أمر ربها وخرجت عن طاعته حاسبها حساباً عسيراً وجعل عاقبة أمرها خسراً وإلى ذلك تشير الآية الكريمة « **لقد كان لسبأ في مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل يجازى إلا الكفور** ».

وحث الناس على مطالعة أخبار الأمم ليتعرفوا أسباب رقيها وسعادتها وأسباب شقاوتها وهلاكها. فقد أغرق فريقاً من الأمم الماضية وخسف بالزلازل بفريق آخر ومنهم من أرسل عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة وفي ذلك يقول الله عز وجل « **فمنهم من أرسلنا عليهم حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ».

وخلاصة القول إن القرآن الكريم قص على الناس من العبر ما فيه صلاح

معاشهم ومعادهم وذكر من أمر القرون الأولى ما فيه الكفاية للمعتبر والمتعظ وكان واجباً على الأمة الإسلامية أن تجعله نصب أعينها لتقيس ماضي العبر بحاضرها لأن الناس هم الناس في كل مكان وزمان وما جاز على فريق يجوز على آخر فإن السنن الكونية عامة لا خاصة **«ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون»** **«ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر»** ثم حث الإنسان على صحبة الأخيار ونبذ صحبة الأشرار فقال : **«ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً»** .

وأرى بعد ذلك أنه لا بد من مقاومة الإلحاد بكل ما يستطاع من الحجج والبراهين ومقاومة المدنية الكاذبة ومجاهدة كل إنسان نفسه وقيامه بما يجب عليه من تربية أهله وبناته وإرشادهن إلى أن الصيانة خير لهن من هذا التبرج وأن الحياء أجمل بهن وهو رأس الفضائل وعماد المحامد وقد قال عليه الصلاة والسلام «الحياء شعبة من الإيمان» وهو في حفظ الأعراض يسمى غيرة وفي النساء يسمى عفة وطهارة .

كما يجب على الأب أن يقص على بناته كيف كانت المرأة في الصدر الأول من الإسلام مثالا طيباً في الحياء تستحي أن تمشي في الطريق متعطرة أو متبخترة أو مكشوفة الصدر والساقين وكانت لا تخرج من بيتها إلا بإذن زوجها كما يبين لهن أن بنات اليوم هن نساء الغد وأمهات المستقبل ولهن الشأن في تربية الأطفال ذكوراً وإناثاً وكما يكن يكون الأطفال .

وإن من يتتبع التاريخ يرى أن عظماء الرجال ومشاهيرهم قد اشتملت عليهم أرحام طاهرة وتعهدت نفوسهم عظيمات بثثن فيهم حب العظمة ومبادىء النبوغ .

وأذكر من هذا النوع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فأمه فاطمة بنت أسد وعبد الله بن عباس فأمه لبابة بنت الحارث الهلالية والزبير بن العوام فأمه صفية بنت عبد المطلب وعبد الله بن الزبير فأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ومعاوية بن أبي سفيان فأمه هند بنت عتبة وغيرهم كثير فما كان هؤلاء الأفراد

إلا أطفالا صغاراً كبروا وصاروا رجالا قد تلقوا دروسهم الأولى من أمهاتهم. فكن الأستاذ الأول لهم لأن الأم المهذبة خير للطفل من سبعين معلماً ذلك لأن الطفل في تكوينه العقلي يحتاج إلى أم صالحة عرفت الطرق المتجهة في تثقيف أولادها فسلكتها لذلك يتغنى شاعر النيل بأخلاق الأم حيث يقول:

الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعباً طيب الأعراق

وهذا حق لا شك فيه فالبنت تنشأ على ما تتعوده من والديها وزارع الورد لا يجني شوكاً وغارس الحنظل لا يجني شهداً فالبنت لها كبير الأثر في انتعاش البيت أو كآبته وإذا سعدت الأسرة سعدت الأمة وسعد الوطن وطابت الحياة وكانت العزة وزالت الذلة. كما يضرب الأب الأمثال لبناته من التاريخ الإسلامي الحافل بكثيرات من النساء المسلمات اللائي شرحن صدور أزواجهن وخففن عنهم تعب الحياة وآلامها وصبرنهم على شدائد الدهر فكن بذلك كالبلسم الذي تداوى به القروح وتلتئم به الجروح.

من هؤلاء النسوة السيدة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها فقد شكا لها رسول الله ﷺ ما لقيه من الذعر وما أصابه من الخوف بعد أن فاجأه الملك في غار حراء فأمنت خوفه وأذهبت روعه وفزعه وزملته ودثرته ثم اجتهدت في تسليته قائلة له: ابشر فوالله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق وتكسب المعدوم وتؤدي الأمانة.

لم تكن خديجة خريجة مدرسة من المدارس ولا معهد من المعاهد العلمية ولا كانت يوماً من الأيام تلميذة في كلية أو جامعة ولكنها نشأت في بيئة صالحة لتخريج الطيبات وفي أسرة تتعهد البنات ولم تترك لهن الحبل على الغارب كما يتساهل الآباء مع بناتهن والجماعات.

وهذه السيدة عائشة رضي الله عنها عاشت بعد رسول الله ﷺ أربعين عاماً روي عنها في خلالها ألف حديث وعشرة واستقلت بالفتوى مدة خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما حتى قال أبو موسى الأشعري ما أشكل علينا حديث قط فسألنا عائشة عنه إلا وجدنا عندها فيه علماً وقال مسروق رأيت مشيخة أصحاب محمد الأكابر يسألون عائشة عن المواريث.

وهذه السيدة نفيسة ابنة الإمام مالك رضي الله عنهما حفظت الموطأ وروي أنها كانت تدق الباب إذا لحن قاريء الموطأ على أبيها حينما كبر أبوها سناً فكان بعض الأخطاء يمر عليه ولا ينتبه له فتدق هي الباب من ورائه فينتبه الإمام مالك ويقول للقاريء : أرجع فالغلط معك فيرجع القاريء فيجد الغلط معه .

وهذه ابنة سعيد بن المسيب الإمام المعروف والمحدث المشهور الذي روى عنه الإمام البخاري ووثقه قد ضربت بسهم في علوم الدين حتى أن زوجها لما أصبح من الليلة التي زفت إليه وكان من تلاميذ أبيها أخذ رداءه يريد الخروج فقالت له إلى أين ؟ قال إلى مجلس سعيد يريد أباها أتعلم العلم قالت له : أجلس أعلمك علم سعيد .

كما لا يعزب عنكم أيها الإخوان الكرام ما كان للسيدة سكينة بنت الحسين بن علي رضي الله عنهم من فضل وطول باع في الأدب والشعر والفنون المختلفة فإنها كانت تسمع شعر جرير والفرزدق.

وذكر الأصمعي أنه سمع كلام جارية فقال لها : قاتلك الله ما أفصحك ؟ فقالت له: أو يعد هذا فصاحة بعد قول الله عز وجل « **وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين** » فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين .

ولم يقل الإسلام في المرأة إلا كل ما فيه إجلالها فلقد خص الله النساء بآيات كثيرة وجعل لهن فيه سورة مستقلة سميت سورة النساء بدأها بقوله « **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء** » وقد نص القرآن الكريم على أن المرأة المسلمة كانت تدخل في كثير من الشؤون التي يدخل فيها الرجل المسلم فقد بايع النساء رسول الله صلى الله عليه وسلم كما بايعه الرجال وذكر الله تلك البيعة في كتابه العزيز بقوله « **يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لايشركن**

نالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن **وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن وآستغفر لهن الله** » .

وكان كثير من النساء المسلمات في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم يذهبن إلى المسجد فيصلين مع الرسول عليه الصلاة والسلام وكن يسالنه عن بعض الأحكام الدينية وكان يجيبهن ولا ينهاهن عن السؤال بل إن بعضاً منهن قلن له « لقد شغلك عنا الرجال فاجعل لنا يا رسول الله يوماً نتعلم فيه ». فأجابهن إلى طلبهن كما كانت المرأة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تحضر في ميادين القتال وتراجع الخلفاء وتجادلهم من ذلك ما روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى غلو الناس في مهور النساء حين اتسعت عليهم الدنيا في عصره فخاف عاقبة ذلك وهو ما نشكو منه اليوم فنهى الناس عن أن يزيدوا في المهر على أربعمائة درهم فحاجته امرأة من قريش وقالت : أما سمعت ما أنزل الله إنه يقول : « **وإن أردتم آستبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً** » فقال عمر اللهم غفراناً أصابت آمرأة وأخطأ عمر كل الناس أفقه منك يا عمر وصعد المنبر وأعلن رجوعه عن قوله. هذا ولما كان مركز المرأة من الأهمية بحيث يجعل منها أداة صالحة بأن تجعلها شريكة لزوج فأما لطفل كان على المفكرين أن يعملوا على إعدادها وذلك بإلقاء محاضرات في يوم من الأسبوع لتعليم الآنسات والسيدات وتزويدهن بما لا بد لهن منه وإرشادهن إلى ما فيه خيرهن ولتعرف المرأة حقها وما يجب عليها لله ولنفسها ولزوجها ولأولادها حتى تحيا حياة سعيدة وتدرك صلتها بالخالق والمخلوق وتسلك في شؤونها الحيوية ما يكفل لها السعادة والهناءة والإصلاح. أسأل الله الذي لا هادي سواه أن يحفظنا من اتباع الهوى ويرضى عنا حتى نكون في الدنيا والآخرة من السعداء وينقشع عنا ما نزل بنا من بلاء.

الحياة الروحية ووجوب العناية بها

اخترت أن يكون موضوع حديثي الليلة توجيه المسلمين وجهة الحياة الروحية السامية التي من لوازمها التحلي بالأخلاق الفاضلة العالية من الصدق والأمانة والعدل والوفاء بالعهد والرحمة والعطف والمودة والمحبة والسعي في الخير لجميع بني الإنسان على وفق ما هو مرسوم في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فبذلك تزكى نفوس المؤمنين وتسمو بهم إلى أعلى عليين وتستنير بصائرهم بنور الله مطمئنة قلوبهم بذكره وعامرة أفئدتهم بحبه.

أما الحياة المادية المحضة فهي حياة مظلمة من شأنها أن تهوى بأصحابها إلى أسفل سافلين وتلقي بهم في حمأة الشرور والآثام متخبطين في ظلماتها لا يخلصون من شر إلا ليقعوا في شر آخر ولا يستشفون من داء إلا بداء. لا هم لهم إلا التهافت على جمع المال من غير وقوف عند حد ومن أي سبيل أمكن ولو بالخداع والغش والتغرير هذا مع الاسترسال في التمتع بالشهوات الجسمانية مستبيحين في سبيل الحصول عليها والوصول إليها كل وسيلة ولو كانت ذميمة وعاقبتها وخيمة، فحلت القسوة في قلوبهم محل الرحمة فصارت قلوبهم كالحجارة وأشد قسوة.

الحق إنه لا يليق بالإنسان الذي كرمه الله أن يرضى لنفسه هذه المنزلة فقد خلقه الله وأعده لمنزلة أعلى منها لا يستطيع الوصول إليها إلا بأن يستبدل الحياة المادية بالحياة الروحية التي كلها خير وبركة على جميع بني الإنسان آخذا من الحياة لحاجته وكمالاته ما شاء في حدود ما أذن به الله عز وجل.

اليوم وقبل ذلك انغمس المسلمون في الحياة المادية المظلمة رويداً رويدا

وانسلخوا من الحياة الروحية المنيرة شيئاً فشيئاً حتى طغت الأولى على الثانية فلم يبق منها إلا الأشكال والقشور على أنه لم يكن لهم من الحياة المادية التي انغمسوا فيها إلا التافه الحقير من متع فردية ولذات بهيمية وقتيه وإطلاق لعنان الشهوات سموه بالحرية وما هو إلا الخزي والعار والويل والدمار فتفككت عرى جماعتهم وتقطعت أوصالها وفقدوا السيادة والعزة والكرامة فلا هم حافظوا على الحياة الروحية التي رسمها لهم دينهم وأباح لهم معها متع الحياة الدنيا على أساس العدل والاقتصاد في كل الأمور ونهاهم عن كل ما يضرهم ولا ينفعهم وكل ما يليق بكرامة الإسلام نسوا الله فنسيهم الله إذ حرمهم من لطفه ووكلهم إلى أنفسهم ويا بئس ما وكلوا إليه. ولا هم سايروا غيرهم في كل حياتهم المادية حتى يكون في استطاعتهم أن يحاربوهم بالسلاح الذي يحاربون المسلمين به وأعدوا لهم من ذلك ما استطاعوا من قوة ثم هم مع عصيانهم الله ومخالفتهم لأمره يدعون ربهم أن يعيد إليهم مجدهم وعزهم وسيادتهم وأن يجمع كلمتهم وينصرهم على أعدائهم وإنه لمن المحال أن يستجيب الله دعاءهم حتى يعودوا بالتوبة الصادقة إليه ويخلعوا ثوب المعصية ويلبسوا ثوب الطاعة ويخلصوا الدين له ويوجهوا وجوههم إليه وحده مع اتخاذهم المسببات التي أمر الله بها سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا.

إذاً فلا نجاح ولا فلاح للمسلمين إلا بعد أن يتوبوا إلى الله توبة نصوحاً ويقبلوا على فعل ما أمرهم به وينتهوا عما نهاهم عنه وبعد ذلك يدعونه بقلوب مملوءة بالإيمان الصادق ونفوس طاهرة زكية فحينئذ يستجيب الله لهم بفضله ورحمته « **إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** » صدق الله العظيم.

وإذا كان الأمر كذلك فالواجب المحتم على المؤمنين الصادقين والمسلمين الطائعين العارفين دينهم حق المعرفة والعاملين بأوامره والتاركين ما نهى عنه أن يرشدوا إخوانهم من المسلمين بالحكمة والموعظة الحسنة والرفق واللين وأن يجعلوا من أنفسهم قدوة لغيرهم ويبينوا لهم أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح تطابق به الأفعال فمن لم يكن بهذه الصفة فهو ناقص في إيمانه.

واعلموا أنه متى صدق الإيمان بالله فالإنسان يكون في حفظ الله ينصره ويحميه من كل شر ويدفع عنه كل ضر ألم تروا أن الله تعالى قد جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم لما أسلم وجهه لله ولم يلجأ إلى أحد سواه. إن من كمل إيمانه وصدق إسلامه يكون في مناعة من لطف الله تعالى وسياج من حمايته فلا يمسه بأذى ما ينبعث حوله من كل مكان من نيران الشرور وغواية الشيطان من المجتمع الذي هو عائش فيه بل تكون تلك النيران برداً وسلاماً عليه كما كانت نار النمرود برداً وسلاماً على إبراهيم.

فما أسعد المؤمن المسلم حقاً وما أهنأ حياته وما أعظم لذته وما أصفى سريرته وما أطهر نفسه. فمتاع الدنيا زائل مهما طال العمر ولذة التمتع به لذة مادية حقيرة يشارك الإنسان فيها غيره من سائر أنواع البهائم والحيوان. فهل يليق بالإنسان العاقل أن يهبط من ذروة الحياة العالية إلى دزك الحياة المادية ؟ إنه لأحمق مجنون.

إن من مزايا دين الإسلام الذي تكفل لمن آمن به حق الإيمان سعادته الروحية والعقلية والجسمية أنه وجه خطابه إلى الناس من طريق القلب وطريق العقل. يظهر لنا ذلك جلياً ويتضح غاية الوضوح لمن نظر في آيات الله تعالى وهدى الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه فلا عجب أن كان الإسلام هو الدين الكامل من جميع النواحي ، الكفيل بسعادة الناس في الدنيا والآخرة. وأنه لم يبق للناس حاجة بعده إلى دين غيره حيث إنه ليس في عقائد الإسلام عقيدة ولا عباداته عبادة ولا في مبادئه مبدأ أو سنة ولا في نصوصه وتوجيهاته نص أو توجيه إلا وله أثر عملي في تكوين الفرد الصالح والبيت الصالح والأمة الصالحة وما أخر الإسلام المسلمين ولكن المسلمين عطلوا دينهم وشوهوا جماله فلم يسيئوا إليه لأن الله تولى حفظه لمن يريد أن ينتفع به وإنما أساؤوا إلى أنفسهم وإلى جماعاتهم وأوطانهم والجزاء من جنس العمل وصدق الله العظيم الذي يقول « **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** » .

تأملوا ما في العبادات التي فرضها الله علينا من النفع للمسلم المطيع من

تطهير نفسه وتزكيتها وتصفية إنسانيته من أدرانها التي علقت بها وبذلك ترقى النفوس البشرية وتحظى بمشاهدة ربها ويا لها من لذة روحية دائمة باقية تضمحل أمامها كل اللذات المادية الفانية.

ففي الصلاة وقوف العبد بين يدي ربه خاشعاً متضرعاً موجهاً وجهه إليه وحده ممتلئاً قلبه بالإيمان به متقرباً إليه سبحانه بعبوديته في طلب العون منه في كل أعماله فإذا اجتمع في الصلاة عمل القلب وعمل الجوارح كانت صلاة كاملة مرجوة القبول عند الله تعالى. قال صلى الله عليه وسلم : ما من أحد يتوضأ فيحسن الوضوء ويصلي ركعتين يقبل عليهما بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة وفي الصلاة تزكية النفس وتطهيرها إذا أحسن المصلي إقامتها . يدل على هذا قوله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء. قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الذنوب والخطايا.

وفي الصلاة الفوز والفلاح وقرب العبد من ربه ولا سيما في حال سجوده الذي هو منتهى التذلل والخشوع قال تعالى : « **قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون** ». وقال صلى الله عليه وسلم : أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.

وفي صلاة الجماعة وراء إمام واحد تسوية بين المسلمين جميعاً في توجيههم إلى الله تعالى وفي هذه المساواة ما فيها مما هو واضح لا يحتاج إلى شرح وبيان.

وفي الصوم تعويد النفس تقوى الله حتى تصير التقوى ملكة راسخة فيها فالصائم إذا حدثته نفسه بأن يفطر وهو في مأمن من أن يراه أحد لا يحول بينه وبين ما حدثته نفسه به إلا مراقبة الله الذي يراه وهو معه أينما كان فيكف حياء من الله. ويتكرر هذا طول شهر رمضان وتزداد المراقبة وتقوى عند

صاحبها وبهذا الخوف من الله لا يقدر الشيطان أن يتغلب عليه. قال تعالى : **« إن الذين آتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون »** .

وفي الزكاة التي هي حق الله في المال تعويد الإنسان على البذل والجود واجتناب الشح والإنفاق في سبيل الله الذي يعود بالخير العظيم على المنفق مباشرة بطهارة نفسه فيحبه الناس لأنه دفع حاجتهم بما أتاهم من ماله وفرج كربتهم وأنقذهم مما كانوا فيه من الضيق والفقير له حق معلوم في مال الغني. قال تعالى : **« وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم »** .

ولو أن الأغنياء امتثلوا أمر الله في إيتاء الزكاة لفرجت كربة كل فقير عاجز ولكان في هذا حماية للمحتاجين الذين تدفعهم الحاجة الملحة إلى السرقات وارتكاب الجرائم.

وفي الحج اجتماع المسلمين كلهم في وقت واحد في صعيد واحد بلباس واحد في حضرة إله واحد ملبين الدعوة ملتمسين الله الهداية والمعونة موجهين وجوههم إليه وحده تائبين عابدين خاشعين لا فرق بين ملك ورئيس وصعلوك وفي هذا المجتمع العظيم يتعرف أهل كل قطر بالقطر الآخر على اختلاف ألسنتهم وتغاير ألوانهم تجمعهم وحدة الإسلام.

فيعرف بعضهم أدواء بعض وما حل فيه من المحن فيتواصفون الدواء الشافي من الداء ينصح بعضهم بعضاً ويوصي بعضهم بعضاً بالحق والصبر

أضف إلى هذا أن المسلم الحاج إلى بيت الله الحرام إذا رأى تلك البلاد المتواضعة والصحاري المقفرة التي انبعث منها نور الهداية الربانية وتلك الجبال الجرداء التي انبثقت منها ينابيع الإرشادات المحمدية ونزل بها الذكر الحكيم الذي لم يفرط مما فيه الخير للناس أجمعين إلا دلهم عليه وأنار لهم السبيل الموصلة إليه. إذا رأى المسلم ذلك أيقن أن ذلك الكتاب المنير لم يكن إلا وحياً من الرب القادر العليم الخبير لعبده محمد صلى الله عليه وسلم الذي اصطفاه لرسالته وأقام بذلك على الناس بالغ صحته أرسله بالهدى ودين الحق وأيده في جهاده بروح القدس فلم يهن له عزم ولم يتسبه ملل ما لاقى في قومه من أنواع

الأذى بل جعل يدعو العقول الضالة ويصلح النفوس الطالحة ثلاثة وعشرين عاماً أتم في ختامها بلاغه يوم خطب الناس خطبة وداعه بمكة معلناً كمال دينه وتمام نعمته على أمته :اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً.

وبالجملة فالعبادات الإسلامية على اختلاف أنواعها هي عمليات تصفية وتطهير لما علق ويعلق بنفوس المؤمنين من أدران الخطايا وحرز لهم من نزعات الشياطين فمتى عبد المسلم ربه حق عبادته طهرت نفسه وسمت روحه وأصبح في مناعة من غواية الشيطان الرجيم ومتى صلح الإنسان استفاد هو في نفسه من صلاحه واستفاد غيره منه إيجاباً وسلباً.

وفقنا الله إلى ما فيه الخير والسداد وألهمنا الرشد والرشاد

الخـــــاتمة

هـذا ما وفقني الله لجمـع هـذه الدروس وترتيبهـا .

نسـأل الله أن ينفـع بها وأن يجعلها وسيلة لرضـاه .

فيا ربي حقق رجائي واجعل عملي هـذا خالصاً لوجهك الكريم لا نبغي به إلا خدمة دينك وسنة نبيك صلوات الله وسلامه عليه ونسألك يا ربي رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها شملي وترد بها الفتن عني وتغفر بها ذنبي وتزكي بها عملي وتلهمني بها رشدي وتعصمني بها من كل سوء يارب ضعف رأيي وقصر عملي وافتقرت إلى رحمتك فأسألك يا كافي الأمور ويا شافي الصدور اشفني من كل داء ونجني من عذاب السعير وفتنة القبور وإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين .

الفهرس

طبع بمصنع الكتاب
للشركة التونسية للتوزيع
تـــونس

توضيح ودراسات لما اشتمل عليه الإسلام من الأصول العامة لتنظيم العالم والرقي بالبشرية واقرار الأمن والسلام في هذا العالم المضطرب .

الشركة التونسية للتوزيع
5 شارع قرطاج — تونس